٧٩

﴿ وَللهِ المشْرِقُ والمغْرِبُ
فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا ، فَثَمَّ
وَجْهُ اللهِ ﴾

« قرآن كريم »

انا الشرق

للمؤلف

مدرسة النبوغ

الكتاب		الطابع
عرش وقلب	(تحت الطبع)	شركة فن الطباعة
حيـــاة بيرون	(دون جوان)	شركة فن الطباعة
حيـاة شللى	(قبور فى جنة الحب)	شركة فن الطباعة
حيـــاة بلزاك	(القصصى الأعظم)	شركة فن الطباعة
التلميذة الخـالدة	(حياة مدام كورى)	شركة فن الطباعة

مدرسة المجتمع

الكتاب	الطابع
أنا الشرق	شركة فن الطباعة
رجال ونساء (١)	شركة فن الطباعة
« « (٢)	شركة فن الطباعة
حياة قلب	شركة فن الطباعة
الموجة العـذراء	شركة فن الطباعة
المرأة لعبتها الرجل	شركة فن الطباعة
شباب الفولجا	مطبعة المعارف
جرائم شرقية وغربية	مطبعة المعارف
العاصـية أو كتاب الغيرة	مطبعة المعارف
غانيات	مطبعة المعارف

مدرسة الحرب والسياسة

الكتاب	الطابع
مأساة فرنسا	شركة فن الطباعة
أسرار انهيار أوربا	شركة فن الطباعة
الرقص على البارود	شركة فن الطباعة
الوحش الأصفر والدب الأحمر	شركة فن الطباعة
الطابور الأول	مطبعة المعارف

الناشر مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

. . . .

الكتاب	الطابع	
باريس	مطبعة دار الكتب المصرية	نفـدت
ما قل ودل (فى جزءين)	مطبعة دار الكتب المصرية	نفـدت
تاييس		نفـدت
الزنبـقة الحمراء		نفـدت
أفروديت		نفـدت
فى الحياة والحب		نفـدت

طرطـــوف / عدو المجتمع } بتكليف من وزارة المعا ف العموميـــة

عبيد الذهب .. أخرجتها الفرقة القوميـــة بدار الأوبرا الملكية

بالفرنســية:

الصحافة المصرية منذ نشـأتها إلى اليوم ... ... (باريس ١٩٢٨)

الاصلاح فى مصر منـــذ ثورة ١٩١٩ ... ... (« ١٩٢٩)

Cat. Nov. 52

أحمد الصاوي محمد

892.7408
M952aA
c.1

أنا الشرق ، عندي فلسفات . .
فمن يبيعني بها طائرات . . ؟

أمين الريحاني

أنا الشرق

79568

Cat. Nov. 52

ملتزم النشر
مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

إلى صديقي توفيق الحكيم

أنا الشرق

منذ بضعة عشر عاماً ، مر بالقاهرة الفيلسوف الشرقي الكبير « أمين الريحاني » وألقى محاضرة خلاصتها : « أنا الشرق !.. عندي فلسفات .. فمن يبيعني بها طائرات ؟! » ...

فابتسم كثيرون .. ولعل الذين كانوا يشتغلون يومذاك بالأدب قد دهشوا لهذه الأمنية .

وها هي ذي الأيام قد دارت دورتها ، وشهد الكون إلى أي حد كان الريحاني صادقاً في حكمه القاسي على الفلسفة .. الفلسفة الشرقية .

وهذه الحرب ، التي يصطلي العالم الآن بنارها ، تعد ثورة على الحرب . فقد انتهى بها عهد الجندي الباسل . لم تعد الشجاعة إلا عاملا جزئياً في النصر . أما العامل الأول ، والعامل الأقوى ، والعامل الحاسم ، فهو المهندس .

فالمهندس هو الذي جلس أمام لوحه الخشبي ، ورسم على الورق أقصى ما يخطر بالبال من خيال الأهوال . تصور الموت نفسه أمامه ، وتحداه بالحديد والنار . فرسم الطائرة ، ورسم الدبابة ، ورسم الغواصة .. ثم عاد فرسم لكل آلة من هذه عناصر دمار جديدة . فلم يكتف بنوع واحد من الطائرات والدبابات . جعل الطائرة لتستكشف ، وتقذف اللهب ، وتلقي القنابل بالأطنان ، وتحمل عشرات الجنود المغامرين بالباراشوت . وكذلك فعل في الدبابة ، فجعلها تكسر الحجارة ، وتقلع الأشجار ، وتخوض المزارع ، وتعبر الأنهار . وجعلها تحمل المدافع ، وترمي بالشرر . وجعلها تقفز الحواجز ، وتتخطى الخنادق ، وتكتسح الأدغال .

ورسم المهندس حوتاً هائلا من الفولاذ ، يحمل فى بطنه الرجال والذخائر والعتاد ، ويحمل الطوربيد ، سهم البحار ، الذى لا يكترث بالعواصف والأمواج والأنواء ، فيقصم ظهر البوارج الشامخة . . . ورسم المهندس ، إزاء ذلك ، حاملة الطائرات ، تلك المدينة المتنقلة ، تبعث أوكارها ، فى وقت واحد ، أربعين طائرة ترمى الغواصات بالحمم ، وتدفنها فى قاع المحيطات .

هذه هى رسالة المهندس والعالم الكيميائى ، يعملان جنباً إلى جنب . هذا هو الحاضر ، وهذا هو المستقبل .

فإلى الشباب المصرى ، نقول : استيقظ ! . . لقد دقت ساعة الحقائق . . فأقبل على العلم بكل قواك . . كن رجلا عملياً ، عاملا ، متنبهاً إلى ما يدور من حولك . لقد بدأت رقعة العالم تتغير ، ووجه الأرض ينقلب . لقد رأينا الأمم ، التى تتفانى فى تجميل الحياة وتزويقها بالفنون والآداب وحدها ، كيف تعانى الويلات من الأمم التى كانت لا تفكر ولا تعمل لغير المدافع والقنابل ، لتدمر ، وتفتك ، وتظفر ، عن طريق العلم ، والكيمياء الصناعية ، والاختراعات النابغية . . .

وأنت يا آلهة الشعر ، فلتجعلى من الشعر للشباب قوة وحياة ! . . وأنت يا أيتها الأرض ، فلتخرجى شباباً واقعياً قوياً ، يفل الحديد بالحديد ، والنار بالنار ، لا بالقصائد وحدها والأشعار ! . .

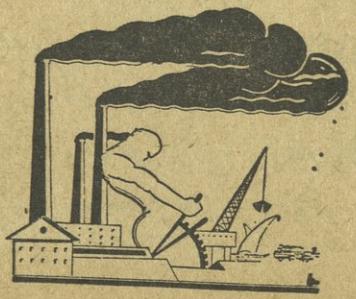

فلسفة القوة

القوة هى الحرية

ليس غريباً أن يتصدى صديق « توفيق الحكيم » لمعارضة ندائى إلى شباب بلادى بالاستفادة من عصر القوة الجامحة ، الذى نعيش فيه ، فلا يظلون محلقين فى أجواء الشعر بأجنحة مذهبة كأجنحة الفراش . . ذلك أنى قد تمنيت أن يستفيد الشرق من أخطاء الغرب وأخطاره ، قبل أن يدفع هو نفسه ثمناً باهظاً لكسله وخموله وتهاونه وضعفه .

نعم ، ليس غريباً هذا الرد من صديق ، وهو من رسل الضعف والخيال ، لا يعيش فى زمنه ، ولا يدرى فى أى زمن نحن نعيش . وهو لا يطالع الصحف إلا لماما ، ليلمح حركة أدبية أو بادرة اجتماعية ، أو تقريظاً لأحد كتبه التى يوحى هو نفسه بها ! . . وهو لا يقرأ البرقيات ، ولا يتتبع أنباء الحرب والويل ، لأنه يخاف على نفسه الناعمة أن تتأذى وتتزعزع من دوى القنابل - ولو على الورق ! - ويخشى على فكره الرقيق أن يسيح من لهب أخبار القتال ! . .

أقول إنه لا يعيش فى زمنه . وهذا من حقه - ولا يعنينا - ولكن ليس له أن يغرر بشبابنا ، ويزيدهم نعومة ، ويدفعهم فى طريق الرخاوة الشعرية .

وما دام توفيق الحكيم قد ذكر فى كلمته « نيتشه » و « فاجنر » ، فإنى أقول له : إننا رأينا ألمانيا تخرج إلى الحرب الماضية مشبعة بآراء فيلسوفها نيتشه ، الذى لم يكن يكترث بخير أو شر ، بل يدعو إلى القوة الغاشمة المطلقة فى الإنسان الألمانى الأعلى . لتزحف القوة وتسحق ، وتحقق ما يريد . وما يريده هو تحطيم ما حوله من حضارة غربية بائدة ، ليبنى على أطلالها الحضارة الجرمانية الأولى .

وهكذا استغل دعاة الحرب فكر نيتشه وخيال فاجنر لتغذية الشعب بروح الحرب وسفك الدماء . وقد سمع كثيرون منا ، حتى فى القاهرة ، أوبرا « لوهنجرين » الحماسية الجميلة ، فنفذت منها روحنا على وجه بريء . . أما « هتلر » فقد اعترف فى كتابه « كفاحى » ، بأنها فتنته ، وغذته بالاندفاع الحماسى لوطنه ، إلى غير حد ، فاستمد منها روح الكفاح والغطرسة والبطش .

ولأضرب لصديق الحكيم مثلا صغيراً من كلامه هو نفسه فى كتابه الأخير الذى أهداه إلىّ منذ أيام ، كتاب « حمار الحكيم » . . فقد جاء فيه أنه باع سيارته واشترى جحشاً ، وأخذ الجحش الرضيع إلى الفندق الذى يسكنه ، واشترى له « بزّازة » من الأجزاخانة ، ليرضعه ، واستعان على ذلك بفتاة شقراء من ساكنات الفندق ! . .

واسمع بالحرف الواحد تعليله الاستغناء عن السيارة :

« . . . أما السائق فلا يريد أن يصغى إلى رجائى كلما طلبت إليه ألا يسرع ، فأنا أبغض السرعة . . إنها تمنعنى من التفكير ، ولطالما أكدت له أنى لست متعجلا شيئاً . ولا شيء فى الوجود يستعجلنى ، فأنا عدو الزمن والوقت . ولم أحمل ساعة قط . فالوقت عندى ليس من ذهب ، بل من تراب كأجسامنا . . : »

فنحن يا صديق توفيق عند ما نردد كلمة « أمين الريحانى » : « أنا الشرق ! . . عندى فلسفات . . فمن يبيعنى بها طائرات » ، نعرف أن الشرق عند ما كان لا يتخذ غير الجمل والبعير مركباً ، قد أخرج « عباس بن فرناس » الذى سبق زمنه ، وفكر فى « الطيارة » . . وأما الآن ، فى الوقت الذى يسير فيه العالم بالسيارة والطيارة ، فإن بعض أدبائنا يريد أن يعيش على حماره ! . .

حقاً ، إن الفكر أساس القوة . . ولكن الفكر السقيم أساس الضعف ، وهو كفيل بأن يخلق لنا جيلا : له أعصاب الفتيات ، وقلوب المراضع ! . .

عش فى زمنك !

ما أظرف أسلوب توفيق الحكيم فى الرد على من يسفهون فيه أحياناً الرأى السقيم ! . فهو يسميهم : « فيران السفينة » ، لأنه كاتب قصصى ، وليس مصلحاً اجتماعياً . . هو يعتصم بالخيال ، ويخاف الواقع ، ويجهله ! . .

أقول إن أسلوبه يعجبنى ، ولا يقنعنى . وإن آراءه ، بشهادته ، تصدر من « برجه العاجى » ! . . فأرجو أن يتنازل ، وينزل قليلا إلى أرضنا المسكينة ، ليرى كيف خضبت بالدماء ، وقد ساهم فى قتلها حملة الأقلام الذين يريدون إغراق الناس فى الترف باسم المدنية ، وفى الفوضى باسم الحرية !

إنه يأخذ الأمور بظواهرها ، لأنه روائى وصّاف . فيعتقد مثلا أن القوى الوحشية تفوقت بعدتها وعددها . ألا فليعلم أن الهزيمة حقاً تبدأ من الداخل ، أو كما قال « بيتان » فى رسالته المؤثرة عن أولئك : « الذين انتشوا بخمرة النصر فبذلوا أقل مجهود » .

وسنعود فنرى أبناء البلاد الباسلة ، التى نحبها ، كيف ينهضون بها ، ويطهرونها من أدرانها ، فتخرج من محنتها مصقولة كسبيكة الذهب التى تخرج من النار . . وليس ذلك جديداً عليهم . فإن شمال فرنسا وشرقها قد خربا فى الحرب الماضية ، فوضعت الحكومة تعويضاً لسكانهما زاد على مئة مليار من الفرنكات . وكانت ديون الدولة هائلة ، وقد اختل نظامها الاقتصادى ، ومع ذلك عاد هذا كله إلى الاتزان ، فى عشر سنوات جهاد بين ١٩٢٠ و ١٩٣٠ ، ولكنه لم يحل ، للأسف ، بعد ذلك ، دون طغيان دعاة التفكك والانحلال .

وعملية التطهير المنتظرة لن تشمل فرنسا وحدها ، بل العالم كله . فإن جانباً كبيراً منه يروح فريسة الكسالى ، والعاطلين ، والرقعاء ، والنفعيين ،

والفوضويين . وإذا كان توفيق الحكيم لا يريد أن يستفيد ويفيد أبناء وطنه من تلك الأخطاء البشعة ، التى ظهرت فجأة بشكل مروع فقلبت الدنيا ، فهو معذور ، لأنه يعيش فى برج من العاج . وهو على حد قوله : « يبغض تحمل التبعات » !

وعندما أقول إن صديق توفيق لا يعيش فى زمنه ، وإن آراءه خطرة على الناشئة ، لأنها ألفاظ مزركشة ومبرقشة ، وليست روحاً مصلحاً مؤمناً قوياً ، لا أرانى متجنياً عليه ، أو عازياً إليه آراء أحد سواه .

وإنى باسط هنا بعض أفكاره هو نفسه فى آخر كتاب ظهر له ، منذ أيام ، لا منذ أعوام . . فنحن نقدر التطور فى الكاتب ، كما نقدره فيما حولنا من انقلابات وأحكام . . .

فى كتابه « حمار الحكيم » ، يقول إنه قصد الريف فى عمل مع جماعة من الأجانب ، نساء ورجالا ، فسمع فلاحاً يقول إن صاحب المنزل الذى سيقطنه كان مرابياً أثرى ، فأبغضه الناس ، وقتلوه . فكيف ينام توفيق ، وكيف يغمض له جفن ؟ ! يقول : « . . . فتملكنى رعب ، وأنا شديد الخوف من العفاريت ، مع الأسف الشديد » ! ! . . وقضى ليله على السطح ، وفى الفجر ترك الديار ، وولى الأدبار ! . .

فأى فرق بين كلامه هذا وما كان يسمعه أطفالنا فى الجيل الماضى عن « أبو رجل مسلوخة » ؟ ! . .

واسمع القصصى الفنان يفسر خوفه ويعلم شباب وطنه : « . . . فإن ظهور شبح لا أستطيع تعليل سره بعقلى ، وأرى أن قد انهار أمام ظهوره منطق ، لخليق أن يصعقنى ، أو يفقدنى صوابى من الفور » ! . .

مسكين صديق توفيق الحكيم ! . . كان الله فى عونه ! . . إنه « شديد الكسل » ، و « الوقت عنده من تراب » ، وهو « يخاف العفاريت ، يصعق من سرها ، ويفقد وعيه من وهمها » ! . . فماذا بقى منه للإصلاح ؟ وماذا بقى منه

فى المصلحين ؟! لا شىء . . أو تقريباً لا شىء ، إلا دعابة ، وخفة روح ، وقصة « المنتحرة » ! . .

وما أبلغ ما وصف به نفسه بقلمه ، فى هذا الكتاب بعينه ، وهو آخر ما نرد به عليه ، فاسمع بالحرف الواحد ماذا يقول توفيق الحكيم عن نفسه :

« فما أنا فى الحقيقة ـ دائماً ـ سوى كوخ مقفر وسط صحراء من الجليد ، وضعت داخله يد المصادفة إناء يغلى ويتصاعد منه بخار ، هو تلك الأفكار التى تخرج من نافذتى إلى حيث تصل أحياناً إلى جموع الناس » !

فهنيئاً ياصديقى لجموع الناس عندنا ـ أيها الكوخ المقفر وسط صحراء الجليد ـ بما يتصاعد من « غلاية » بخارك ، وأفكارك ! . .

[٢٠ يونيه ١٩٤٠]

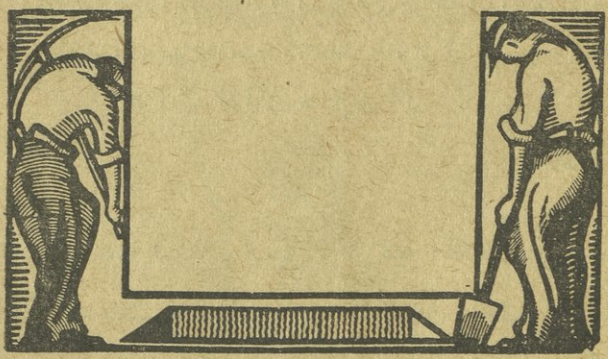

بين الحرية والفوضى

[يا صديقى الصارى

إننى أطالع ، فى شىء من الرضى والسرور ، هذه الصورة المضحكة التى ترسمها لى : صورة ذلك « الفيلسوف » المعتصم ببرجه العاجى ، الذى « لا يتنازل ، وينزل قليلا إلى أرضنا المسكينة ، ليرى كيف خضبت بالدماء . . . إلخ . إلخ . . . » . وإنى معجب بمهارتك الفنية ، وبراعتك الجهنمية ، فى استخلاص نتف من كتابى الأخير ، تعرف كيف تضعها بحيث تنتج الأثر الذى تريد إحداثه فى النفوس . ولا أريد أن أحتج على تصويرك المزرى بى أحياناً . فكثير من الناس يعرفون حقيقة شعورك نحوى . لكن الذى يزعجنى منك هو إصرارك على اعتبارى « عائشاً فى غير زمنى ، لاهياً عن الصراع المستعر حولى ، لأنك ترانى ، والمعركة دائرة ، لا ألتفت إلى غير الفلسفة والفن والجمال والحرية والفكر » . هذا صحيح . لكن . . . أليس فى كل مشاجرة حامية ، تحطم فيها الآنية ، رجل ينحنى بين الصفوف ، يجمع الأزهار التى وطئتها الأقدام ، ويضمها إلى صدره ، ويحتفظ بها ، إلى أن يشرق وجه السلام ؟ . . .

لماذا لا تريد أن أكون هذا الرجل ؟ !

توفيق الحكيم]

* * *

أعتقد ، بعد هذا الكتاب الرقيق ، أن شقة الخلاف بينى وبين صديقى توفيق الحكيم قد دنت ، واختفت أوجه كثيرة من الجدل . وأحب ، قبل تعليقى الأخير ، أن أقول لبعض الناس إنه ما من خصومة بيننا ، ولكنها المودة الخالصة هى التى تجمع بينى وبينه كل مساء ، ولا تحول دون اختلاف وجهة النظر ، وتحكيم الرأى العام ، من حين إلى حين . . .

إن المحنة التى أصابت البلد الذى أحببناه هى التى أثارت هذا الحوار . فهو يدور حول محنة الحرية . ولم تكن صيحتى إلا صيحة الجزع على هذه الحرية . فدعوت إلى اتخاذ أسلحة جديدة لحمايتها . ماذا يكون مصير الأدب نفسه بغير حرية ؟ !

ما هى قيمة الأدب إن لم يكن داعياً للقوة واليقظة لصيانة الحرية ؟ ! وأى حرية يمكن أن تقوم على غير أسس من الخلق المتين ، والعمل المتواصل ، واليقظة الدائمة ، والتضحية المستمرة ؟ !

إن التراخى والترف والبطالة ، ليست من مظاهر الحرية ، وإنما من عوامل الفوضى . والأدب الماجن العابث هو من عوامل الانحلال . ونحن فى الشرق بحاجة إلى « تعبئة عامة » ، روحية ومادية . بحاجة إلى « التسلح المادى » قبل « التسلح الأدبى » ، وإلا وجدنا أنفسنا ، بعد قليل ، أمة منحلة ، ضائعة .

وصديق توفيق الحكيم يحسن صنعاً إذا انضم إلينا فى هذا الزحف القومى الذى ندعو إليه ، لمقاومة كل أسباب انحلال الأخلاق فى بلادنا ، وكل دعاة المجون والاستهتار ، وكل أنصار الفوضى وراء ستار الحرية . . .

مأساة فرنسا

كان أمس ، ٢٥ يونيه ١٩٤٠ ، يوم حداد فى فرنسا . ولم يكن هذا الحداد وقفاً على الفرنسيين ، لأنه شمل كل أحرار الفكر فى العالم ، وكل الذين تثقفوا بالثقافة الفرنسية ، وكل الذين تغذوا بالذوق الباريسى ، وكل الذين عرفوا من التاريخ آيات جهاد هذا الشعب الحر فى سبيل الحريات جميعاً .

ويصعب على غير الذين عاشوا سنوات طويلة مندمجين فى هذا الشعب أن يدركوا اليوم مبلغ آلامه . فإنه من أعظم الشعوب وطنية . وعند ما يكتب تاريخ هذه الحرب ، سيعرف الناس كيف كانت صدور أولئك الشبان تلقى ببسالة أعداء لا عداد لهم ، تحصنوا من دونهم فى قلاع من الفولاذ ، تنفث اللهب ، وتطحن عظام البشر .

وعند ما كتبت كلمتى التى تذكرت فيها صيحة « أمين الريحانى » : « أنا الشرق .. عندى فلسفات .. فمن يبيعنى بها طائرات ؟! » .. وما تبع تلك الكلمة من ردود ومساجلات ، أقول : لم أكن أنتظر أن يحمل إلىّ البريد الفرنسى ، الذى وصل منذ يومين ، تأييداً لفكرتى وشعورى ، وتدعيما لندائى إلى شباب بلادى بالاتجاه بقوة نحو حياة قومية قوية مجيدة ، قائمة على أساس من الحقائق المادية ، غير مسترسلة فى الرخاوة الشعرية ، والنعومة القصصية ، والاستهتار بالفضائل ، حياة غير لاهية بعبث اللفظ ، ومجون الأقاصيص ، والحوار التافه : عن مصير الوطن كله ، الذى ينبغى تسخير ألوان جديدة نبيلة من الشعر والفن والأدب لحماية مصيره ، ورفعه إلى ذروة منيعة لا تطاول ولا تهون . .

فقد جاء فى آخر عدد وصل من جريدة « الفيجارو » بحث للناقد الفرنسى الكبير « أندرى بيلى » بعنوان : « هل أحبنا الأدب أكثر مما ينبغى ؟! » . .

هو فى الواقع امتحان أديب لضميره فى تلك الأيام السوداء التى تجتازها بلاده — قبيل الكارثة الكبرى بسقوط باريس — فقد استيقظ هذا الضمير الحساس الذى كتب صاحبه كتاباً عن « كليوباترة » نفسها . . ووقف ، برغم الشواغل العائلية والشخصية ، يتأمل المأزق الحرج الذى وقعت فيه أمته . وطفق هذا الضمير الإنسانى يتعذب ويندم ، ويشعر بالتأنيب للتفريط فى الماضى ، وأثره فى الحاضر . وقد فسر هو هذا التفريط بأنه الإسراف فى التعلق بالأدب ، وأى أدب ؟

فقد ظل أدباء فرنسا وقادة الفكر فيها فى صميم تفكيرهم واتجاههم من أبناء الجيل الماضى ، كانوا يعيشون فى القرن العشرين بروح القرن التاسع عشر ، مثل « فلوبير » و « جوتييه » و « جونكور » ، يتعلقون بالجمال ويمجدون الخيال . وكانوا يشغلون السنين الطوال بأشياء كعلاقات « موباسان » الغرامية ، أو ديون « بلزاك » المرهقة ، أو فوضى « فرلين » ، وهل كان حبه طاهراً أم دنساً ، وحكاية عشاق البندقية « جورج صاند » وصاحبها « ألفريد دى موسيه » ، وما كان بينهما تفصيلا و تمثيلا ! . .

أما السياسة ، فكانوا يحتقرونها ، ويتركونها « للعقول الغليظة والنفوس الوصولية » ! . . فإذا قيل لهم : إن الواجب الأول المفروض على المفكرين والكتاب فى زمننا هذا هو إنقاذ الحريات مما يهددها أولا ، لأنها هى التى تحمى الأدب نفسه ، ومن دون ذلك لا معنى لوجود الأدباء . . وافقوا ! . بيد أنهم يمضون فى هوايتهم الناعمة الرقيقة ، ناظرين بإشفاق إلى أولئك « الأكاديميين » — المحافظين — الذين ينادون بإنقاذ الحضارة ، وحماية الوطن ، وتقوية الفكرة القومية ، والروح المعنوية ! . . . وكانوا لا يمدون إليهم يداً ، بل يهزون أكتافهم قائلين : إن لكل فرد استعداده .

فليسمع اليوم قول أدباء فرنسا ونقادها كل من فى أذنه وقر . . ولنستيقظ

لنعيش فى زمننا .. ولنقرأ صفحة الندم والتوبة لمن أسرفوا وغالوا فى حب ذلك الأدب .. ولتكن لنا عظة ماثلة من هذا الإسراف ، ومن هذا الندم* ..

[الأهرام : ٢٦ يونيه ١٩٤٠]

... وغزا الحلفاء النورماندى ، وحطموا حائط الإطلانطيق ، وطردوا الغزاة العتاة المغيرين ، وحرروا فرنسا .. وعاد إلى مدينة النور نورها ...

[اكتوبر ١٩٤٤]

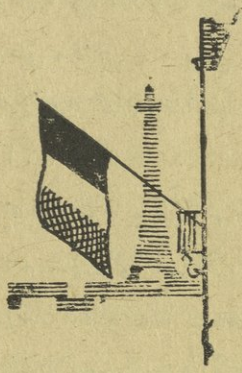

* راجع تأييداً عظيما لهذا الرأى فى كتابنا « مأساة فرنسا » ، هو مانصح به المستر تشرشل للكاتب المشهور أندرى موروا منذ عام ١٩٣٥ ! ...

الحيـاة العملية

أريد أن أضرب مثلا عملياً لشبيبة هذا البلد اللاهى عن حقائق الحياة . فلم تكن مساجلاتى للمفاضلة بين العلم والأدب كما فهم كثيرون . وقد أعود إلى هذا الموضوع لأرد فيه على الأساتذة الأجلاء : عباس العقاد ، وأحمد أمين ، وزكى مبارك ، وغيرهم ممن علقوا على كلماتى ، فى مقالات ضافية ، فى « البلاغ » و « الدستور » ومجلة « الرسالة » و « الأهرام » . وقد لخصت زميلتنا « البورص أجبسيان » هذه الأحاديث بدقة تحمد عليها الصحف الأفرنجية .

إن تطورات الحرب الهائلة التى تطحن العالم الآن كفيلة بلفت نظر الكاتب إلى عوامل جديدة لا عهد له ولا لبلاده بها . ومع ذلك لن أذهب اليوم إلى الكلام عن الفلسفات والطائرات . لن أخرج إلى ميادين القتال لأستخلص بعض ما نحن فى حاجة إليه . وما نحن فى حاجة إليه فعلا هو ما سبق أن ناديت به منذ عشر سنوات إلى اليوم : هو تغيير عقلية الشاب الجديد بحيث لا يحتقر « الحياة العملية » وينقطع « لخدمة الحكومة » . . . فجميع الذين يحتكرون المقاهى هم من اليونانيين ، وجميع الذين يحتكرون محال بيع « الفول المدمس » هم من البلغار خاصة والبلقانيين عامة . . وهذه هى أحقر « الصناعات » التى نترفع عنها ، ونأبى أن نمد إليها يداً .

فالشاب الذى يتخرج من مدرسة صناعية يقبل أقدام الدنيا كلها ليحظى بعد عشر سنوات بالدرجة السادسة . اذهب إلى جميع ورش إصلاح السيارات من أكبر الماركات ، مثل : « كريزلر » و « فورد » و « بويك » و « باكار » ، وقل لى أين هو المصرى الذى يدير ورشة من هذه الورش ! . . إنك ستجد كل الأجناس ، إلا المصرى ! . . مع أن « المهندس » الذى يتولى هذا العمل لا يقل

مرتبه عن ثلاثين جنيهاً شهرياً ، ولا يقل ما يربحه من الزبائن عن هذا المبلغ . وانظر كيف يتوسل إليه الباشوات والبكوات ! . .

ثم إليكم صناعة أخرى ، هى صناعة ماكينات الطباعة ، تركيباً وإصلاحاً . فهذه الصناعة يحتكرها فى مصر ألمانيان اثنان ، لاثالث لهما . . . أحدهما عجوز كان يدعى « كين » فى السبعين من عمره ، يعمل على هواه ، ويشتغل شهراً ، ويضرب دهراً . والثانى « شميدت » ، وهو شاب ، معتقل الآن بالطبع ، ولكنى رأيته مع ذلك ، منذ أيام ، فى دار الهلال ، بقامته المديدة ، رافع الرأس ، فخوراً بعلمه وفنه ، لأنه لا يوجد فى مصر من يعرف هذه الصناعة سواه . وأرباب المطابع ، وأصحاب الصحف ، كانوا أول من سعى عند أولياء الأمور لإطلاق سراحه ، وإلا تعطلت مطابعهم ، وتوقفت صحفهم عن الظهور ! . .

وأنا نفسى قد احتجت يوماً إلى « كين » وإلى « شميدت » . فقد ركب كل منهما ماكينة طباعة فى دار النشر التى أنشأتها . . وعرفت كيف يكون ذل صاحب العمل إلى العامل الأجنبى ، الذى لا يجد له بين الوطنيين قريعا . . .

فياللعار ! . . .

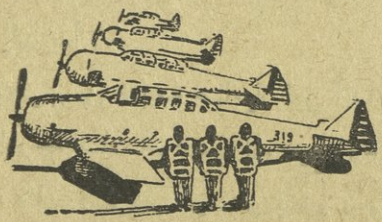

طابور الصمت !..

كان ذلك فى باريس ، يوم ١٤ يوليه ١٩٣٩ ؛ قبل أن تنشب الحرب بشهر ونصف شهر ! . . .

كان شعب باريس الذى قام بتلك الثورات الجسام يحتفل بعيد الحرية ، ويكرم الدم المسفوك . . كان الأحفاد يمجدون جهاد الأجداد !

ولم تشهد باريس قط مثل هذا الاحتفال . كان مظاهرة مروعة للقوة الفرنسية فى أنحاء دولتها المترامية الأطراف . . .

رأينا جنود السنغال بعيونهم النارية وخدودهم المشروطة ، وجنود المغرب بملاحفهم العاجية وعمائمهم الزاهية ، وبحارة الهند الصينية القصار القامة الثابتى القدم ، وفرسان الجزائر بطرابيشهم المطبقة وخيولهم المطهمة . . . ورأينا ، بين تصفيق وهتاف يشق عنان السماء ، جنود الأمبراطورية البريطانية من حراس قصر بكنجهام العمالقة ، يختالون بسترهم الجميلة الحمراء ، ويعلنون ، لأول مرة ، على الملأ ، فى موكب ١٤ يوليه ، تضامن الديمقراطيتين العظيمتين ! . .

ظلت تلك المظاهرة الرائعة تسير الساعات الطوال ، من الجنود والفرسان والطائرات والدبابات ومدافع الميدان والمدافع المضادة للغارات . فكانت إنذاراً صريحاً من الديمقراطيات للديكتاتوريات . كانت تهديداً ووعيداً لاشك فيهما . . . فبهر العالم ، واضطرب ، لأنه شم رائحة احتراق البارود ، وأدرك أن الواقعة غير بعيدة . . . ومع ذلك لم يكن العالم قد شهد إلا جانباً واحداً من أبطال المأساة ، كان العدو المتربص يرى هذه المظاهرة ويبتسم ابتسامة الشيطان . لأن ما كان يخفيه من آلات الدمار والخراب أفظع وأشنع ، وكان سلاحه الأول وسلاحه الأكبر هو الكتمان . وقد ساعده هذا الكتمان على إخفاء أسرار تسلحه

واستعداده . وكان ممثلوه السياسيون يحتجون إذا رأوا صورة ، فى جريدة بالقاهرة أو كوبنهاجن أو إستانبول ، تمثل « روح ألمانيا العسكرية » ، مدعين أنهم رسل السلام ! . . وساعده هذا الكتمان على غزو ثمانى دول ، وسحق فرنسا ، الغريمة الكبرى ، لأن سلاح الكتمان هو سلاح المفاجأة ، فليس ينفع المحارب أن يذيع أسراره يوماً فيوماً ، ويبوح بما يصنعه من الدبابات ، ويفخر بعدد ما يشتريه من الطائرات . . .

وهنا ، أيضاً ، نذكر صيحة « كارليل » الخالدة بالدعوة إلى السر والسكوت .

أليست الأمم أحوج من الأفراد إلى الاستعانة على قضاء حوائجها بالكتمان ؟

أجل ! . . ولعل هذا هو ما فطن إليه الإنجليز أيضاً ، لحسن الحظ ، فدعوا إلى ما أطلقوا عليه : « طابور الصمت » ! . . .

الشرقىّ والغربىّ

دخلت أمس محل بقالة ، يملكه أجنبى ، بشارع قصر النيل ، لا يقل ما يربحه فى اليوم الواحد عن عشرين جنيهاً ، لأنه يبيع جميع أنواع اللحم والطيور والسمك والخضر والفاكهة . وأقة الخوخ التى يبيعها المعلم « جعلص » بخمسة قروش يبيعها « جنابه » بعشرة قروش ، وقد وضع على الخوخ ورقة بهذا السعر ، ليدخل السرور على قلب زبائنه . غير أن بضاعته مختارة فعلا . والفرق بينه وبين ابن البلد أنه « يفرز » الفاكهة ، فيأخذ الجيد ويعرضه بأكثر من ضعف سعره ، ويترك الىء و « المعطب » لسواه . وما يقال عن طريقة عرضه وبيعه الفاكهة ، يقال فى اللحم والطير والسمك والخضر .

ولقد استلفت نظرى فى قسم الجبن والزبد من بين الأنواع العديدة « الجبنة البيضاء » ، إذ وضع صنفاً مصريا ثمن أقته ١٤ قرشاً ، ووضع صنفاً آخر كتب عليه « الإسلامبولى » وثمن أقته ٢٨ قرشاً ! !

وهنا ذكرت كلمة من كلمات « ماقل ودل » عن الجبنة البيضاء ، فى « الأهرام » منذ بضع سنوات ، أشرت فيها إلى العيب الذى يلحق بلاداً زراعية كبلادنا ، وهى لاتعرف إلى اليوم كيف تصنع جبناً أبيض ! !

فى حين أن الإنجليز لديهم الشستر ، والفرنسيين الروكفور ، والسويسريين الجروير ، والهولنديين الفلمنك ، واليونانيين الرومى ، والصربيين البلقانى ، والأتراك الإسلامبولى . . . إلخ . إلخ . .

لا تزال مصر عالة على سواها ، حتى فى الجبنة البيضاء ، تستوردها من الخارج ! ! . . ولقد عجزت وزارة الزراعة ، بجلال قدرها . وعجزت كلية الزراعة ، بكل أساتذتها ومعاملها . وعجزت وزارة الأوقاف ، بكل تفاتيشها ،

عن إخراج « جبنة بيضاء » ذات مستوى واحد (ستاندرد) ، ذات طعم واحد و « حدوقة » واحدة ! ! . .

أما إذا اشتريت من دمياط صفيحة فيجب أن تكون عالماً كيميائياً للمحافظة على هذه الصفيحة . لاتفتحها فى الهواء ، أو تعرضها للشمس ! . . إذا أخذت منها فافتح وأقفل فى الحال ، وإذا نقص ماؤها زدها ماء . . وإذا قل ملحها فضع ملحاً . . وأنت بعد ذلك ستجد حتما لكل قطعة من الصفيحة طعماً مختلفاً عن طعم سائر القطع ! . . بل إن بائعاً آخر يشير عليك بفتح الصفيحة حتى تذهب « كمختها » . . ويقول لك : يجب أن تأكل الصفيحة كلها فى أسبوع .

الحق أنه من العيب أن تكون مصر بلداً زراعياً ، ولا تعرف كيف تصنع جبنة بيضاء ، فنأكل أنواعاً دنيئة رديئة ، أو نضطر إلى شراء جبنة بيضاء إسلامبولية من بقال أجنبى ، وندفع فى الأقة ثمانية وعشرين قرشاً* ! . .

* بيعت الجبنة القبرصية البيضاء خلال الحرب ، فى محل « لاباس » ، بثمانين قرشاً صاغاً للأقة الواحدة ! . .

الصبر الجميل

استيقظت أمس متوعكا شيئاً ما، مزاجاً وجسما . . فرأيت ملازمة الفراش يوماً أو بعض يوم ، وهذا من حقوق البدن ، من حين إلى حين .

ومع ذلك تململت وتمرمرت . عزّ علىّ الانفراد فى البيت ، والعالم خارجاً يعج ويضج . وتذكرت أن هذا الانفراد هو ضرب من الصبر ، والصبر هو من لوازم المرضى اضطراراً ، ولكنه فى الأصحاء من صفات النبغاء . فليس النبوغ إلا الصبر الطويل .

ومما يذكر عن المغفور له الملك فؤاد : أنه كان واضعاً إزاء مكتبه لوحة خطت عليها كلمة : « الصبر » . ولم تكن مجرد كلمة على ورقة . إنه طبعها فعلا على فؤاده ، وحكم بها مصر عشرين عاماً . . صَبر وظفِر . . وتحققت جل أمانيه فى النهوض ببلاده . وكانت له ، فى هذا النهوض ، كل يوم ، غزوات . . كان يحارب كل يوم وينتصر ، بالصبر والذكاء والدهاء . . .

والصبر فضيلة لم تعد فى خُلق أبناء هذا الجيل من الشبان . الصبر عندهم « موضة قديمة » . فى حين أنه طراز كلاسيكى لا تبلى جدته . إن الإنجليز انتصروا فى الحرب الماضية ، وسينتصرون فى الحرب الحاضرة ، بالصبر الجميل . فهو من أجلّ صفاتهم . إنهم يعرفون الانتظار بغير قلق . ويمتازون فى هذا عن الفرنسيين الذين هم مثلنا ذوو قلوب حامية ، يفرغ صبرهم من انتظار البريد الذى يحمل كلمات الحب ، وفى انتظار القتال الذى يحمل الموت ، ولكنه يحمل أيضاً حياة الأوطان .

ويعد « مازاران » من أعظم رجال الحكم فى التاريخ ، لأنه كان صبوراً أشد الصبر . كان شعاره : « الزمن . . . وأنا » . وكانت الدسائس تحاك من حوله

حياكة مدهشة ، فيصبر عليها . . وكانت النساء ، والنساء ألد أعداء الزمن ، يهاجمنه بالجمال والدلال ، فيصمد لهن ، ويعرض عنهن . ولكن امرأة واحدة ، هى : « آنّا دوتريش » ، رضيت بالصبر إلى جانبه ، صبرت معه ، وحكمت معه . فازدهر حكمها فى فرنسا ، مدى عشرين عاماً * . . .

أجل ، إن الصبر ليس من صفات الشباب . إنه يكاد يكون وقفاً على الذين أنضجتهم التجاريب ، وصهرتهم حكمة الأيام . الشباب يندفع بسرعة ، يريد أعز شيء فى أقرب وقت ، يريد المال والمجد ، فى طرفة عين . أو لم أقل إن الزمن هو الصبر ؟ فاعجب للشباب ، الزمن أمامه ، فيلوى عنه كتفه ، وينصرف نافد الصبر من أحماله وأهواله ! . . . أما الشيخوخة ، التى لم يعد لديها وقت ، فهى تنسج ، صابرة ، على منواله ! . . .

هو ذا الصبر قد تجددت « موضته » . . هى ذى الحرب قد جعلت منه للحياة عماداً . الجنود يصبرون ، أمام الموت ، فى الوحل ، والمطر ، والبرد . وأهل المدن يصبرون على غارات الجو ، وأخطار المجهول . وكثيرون أيضاً ، فى الحرب والسلم ، يصبرون على الجوع والحرمان . .

هذا هو الصبر ، وهو من أعظم الفضائل ، يسترد سلطانه . . وهذا عدل . . إن الصبر - كما لاحظ كاتب فرنسى - هو أناقة الأقوياء . . .

---

* راجع روائع هذا كله فى كتاب جديد للمؤلف : « عرس وقلب » . الناشر : مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر .

الإنجليزىّ والفرنسىّ

من الذى يشك فى أن الدنيا اليوم على كف عفريت ؟ فمصير العالم سيتقرر قبل أن يولد العام القادم . لم يعد بيننا وبين حكم القدر إلا بضعة أشهر ! . . .

رد الإنجليز على هتلر بقولهم : « لا » .

قالوها قبل أن ينتصر ، وبعد أن انتصر .

قالوها قبل أن يعرفوا قوة خصمهم ، وقالوها بعد أن عرفوا هذه القوة .

وهم اليوم يدركون إلى أى حد تكلفهم هذه الكلمة ، وإن توجت بالنصر أعلامهم . فهذا نزاع ، الظافر فيه كالخاسر ، يدفع ثمناً يقشعر من هوله البدن .

وكلمة « لا » هذه تمثل كل الخلق الإنجليزى الذى تميز بالبرود : أى الصمود والكبرياء . . فهو على نقيض الخلق الفرنسى الذى تميز بالتحمس : أى التهور والاندفاع .

الإنجليزى لا يعرف المنطق ، ولكنه يؤمن بالتقاليد ، ويتبع العواطف والأحكام المبتسرة والقرارات المؤقتة ، تبعاً لكل حالة . فهو يلبس لكل حالة لبوسها . ولا يصغى إلى فيلسوف أو مؤرخ يعمل فى برج من العاج بعيداً عن ضجيج الحياة ، كما قال « أوستن تشمبرلين » ، فى اجتماع لعصبة الأمم ، يوماً ما ، منذ خمسة عشر عاماً ، عند ما رفض أن يضع توقيعه على بروتوكول جنيف ، معلناً أن مثل هذا التعهد لمبدأ يعد مخالفاً للتقاليد السياسية لأمته !

الإنجليزى رجل عمل ، يؤمن بالتعاون أمام الخطر . ففى الوقت الذى يضطرب فيه الفرنسى ويثور ويسخط ويغضب ويطيش ، نرى الإنجليزى يواجه الموت ، كما يذهب إلى مباراة فى كرة القدم . وبلاده اليوم ملكية ، بيد أن ملكها هو فى الواقع « رئيس لمدى الحياة » . وبلاده أيضاً أرستقراطية ، لأن

أكبر قادتها السياسيين هم من طبقة اللوردات . وهى مع ذلك ديمقراطية ، لأن البرلمان يقوم بالتصويت العام .

والإنجليزى فى السياسة رياضى ، لا يحب فى الملعب أكثر من فرقتين كأكسفورد وكمبردج ، ولا فى السياسة أكثر من حزبين كالمحافظين والعمال . . ولذلك صفى حزب الأحرار ، ولم يكد يسمع بحزب الفاشست . وكان يقال : إن الإنجليزى بمفرده رجل غريب الأطوار ، وإذا اجتمع إنجليزيان لعبا كرة القدم ، فإذا صاروا ثلاثة كونوا أمبراطورية ! . . حتى جاء باحث نفسانى كبير ، هو « س . دى ماداريجا » ، فوضع رسالة مقارنة عن بسيكولوجية الإنجليز والفرنسيين . قال فيها : « إن هذا الوصف يعد ظالماً ، لأن رجلا إنجليزياً واحداً يكفى لتمثيل الأمبراطورية البريطانية » ! !

وإذا عدنا إلى الفرنسيين ، فماذا نجد فى تحليل الخلق الفرنسى السياسى ، كما وصفه الداهية المجرى « كورنيس » ؟

نجد فرقاً شاسعاً بين الخلقين الفرنسى والإنجليزى . فهما على طرفى نقيض . ليس الفرنسيون شعب التطور التاريخى البطىء ، ولكن شعب التغييرات الثورية الفجائية . شعب شديد التأثر ، قوى الاندفاع ، بلا « فرامل » ولا « صواميل » . شعب « المأساة » لا « الرواية » . وخط تطوره ليس مستقيما ، ولكنه كثير التعاريج والمنعطفات ، ففى آخر القرن الثامن عشر قلبت الأمة الفرنسية الحكومة الملكية باسم الديمقراطية والحرية . ومع ذلك لم تمض عشر سنوات حتى عادت فرنسا أمبراطورية مطلقة ! . . ثم ارتدت فصارت ملكية محافظة ! . . ثم تحولت إلى ملكية بورچوازية حرة ! . . ثم كانت ثورة أخرى ، ردت الجمهورية الثانيـــة ! . . ثم انقلاب حكومى أعاد للسلطة أمبراطوراً ! . . ثم سقط هذا الأمبراطور فى ١٨٧٠ ، وعادت فرنسا إلى ما كانت عليه فى ١٧٩٣ ، إلى الجمهورية ! . .

فلا توجد على هذا أمة كفرنسا فى اندفاعها وتحولها وانقلابها .

هل ترانا نفهم الآن ، بعض الفهم ، السر فى أن الفرنسيين قالوا لهتلر : « نعم » ، وأن الإنجليز قالوا له : « لا » ؟

لعل الإنجليز أنفسهم كانوا يشعرون ـ دون أن يذكروا ـ فى رفضهم هذا ، بكلمة شاعرهم العظيم « ملتون » :

« إننا الشعب المختار لتعليم الشعوب كيف تعيش » ! ! . .

[الأهرام : ٢٦ يوليه ١٩٤٠]

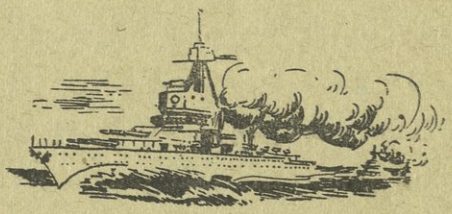

النسيان

أحقاً أن البعيد عن العين بعيد عن القلب ؟ ! ما أصعب ذلك وأشده على النفس إن كان حقاً ! بل ما أصعب أن ينسى المرء يوماً من كانوا ملء العين وملء الفؤاد ! . . .

البرد هنا شديد جداً ، سبع درجات تحت الصفر ! ولكنك تشعر فيه أنك تزداد قوة وصحة ونشاطاً . لابد من برد شديد ليزيل الخمول الطويل ، ويمحو آثار الدنج الرذيل ! . . . الجليد يتساقط فوق كل شيء ، فكأنه شمس ناصعة مشرقة ، من نوع آخر . . هذا الثلج البهيج يتوج الكائنات ، ويكسبها جلالا . .

الروس من حولنا يحتفلون بعيد ميلادهم ، ويحاولون أن ينسوا هول ما بهم . هؤلاء الذين كانوا بالأمس يملكون الضياع والقصور ، لايكادون يجدون قوت يومهم . . . وهم الليلة يحطمون الكؤوس ، لكى يحطموا « سوء الحظ » ، ويخففوا من ويل المصير !

كل يجيء باريس حاملا ذكرياته ، سائلا النسيان . ولكن أليس فى النسيان بعض الجمود ؟ بأى حق ينسى المسافر ، ويتذكر المقيم ؟ !

فى السفر إذن بعض الخيانة ، وبعض الجبن . السفر أحياناً ضرب من الهرب من الألم ، أو ضرب من المخدرات الروحية التى يحتاج إليها كثيرون من الخياليين ، ليستأنفوا السير فى مواكب الأحياء ، فى مواكب الجاحدين ، فى مواكب الماديين .

وطلعت الشمس ، فأهرعت باريس إلى غاب بولونيا ، تسير على الثلج ، وتتطلع إلى الشمس . فتذكرت المثل الأوربى القائل : « إن صاحب اليدين الساختين يكون بارد القلب » ! . . وقلت فى نفسى : إن شمسنا ساطعة فى كل آن . . إن شمسنا حارة ساخنة . . ولكن عواطفنا فاترة متغيرة . .

لا خوف إذن من السلوى والنسيان ! .

[باريس : ١٩٣٩]

عنـد ما ساد الظلام

ساد الظلام مدينة القاهرة . وأنذرت صفارات الخطر الناس بوجوب الالتجاء إلى المخابىء والكهوف . وأغلقت المقاهى أبوابها فى وجوه روادها ، ولم ترحم عشاق « الطاولة » ، ولا الذين لا تحلو لهم الحياة إلا بنهش أعراض الناس فى المقاهى ، لأنها هى أيضاً زهدت فيهم ليلة ! . .

عرف كثيرون ، كثيرون جداً ، أمس ، أن لهم بيوتاً . عرفوا ذلك عندما طردتهم الشوارع بظلماتها ، وطردتهم الملاهى ، واعتذر أصحابهم لهم ، واسودّت الدنيا فى وجوههم . عادوا إلى البيت ، فاستقبلهم بالحرارة والضياء . . .

عاشوا أمس بين زوجاتهم وأولادهم . فمنذ شهور طويلة لم يقضوا ليلة كاملة فى هذه البيوت ، اللهم إلا بسبب المرض . . كانوا أمس أصحّاء معافَيْن ، ومع ذلك لزموا بيوتهم ، وعاشروا أهلهم !

كثيرات هن اللواتى تمنين أمس أن يظل شبح الخطر باقياً ، والظلام سائداً . فقد تذوقن شيئاً من السعادة والسلام . . ما أشد قناعتهن ، وما أجملها ! .

وفى الجانب الآخر من الأرض أخوات لهن يعشن عيشاً متواصلا فى الخطر الحقيقى والظلام الشامل ، لا يرين موضع أقدامهن من الطريق ، ولا من المستقبل الغامض الكئيب . لقد بعثن إلى خطوط القتال بالأزواج والإخوة والأولاد . وبقين بغير عائل ، لا يطمعن فى مجد ولا فى مال . أدّين الواجب لبلادهن ، وانتظرن صابرات ، كريمات على الدهر ، عزيزات على الوطن . . لم يعدن يخشين أزيز الطائرة المعادية ، ولا صفير الإنذار المخيف المروّع ، ولا الظلمات الحالكة الرهيبة . إنهن فى عزلة روحية عن هذا كله . . إنهن يعشن بأرواحهن وقلوبهن مع أولئك الأحبة الذين يواجهون الموت فى المغاور

والكهوف والخنادق ، تحت سيوف البرد والثلج والصقيع ، تحت وابل من الرصاص والقنابل ، تحت سحب من الغاز الذى يخنق الصدور ويطمس الأبصار !

فليحمد نساؤنا مصيرهن . وليذكرن الويل الذى فيه أخوات لهن . وليعلمن أن أسباب الضجر التى هن فيها ، لحرمانهن بعض الحرمان من أزواجهن ، لا تكاد تذكر إلى جانب آلام الأخريات .

أما الأزواج ، فماذا أقول لهم ؟ ! إنهم رأوا ، ليلة أمس ، بهجة البيت وجماله . إنهم ذاقوا بين أولادهم هناء لا يستحقونه ، جاء اضطراراً لا اختياراً ، لافضل لهم فيه . فلماذا لا يكون أيضاً عن طيبة خاطر ؟ لماذا لا يتعظون بما يصيب الآن الرجال الذين فى الشاطىء الآخر ؟ !

أى تضحية منهم ، تضحية الشارع والمقهى بعض الليالى فى الأسبوع ، من أجل الزوجة ، ومن أجل الولد ، ومن أجل الضمير ؟ ! . . . أغنى من أجل النور ، والمحبة ، والواجب ! . .

المهنة قبل الزواج

وقف ماريشال الطيران البريطانى السير نيووال خطيباً فى طلبة مدرسة الطيران بكرونوال ، فحدثهم لا عن قوة الهواء فى التعليم حتى أصبحت المتحكمة فى مصير الشعوب ، بل حدثهم عن « الزواج » !.. فقال : « فكروا فى مهنتكم أولا . ثم فكروا فى الزواج بعد ذلك . إنكم لا تحسّنون مراكزكم بالزواج المبكر وأنتم شباب . ولكنكم تضاعفون مسئولياتكم ! »

وهذا القائد الكبير ، أراد فى خطبته أن يطبّق نظام حياته ، فهو قد تزوج فى سن الأربعين ، ووفق فى زواجه . بل إن شخصاً عظيما جداً ، أعظم من هذا القائد — وهو إنجليزى أيضاً — قد تزوج أخيراً فى سن متأخرة ، ولكنه ، لكى يتزوج ، تخلى عن مسئولياته ، ونزل عن تاجه !

وقديماً قال العرب : « الولد مجنة مبخلة » . فلعل هذا هو الذى يريده القائد الهمام ، لأن الطيران يتطلب الشجاعة والكرم المطلق . . وكثيراً ما يطلب من الطيار أن يجود بالنفس فى سبيل الأوطان .

وليس الزواج ، ولا سيما عند الغربيين ، بالعملية التجارية التى تقتضى التنفيذ فى وقت معين . وليس هو قطاراً يقوم من محطة معينة فى ساعة محددة ، ولا شقة فى منزل يبحث عنها الإنسان ليستأجرها بعقد . . إنما الزواج عندهم — كما قال ستندال — هو غرض الوجود الأساسى ، وهو أيضاً الحق فى الحب .

وإذا أردنا أن « نداعب » ، قلنا : لماذا يخشى القائد المحنك على شبانه من الزواج إلى هذا الحد ؟! ومن هم الشبان الذين يتزوجون ويعرفون المسئولية ؟ إن أغلبهم يتزوجون ليتركوا لآبائهم إعالة زوجاتهم وأولادهم ! ولا يلبثون بعد الزواج طويلا ، حتى ينطفىء البريق ، وتتجلى المتاعب والشواغل . وعندئذ — إذا كانوا طيارين — تزيد رغبتهم فى الخطر والمجازفة ، لعل فى الخطر الخلاص ! . .

المدينة المحاربة

الإسكندرية : المدينة المحاربة الأولى فى المملكة المصرية ! . . كان الناس ينتظرون لها موسماً بديعاً فى هذا الصيف الذى حرم فيه المصيفون الرحيل الى أوربا . فبنوا العلالىّ والقصور . فجاء دخول إيطاليا الحرب فتركها مقفرة من المصطافين . فمن كان يزعم أن أغسطس سيجدها مقفرة ؟ أين سيدات سيدى بشر ، وغانيات جليم ؟ لم تبق منهن غير أسر معدودة ، وتركن البلاج للخادمات !

لكل شىء عزه وذله ، حتى شواطىء البحر ! . .

كانت الرمال من حولى تتكلم همساً . . كأن حياتها ما زالت تذكر . . ها هنا ضجعة اللطف ، وها هنا لمحة العطف ! . . ها هنا تبودلت نظرات ، وتبودلت خفقات ! . . ها هنا اشتعلت نار ، ثم خمدت فى دقائق وثوان ! . . وها هنا ، تحت الرمال ، آثار نار لا تكاد تبدو ، منذ سنين ، وإن كانت لا تزال تتلظى ، لأنها كانت ناراً روحية طاهرة ، لا تخبو أبداً ! . .

خففت الوطء على أديم هذه الرمال . فما أظنها إلا بقية قلوب محرومة ، كان شفيعها فى اللقاء البحر ، وكان عذرها فى الفراق القدر !

وفى الليل طغت الظلمات على عروس البحر الأبيض ، فلبست ثوب الحداد . صارت حزينة حزناً لا يوصف ، فلا نظرة ، ولا ابتسامة ! كنت ترى الكورنيش الذى لا آخر له وقد اتشح بالسواد . وتتأمل آلاف النوافذ التى كانت بالأمس تتجاوب بأنوار الصفاء ، وتفيض الحجرات من ورائها بكؤوس الهناء ، فإذا بها كلها مغلقة ، معتمة ، خرساء ! . .

وفى مساء يوم السبت دخلنا المطعم الأنيق الوحيد بشارع فؤاد الأول ، فإذا به قد اختفى وراء ستائر غليظة كثيفة ، أزحناها ، فرأينا المطعم من ورائها يتلألأ

نوراً ، والنساء فيه قد أحطن بالرجال كما يحيط النحل بخلاياه . فلم نجد خلية . فتعشينا على الرصيف الخارجي ، فى الظلام الحالك ، لا نكاد نرى لطعام أو شراب لوناً . . وكان من حولنا بعض ضباط الأسطول البريطانى ، بصحبة سيدات إنجليزيات فى ثياب السهرة . وكان مرحهم خالصاً ، يضحكون من صميم القلب ، كأن المصير ناعم أمين ، وكأن الدار عقباها لهم عن يقين !

ما أعجب هذه الظلمات !. إن لها سراً . إن لها لغة . إن لها حديثاً ! . .

كانت النظرات فيها — على ظلال القمر الشاحب — غريبة ، حارة ، شائقة . . كان كل ما حولنا يبدو جميلا ، وكأن هذه الظلمات موجات حنان ، تجمع هذه القلوب ، التى جاءت من الهند ، وجاءت من السند . قلوب جاءت من ضفاف التامیز ، والسين ، والنيل . . وكان بينها حتما قلوب من « التيبر » ، وقلوب من « الفولجا » ، وقلوب من « الدانوب » .

كانت فى هذا الجو الحالك شرارة المحبة الإنسانية ، الشرارة الكهربائية التى تطهر الاختلافات ، وتجمع المعادن البشرية ، من كل الأرض ، وتسبكها سبيكة واحدة . . .

كان هذا الظلام بشير النور فى الغد . . كان كالجو الغائم ، تعقبه ، حتما شمس مشرقة ! . . .

الترفُّع بالإسلام

هناك مسألة من أخطر المسائل ، وأشدها دقة ، وأدعاها إلى عناية ولاة الأمور ، واهتمام المشرّعين والثقات فى علوم القوانين المدنية والمذاهب الإسلامية . وأعنى بها : خروج غير المسلم من دينه ، ودخوله فى دين الإسلام .

فالمحاكم الشرعية حافلة بهذه الطلبات من رجال ونساء . ونكاد نجزم بأن الكثير من هذه الطلبات لم يقدم عن يقين ثابت راسخ بأن صاحبه قد قارن بين دينه ودِيننا ، وآثر أن يموت على مذهب رسولنا .

كثير من هذه الطلبات احتيال غير مشروع ، للخلاص من حياة زوجية ، أو الكيد والتشفى ، أو لما شابه ذلك . .

وإنى أضرب مثلا واحداً هنا :

سيدة من أسرة معروفة ، مسيحية ، أرادت الخلاص من زوجها المسيحى ، ولا سبيل لها إلى الطلاق . فأسلمت . وبذلك طلقت من زوجها . ولكنها لم تلبث أن تنصّرت مرة أخرى ، لتتزوج من مسيحى آخر ! .

قد يقولون : إن الدين مباح ، يدخله من يشاء ، ويخرج منه من يشاء ، متى شاء . ولا إكراه لأحد ، ولا ضغط على أحد ، فيما يرغب ، وفيما يترك . ولكننى ، كمسلم ، أحب دينى ، وأتمسك به ، وأريده دائماً موفور الكرامة ، ملحوظ المكانة فى جميع النفوس ، من جميع المذاهب . . أقول : إنه لا بد من حماية الدين نفسه ، من الذين يطمعون فى حمايته ، لمآرب فى نفوسهم ليست شريفة دائماً .

ذلك أن هذه الصور المتوالية من الاستغلال للسماحة الإسلامية السامية ستطبع بعض الأذهان بأن الدخول فى دين محمد صلى الله عليه وسلم ، فى كثير

من الظروف ، هو دخول مصلحة ، وليس دخولا نزيهاً خالصاً لوجه الله .

فما هى حالة أولئك الذين يكونون فعلا قد اقتنعوا بهذه العقيدة ، وأرادوا اتخاذ الإسلام ديناً ؟ كيف تكون تبرئتهم من شبهات ظالمة لا أساس لها ؟ أليست القاعدة المعروفة : أن القرش الزائف يطرد القرش الصحيح ؟!

إن التدقيق فى قبول الراغبين فى الإسلام ، ينبغى أن يكون معادلا التدقيق فى قبول الراغبين فى الجنسية المصرية ، ليلوذوا بها فى مزاحمة المصريين فى طرق العيش والمنافسة على الرزق .

وليس يجوز أن يكون الإسلام تكأة يعتمد عليها المتخاصمون من أرباب الديانات الأخرى ، حلا لمشاكلهم أحياناً ، وتعقيداً لمشاكلهم أحياناً . . .

ذكريات

آخر أغسطس ١٩٣٩ .. فى باريس .. الحرب على الأبواب .. أوربا كلها دخلت فى أتون من نار .. تريد أن تصهر مرة أخرى . وتكفّر عن ألوف السيئات !

كل أصدقائه ومواطنيه قد رحلوا عنه إلى الأوطان . وكان لم يقرر خطة بعد . كان يريد أن يعيش دهراً فى ذلك الجو الملتهب ، جو الموت ، ليخرج لبلاده عظة من عظات الحياة .

بدأوا يلصقون على جدران داره الجميلة دعوة الدفاع الوطنى ، طبقة بعد طبقة ، إلى الصفوف .. كل ورقة نداء من هذه بمثابة إنذار جديد بالخطر المدلهمّ . وكانت الصحف تفيض بدعوة أهالى باريس لهجرها إلى الريف .. فكان يرى نوافذ جيرانه تفتح على مصاريعها ، وهم يغطون الأثاث ويحفظون التحف الثمينة ويحملون ما خف حمله . ثم تقفل النوافذ ، ويسود المساكن ظلام دامس ، وصمت موحش . وتخفت أصوات الخادمات اللواتى كن يترنمن بأناشيد الحب ، وأغانى الهوى ، بينما ينظفن المطبخ ، ويرتبن البيت ...

كان عشه الصغير ، عش البلبل ، غاية فى الأناقة ، أمام تمثال « بلزاك » فى حى الشانزليزيه ، أجمل أحياء العالم ، يسوده السلام والصفاء ، لولا كآبة الليل فى المدينة ، التى كانت مدينة النور ، فغدت مدينة الظلمات .

والستائر الكثيفة لا تزال مسدلة ، كما لو كانت تريد أن تحجب عش البلبل عن وحشة الطريق ومخاوفه وأخطاره .

استيقظت « س » مبكرة كعادتها .. لابد لها من أن تذهب إلى فرقتها النسوية للصليب الأحمر ، وتؤدى مهمتها فى مساعدة المهاجرين على الرحيل ،

وفى انتظار الجنود وتوديعهم فى محطة مونبارناس .

والساعة الثامنة صباحاً . . وكان لا يزال ، بالطبع ، نائماً ، فلماذا يستيقظ فى ساعة العمال ؟ ! إن باريس العمالية تستيقظ فى السابعة ، وباريس التاجرة تستيقظ فى الثامنة ، وباريس الأرستقراطية تستيقظ فى العاشرة ، وباريس البوهيمية تستيقظ عند الظهر . . وهو فنان . . يعيش أحياناً الحياة العمالية ، ثم البوهيمية البرجوازية ! . . ويعيش غالباً بين بين . . بين أصحاب القصور والمتشردين فى الطرقات حتى الفجر . . بين أغنى الناس وأفقر الناس . . فنان يعيش اليوم وفى يده مئة ألف فرنك ينفقها بغير حساب ، ولا يجد غدا قوت يومه ! . . .

قالت له ، بعد أن حسرت الستائر ، تحاول بالنور أن توقظه ، وهو نصف نائم ، يبتسم ، وهى تصيح : « يا للرجل السعيد !.. أيها الرجل السعيد ! . تنام ؟!. بينا أنا أموت نعاساً ، ولا أستطيع أن أغمض بعد جفناً ؟ ! أى مسئولية تحمل أنت ؟ ! بلادك جميلة لا يهددها شىء ، وقلبك خلى لا يخشى فراقاً ! . . إنك تحمل أوهامك وأحلامك ، وتتنزه بها ، وتعيش من ورائها ؟ ! . . إن حلمى بك ، وحبى لك ، ستأخذ عليه أجراً يوماً ما ، يوم تكتبه وتصوره لقرائك !.. أيها الرجل العجيب السعيد ! . . تستيقظ متى تشاء ، وتنام ما طاب لك ، وتحلم بالجنة والسعادة ، وتتقاضى أتعابك عن اليقظة ، وعن المنام ، وعن الأحلام !.. أتعرف ماذا حدث لى أمس ، فى محطة مونبارناس ، وكنت مع زميلة لى فى ثياب ممرضات الصليب الأحمر الناصعة ؟ رأتنا عجوز شمطاء دميمة ، من المشرفات على حركة التطوع للدفاع ، فنهرتنا ، وعنفتنا ، وشتمتنا ، وزجرتنا ، لأننا كنا نظيفتين متأنقتين ، قائلة : « أما تخجلان من هذا الأحمر والأبيض فى الوجنتين ؟ . ونحن على شفا جرف هار من الخراب والدمار ؟ » . . وهل تعرف ياصديقى كيف جاء الرد عليها ؟ إن جنوداً من شباننا الشجعان رأونا فى طريقهم

إلى الميدان فأعجبناهم ، فقالوا ضاحكين معنا : « ما دامت لنا ممرضات جميلات كهؤلاء ، فلنبادر إلى الحرب والطعان ، لنجرح ، ونعود سريعاً ، نلق على أيديهن البرء والشفاء ! . . . »

وأتمت « س » ارتداء ثيابها . وأمسكت بيدها قبعتها . . وجاءت تضع قبلة أخيرة على جبين صاحبها المسترسل ، ظاهراً ، فى النوم ، ليكايدها ويداعبها . . عيناه مغمضتان . . وقلبه معذب يقظان . .

آخر أغسطس ! . .

ما أكثر ما حملت ، أيهذا التاريخ المنحوس ، إلى قلوب الناس ، من شجن ، ومن يأس ، ومن أحزان ! . .

دروس للشرق

عود إلى الإسكندرية .. لا أرضى عنها بديلا .. هيهات أن تزاحم رأس البر رأسَ البحر !

الطريق الصحراوى يشرح الصدر . ما أحوج الذين يعيشون فى ضوضاء المدينة إلى هذا الهدوء ، إلى هذا الهواء ، إلى هذا السراب نفسه ، الذى يحسبه الظمآن ماء !.. ما أحوج عيونهم إلى رؤية شىء ضئيل تافه ، كذلك العشب الجافّ ، بدل تلك العمارات الشاهقة والمبانى المتزاحمة !!

شمس الظهيرة لا تزال حارة لافحة . والهواء شديد يكاد يكون عاصفاً . فأغلقنا نوافذ السيارة . وأدركنا رجولة هؤلاء الجنود الذين جاءوا من كندا وأسكتلندا ، ليعيشوا فى خيم مضروبة فى صحراء شمسها بالنهار محرقة وبردها بالليل قارس ، ليستهدفوا لأخطار مجهولة تهددهم فى كل لحظة من الليل والنهار . انقطعت عنهم أو كادت أنباء أهلهم وأولادهم ، هؤلاء الأهل الذين يعيشون مثلهم فى خطر دائم ، فلا يعلمون هل يجمع الله الشتيتين ، أم يضرب بينهما بسهم فراق لا لقاء بعده .

إن مثلهم عظيم فى التجلد والتضحية ، يصبرون على المكاره ، كأنها برنامج سعيد ، ويستوى عندهم الموت مطمورين فى جليد أوربا ، أو مدفونين فى رمال أفريقيا .

يستوى عندهم الموت ساقطين محترقين من علو شاهق فوق السحب ، أو ذاهبين طعاماً للسمك ، فى قلب البحر ، من غواصة خائنة .. يلقون هذا كله كل يوم ، كل ساعة ، والابتسامة على شفاههم ، لأن رسالتهم العليا هى حياة وطنهم ، لا يسألون : هل هذا الوطن مخطىء أم مصيب ، على حق أم على باطل ؟

وهل هذا الوطن قوى أم ضعيف ، مستعد أم على غير استعداد ؟ . وهل حظه من النصر كبير أم صغير ؟ . لا يسألون عن المذنب إذا ادلهمّ الخطب ، ولا يهمهم أىّ رجالهم عقد لسياسته النصر . . لا تهمهم الحوادث ، ولا الأفراد ، ولا السياسة . . وإنما يهمهم شىء واحد ، هو : أن يكونوا جميعاً ، على اختلاف ألسنتهم ، وأسلحتهم ، ومذاهبهم ، وأحزابهم ، ونزعاتهم ، : كتلة ، واحدة متعاونة تقف صفاً واحداً ، فى الوطن وخارجه ، للدفاع المسلح ، والدفاع السلبى ، للموت إذا دعاهم الموت ، فى أدغال آسيا ، أو كثبان أفريقيا ، أو ثلوج النرويج ، أو شوارع لندن .

ما أحوج الشرق إلى هذا الدرس ! . . . وهو ليس عليه بعزيز ، وليس عنه ببعيد . . . إنه ها هنا فى صحرائه ! . . .

من أثر الحرب

مساء الخميس .. عادت القطع التى كانت قد سافرت من الأسطول البريطانى فى مناورات رودس .. عادت إلى الميناء .. فانتعشت الإسكندرية ، وزادت الأشباح البيضاء - ثياب البحارة - فى أمواج الليل السوداء . فسهرنا فى «كباريه» . قلنا : ننظر ماذا صنعت الحرب بأهل الملاهى . فوجدنا النتيجة مؤلمة ، والمشهد كئيبا .

كانت أوربا الوسطى هى المتعهدة بتصدير تلك البضاعة الجميلة من العيون الزرق والشعر الذهبى . حتى جاءت الحرب فردت بضاعتها إليها . وبقيت دور اللهو فقيرة إلا من أنقاض الجمال ..

كان فى ذلك الملهى السكندرى نحو عشرين فتاة ، لا تكاد تجد بينهن أكثر من واحدة «مقبولة» .. ثيابهن زرية لا ذوق فيها .. جالسات محزونات فى انتظار من يزداد به السكر وتؤثر فيه الخمر ، فتصبح الدميمة لديه جميلة !

لم نجد براعة فى الغناء ، ولا فى الرقص .. كان الملهى كأنه ملتقى أناس طردتهم ظلمات الطريق ، فلجأوا إلى مكان منير .. لا شىء فيه غير النور ، وقد أغلقت منافذه وأبوابه ، فأصبح حره لا يطاق .

وأفسح الرقص للحاضرين .. فقام بعض الضباط يجرّون أقدامهم جرّاً ، ويخاصرون من شاءوا من بنات الهوى .. فكانت المجموعة عجيبة شاذة ، لا انسجام فيها ، ولا روح لها .. وهى أدعى إلى الرثاء لابن آدم ... فكدنا نختنق .. ولم نتصور كيف أن كثيرين لا تطيب لهم ، كل ليلة ، إلا حياة الكباريهات !.. ماذا يجدون فى هؤلاء الفتيات المسكينات الذليلات ؟! .. ماذا يجدون لديهن من مرح يسعدون به ؟! إنهن لسن إلا أجساماً ذابلة ، وقلو بآدامية !

ثم قامت فتاة من « بنات الناس » المتفرجات مثلنا ترقص مع رجل معها . بدت حسناء بجسمها الغض ووجهها النضر ، بين تلك الوجوه الكاسفة ، والأجسام المترهّلة . إنها بالطبع لا تسهر سهرهن ، ولا تعيش عيشهن . . ومع ذلك كان رقصها مدهشاً . كان شيئاً لا نعهده إلا من محترفة أصيلة . كانت خبيرة بكل أنواع الإغراء فى الحركة والإشارة . كانت مجموعاً مثيراً لمن يراقصها ، ولمن يشاهدها . كانت تلاعبه فى الرقص وتداعبه ، كأنها ليست على مرأى ومشهد من عشرين امرأة وخمسين رجلا . كانت تروح وتجىء ، وتقبل وتدبر ، وتلوى كتفها وتنصرف ، ثم تحنو فجأة وتنعطف ! . . . وكانت تضرب كفيها بكفيه ، ثم تضرب ركبتيها بكفيها ، ثم تضرب رفيقها بجنبها مرة ، وتهرب منه مرة ! . . وكانت الموسيقى تحنو ، فتبعد عنه ، وتفارق ما بينها وبينه . . ثم كانت الموسيقى تعصف فتلتصق به ، كما لو كانت خائفة ولهى . . وتلصق خدها بخده ، وتغمض عينيها ، ناظرة إليه من وراء الجفون ، وكأنها فى حلم لا تريد أن تستيقظ منه . .

مسكينات هؤلاء المحترفات الرقص من حولها ! . . لقد انصرفت عنهن الأنظار ، لأن « بنت الناس » قد بذّت « بنات الهوى » ! . . .

الويل لنا من هذا الجيل الذى نعيش فيه ! . . كيف يمكن فتاة كهذه أن تتزوج ، وأن تقدر حرمة الزوجية ، وأن يكفى خيرها شرّها ، وتنام من المغرب ، وتصبح أماً فاضلة ؟ ! . . .

كيف لنا أن نعيد عقلها إلى رأسها ، بعد ما أضاعت العقل ؟ ! . . .

الحرب والأمومة

« ستانلى باى » ، وقت الظهيرة .. هذا البلاج صديق قديم .. حديثه لا يملّ ، وشبابه لا يحول .. كنت برفقة الدكتور « محمد عوض محمد » .. وهو رفيق للسفر عظيم ، وصديق لكل الأيام ، جمع بين العلم والأدب ، فآتاه الله اتزاناً فى الأفكار والآراء والأحكام ..

أراد الاستحمام ، فترك لى ساعته ، ومفتاح الكابين ، ونظارته . ما ألطف الرجل الذى يلبس النظارة حين يبدو من غير نظارته ! إنه يبدو ضعيفاً وديعاً ..

وقف الدكتور لحظات ليتعود فيها رؤية الأشياء التى حوله ، بغير عويناته . وصار يخطو ببطء ، حتى لا يلحظ أحد تردده فى وضع قدمه ، فصار كالطفل فى أول عهده بالمشى .. فلاحظته مشفقاً مبتسماً ، لأننى رأيت فى ذلك الموقف نفسى .. ولم يلبث أن تقدم بخطى ثابتة إلى البحر . ولم يلبث أيضاً أن استسلم إلى حضن الأمواج ببراعة فائقة ، فحملته بعيداً إلى ما وراء الصخور ، حتى غاب عن البصر ...

وسمعنا صفارة .. كانت بسيطة ضئيلة ، حتى إنى زعمتها « كلاكسون » صغيراً قد ركبه صبى فى قارب يلعب به ويمزح بين المستحمين .. ولكننى رأيت الأنظار تتطلع إلى السماء . ورأيت المستحمين يبادرون إلى الشاطىء والكابينات .

إنذار غارة جوية !! ...

لم يجزع أحد ولم يهلع .. كانت شيئاً أقرب إلى الدعابة منه إلى الجد . كانت كأنها جزء آخر من برنامج الموسم الصيفى ، واللعب على البلاج ، والتسلية .

كانت إلى مقربة منى فتاة طويلة سمراء ، موسيقية بارعة ، فى عينيها من سحر هاروت وماروت . فصليت فى قلبى ، فى تلك الساعة التى لا يعرف أحد قدره

فيها ومصيره ، لكى يحفظ الله عليها شبابها وجمالها . . .

وكانت أمامى سيدة شابة ، جميلة أيضاً ، تحمل بين ذراعيها طفلها الرضيع ، تضمه بحنان فائق . . وتسير به روحة وجيئة فى حركة عصبية ، لتخفى اضطرابها . . فخيل إلى أنها تتمنى ، فى تلك اللحظة ، لو شق صدرها وأودع فيه طفلها ، حتى تنجلى تلك الغمة ، وتنتهى تلك الغارة . .

وسمعنا صفارة أخرى ، فهتف الأطفال ، وتزاحم النساء والرجال على صدر الأمواج ، وتبادلوا نظرات العطف ، وزادوا حناناً ! . . .

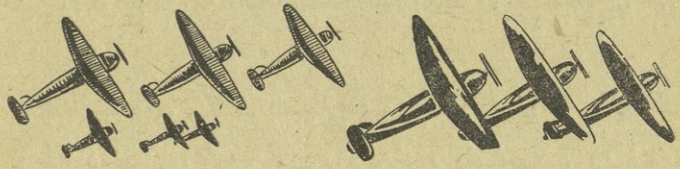

سيف نابليون ! . .

بعض الناس ، فى هذه المحنة التى تعانيها الحضارة ، وتتضور منها الإنسانية ، يظن أن العالم سيخضع لرجل ظل سنوات طوالا يحمّل شعبه أنواع الحرمان ، ليعد الحديد والنار . ولن يكون هذا الرجل بعض ما كان نابليون بونابرت ، الذى شيد أمبراطورية هائلة من فرنسا ، والبلاد الواطئة ، وبولونيا ، وأسبانيا ، وإيطاليا ، وألمانيا . فانتصاراته الهائلة ، التى لم يعرف مثلها فى التاريخ ، قد انتهت بهزيمته ، وقضى بقية حياته على صخرة قاحلة فى جزيرة نائية . ومع أن اسم نابليون قد اقترن بأعظم الإصلاحات التى عرفها الجيل ، فالدماء التى أراقها قد غطت على بعض هذه الإصلاحات بحيث أصبح اسمه مرادفاً للغزو والبطش . ومع أنه رفع يوماً اسم بلاده فوق جميع الأسماء ، فقد جعل منها بحبه الحرب غريمة أوربا وعدوة السلام . لقد قتل مليونين من رجاله الفرنسيين وحدهم . فإذا قدرنا قيمة الرجال يومئذ وضعف استعدادات الحرب بالنسبة ليومنا الحاضر ، لم نجد أنه سفك دماء أقل من عشرين مليوناً ، من الأنصار والأعداء جميعاً . ثم أضاع على فرنسا الحدود التى اكتسبتها الثورة ، بل إنه جعل انجلترا تنظر ، بعد مئة سنة ، بعين الحذر ، إلى الدولة التى أخرجت نابليون .

لاشك فى أن فرنسا نفسها هى التى خلقته وكونته ، وأزهرت فيها عبقريته . ولو أننا أردنا أن نجرده من طبيعة الزمان والمكان ، وفصلنا بينه وبين الظروف التى من حوله ، ونقلناه إلى إيطاليا أو النمسا ، لوجدناه ضابطاً تافهاً ! . . فلا يمكن إذن فصله عن بيئته ، أى عن فرنسا ، التى كانت تستطيع أن تستغنى عنه ، ولكنه ما كان ليستطيع أن يستغنى عنها .

إنه أتخمها بالفتوحات والأمجاد ، حتى ضاق بالمجد صدرها ، وطلبت

الرحمة ، وسألت الخلاص . . كانت فرنسا ، رغم انتصاراتها العظيمة فى كل ميدان ، بحاجة إلى الراحة . . كانت بحاجة إلى أن تضمد جروحها ، وتجفف دموعها ، وتقف سفك دماء أبنائها . لأن نابليون كان قد قطع أنفاسها ، وسخر فى خدمة الحرب كل شىء : سخر الفكر ، والدين ، والأسرة ، والتجارة ، والمال . .

كان نابليون فى كل مكان ، يوماً فى القاهرة ، ويوماً فى موسكو ، ويوماً فى شونبرون ، ويوماً فى البندقية ! . . وجعل علم بلاده المثلث الألوان يخفق على كل الربوع ، وتهابه الآساد فى الآجام . . .

على أنه ترك وراءه ركاماً هائلا من الأشلاء ، وترك الدم يسيل أنهاراً ، وترك جرائم الحرب والدمار ترتع فى أوربا ، وترك أكبر رجال الحرب بعده من الفرنسيين أنفسهم ينكرون كبرياءه وغرامه بالسيطرة على العالم ، حتى إن « فوش » قال لتلاميذ المدرسة الحربية ، وهو يدرس لهم عام ١٩١٢ : « إن الحق هو الذى كسر حملة نابليون » ! . .

* * *

وها نحن أولاء نرى رجلا آخر قد جاء إلى هذا العالم . وأراد أن يلبس قباء نابليون ويتقلد سيفه ! . . غير أنه لن يكون أشد من نابليون بأساً ، ولا أعظم منه تأثيراً وسحراً . وسينكسر حتما رغم فتوحاته وانتصاراته . والذى سيكسره هو الحق . . لأنه ليس من حق أى رجل واحد أن يسود العالم .

[الأهرام : ٨ يونيه ١٩٤٠]

هؤلاء الإنجليز

سقطت أمس على مدينة لندن قنبلة وزنها طن ، وطولها نحو عشرة أقدام . وكانت من القنابل البطيئة الانفجار . فتلقوها بأشد الاحتراس ، وأخلوا الشوارع من طريقها ، وأسرعوا بها إلى المستنقعات ، حيث انفجرت ، فاهتزت من هولها الجدران ، وتمزقت الحيطان . .

كانت كاتدرائية سانت پول الجميلة ستذهب ضحيتها . . وكل الذين زاروا لندن ، وشاهدوا تلك الكاتدرائية ، أدركوا الخسارة الفادحة التى كان يمكن أن تمنى بها عاصمة بريطانيا ، لو أنها نسفت بتلك القنبلة الوحشية الطائشة . ولعلهم شعروا بعرفان الجميل نحو أولئك الأبطال الشجعان الذين نقلوا تلك القنبلة المخيفة ببسالة نادرة . فما أشبههم بقوم يحملون الموت نفسه على أكتافهم ، ويتنزهون به فى عرض الطريق ! . .

ومع ذلك من ذا الذى يزعم أن لندن ما زالت ، رغم هذه المحن الهائلة التى تجتازها ، هى لندن الباسمة الهادئة ، التى عرفناها فى أوقات السلم ؟ ! من ذا الذى يتصور أنه يقرأ الإعلان الصغير الآتى ، الذى نشرته جريدة « التيمس » فى صفحتها الأولى فى المكان المخصص عادة للإعلانات « الشخصية » ، وهو من سيدة تخاطب سيداً ، وتذكره عهداً بينهما :

[توم ! . . لقد انقضى ستة عشر عاماً ذهبياً . أسرع ! . . اليوم عيد ميلادى . الشاى الساعة الرابعة والنصف ج . و . ف .]

إذن فما زال فى لندن معين لا ينضب من الذكريات ، ولا تزال فيها احتفالات بأعياد الميلاد ، وما زال فيها شاى يقدم ، وعهود تجدد ! . .

أجل ! . . إن أشد أعداء الإنجليز لا يسعهم إلا الإعجاب بهم فى ثباتهم

العجيب أمام هذه الفوهة التى فتحت عليهم من جهنم ، وحولهم أشلاء انتزعت من قوام الشىء الكثير : أشلاء بولونيا ، والنرويج ، وهولندا ، والبلجيك ، وفرنسا ، فرنسا الواقفة الآن مكتوفة اليدين ، حزينة فى خجل ومذلة ، لأنها تخلت عن الجهاد ، وتركت حليفتها وحدها فى الميدان . . .

وفى الساعة الرابعة والنصف من يوم عيد ميلاد السيدة « ج . و . ف » سيذهب « توم » ليتناول كأساً من الشاى ، فى ركن من لندن ، ليحتفل مع التى قد تكون زوجته . . وقد يكون فى الميدان ، فيذكر ، ويأخذ إجازة ساعة ، أو ساعتين ، بينا قنابل الألمان تتساقط كالمطر ، لاتترك ركناً هادئاً . ولا كأساً صافية ، ولا قلباً خالياً . . إنها تتساقط لتقلب الركن الهادىء حميا ملتهباً ، وتذيب فى الكأس الصافية اللب المحموم ، وتترك القلب الخلىّ فى حداد وشجن !

سننظر العام القادم ، فى مثل هذا اليوم ، موعدنا ، فى إعلانات جريدة « التيمس » الشخصية ، لنقرأ دعوة « ج . و . ف » إلى « توم » ، لنرى هل زادت الأعوام الذهبية الستة عشر ، عاماً آخر . . أم أن رسل الموت قد صهروا بنارهم ذهب الذكرى حتى ذاب ، وأحل أيضاً محله الشقاء والعذاب .

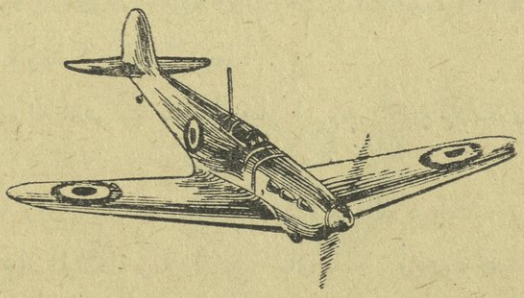

سقوط باريس

كانت المذيعة من راديو باريس ، يوم أمس ، كأنما قد سال صوتها المتهدج الحنون دمعاً هتوناً ، وهى تعلن : « إن الألمان على أبواب باريس ! . . »

ليست هى محنة باريس وحدها . فإن الإنسانيـة بأسرها قد انحنت أمس على باريس ، بعطف شديد ، تشاركها أحزانها .

ليست باريس عاصمة فرنسا وحدها ، بل هى عاصمة العالم المتحضّر ، فليس فى الدنيا ، من أقصاها إلى أقصاها ، بلد إلا وشهد بعض أهله باريس ، واستفادوا من باريس بعض علمها وأدبها ، أو بعض ذكائها وفنها ، أو بعض ذوقها وسحرها . . . لأن باريس هى أزهى خلاصة لأرستقراطية الفكر والروح .

ولم يكن أولئك الجنود الفرنسيون الأبطال الذين دافعوا بالأمس عن باريس شبراً شبراً ، وبذلوا فى هذا السبيل المهج والأرواح ، لم يكونوا يدافعون عن بيوت وأحجار ومساحة من الأرض . إنهم كانوا يذودون عن صميم الحرية ، عن البلد الذى علم شعوب الأرض كلها معنى الحرية ، عن البـلد الذى وضع دستور « حقوق الإنسان » ، فجعل للإنسان حقاً ، وجعل للإنسانية حرية ، وجعل للإنسان كرامة ووجوداً . . .

لم تكن باريس مشغولة بإعداد الطيارات والدبابات لتعتدى على سواها ، وتدوس حريات العالم . كانت تعد سوراً هائلا لحمايتها ، بذلت فيه مئات الملايين من الجنيهات باسم « خط ماچينو » . . كانت تبحث عن الوقاية ، ولا تعد لجيرانها آلات الدمار والخراب والفناء . كانت تفكر وتبدع فى آيات جديدة تحمل الحياة وتجعل لهـا طعما . كانت تسير مع تاريخها القديم ، ومع تقاليدها العريقة فى الخلق والابتكار لكل ما هو جميل ونبيل . . كانت تنظر من حولها ، فترى عبقرية الإنسان قد تركت فى حجارتها طابعها الأبدى ، فعملت على

الاحتفاظ بآثار هذه العبقرية ، وعملت على أن يظل شيوخها وشبابها خداماً للإنسانية ، يجمعون الكلمة ، كلمة العلم والحق ، ويبذرونها فى الأرض ، ويذكون الشعلة المقدسة الخالدة .

إن باريس هى معلمة البشرية ، المعلمة الأولى ، يقصدها الناس ، من كل فج عميق ، للدرس والاقتباس ، أو للتجارة والربح ، أو للعبث واللهو ، أو ليعيشوا ويتمتعوا ملء حياتهم عيشاً سريعاً كاملا ، فى مفترق طرق العالم ، فى مدينة النور ، فريسة النزوات والأهواء ، والشهوات العقلية والروحية والمادية ، فتمنح قصادها أقصى ما يريدون من صعود أو هبوط ، وتعلمهم كيف يكون صعود الدرجات ، وهبوط الدركات . . .

باريس إذن هى عاصمة السياسة ، وعاصمة العلم ، وعاصمة الأدب ، وعاصمة الفن ، وعاصمة التجارة والمال ، وعاصمة الذوق والجمال . . ولا يستطيع امرؤ ، مهما يبلغ من الشأن ، أن يثبت اسمه فى لوح القدر ، إلا إذا شهدت له باريس ، وتبنّته باريس ، وفرضته على أبنائها الروحيين ، المختارين ، الممتازين ، الأوفياء ، المنتشرين فى مشارق الأرض ومغاربها .

ستسترد باريس حريتها ، لأن العالم لا يستطيع أن يعيش بغير حرية . وباريس فؤاد العالم . . وقد ينتقد الأجنبى الذى يجهل الفرنسيين أهل باريس ، فيقول إنهم يسرفون فى جهودهم الفنية ، ويبذّرون فى قواهم الروحية ، بدل أن يكرسوا ذلك كله للمادية . ولكنه يجهل أنه لا بد للدنيا من شعب عظيم كهذا الشعب ، ومن مدينة عظيمة ، كمدينة النور ، تعبر عن حاجة البشر ، وتخلق ، وتبدع ، وتحرر . . . ولعل الإنسانية مدركة عما قريب ماذا أدت باريس ، وأدى جيشها ، وأدى أهلها ، لتمجيد الحرية ، وجعلها أساس الأمة ، وجعلها قانون العقل ، وشريعة الفكر . . ولن تقوم للإنسانية قائمة ، والفكر عبد ذليل ، وسيظل عبداً ذليلا ما دامت باريس ، أم الحريات كلها ، ترسف فى الأغلال . . .

[الأهرام : ١٥ يونيه ١٩٤٠]

إلى فتـــاة فى الريف

أيتها الآنسة . . . .

إنك قد رحلت إلى الريف ، أو على وشك الرحيل ، اضطراراً ، لا اختياراً . . هجرت المدن المهددة ، إلى الأقاليم الآمنة . ولعل عزاءك الوحيد عن هذا الحرمان أنك تنامين الليل ملء جفنيك ، وتستيقظين فتطالعين فى الصحف أنباء غارة على القاهرة وغارة على الإسكندرية !

إنك لست سعيدة بعد ، أو كما يقول المثل الفرنسى « لست فى صحنك » . فما زلت على ما أنت فيه من أمان ، ساخطة متذمرة . . .

أول ماينغص عليك ، ما كنت قد ادخرته لأيام الصيف وليالى « البلاج » : « جليم » ، « سيدى بشر » ، « ستانلى » ! . فقد أعددت أزياء بديعة من المايوهات الضيقة ، والبيجامات الواسعة ، وما يلابسها من قبعة الشمس العريضة ، والنظارات البيضاء الإطار ، الزرقاء الزجاج ، والحذاء الصيفى يكشف عن قدمك الصغيرة ، ويربطها بخيوط رفيعة ، والمظلة الضخمة التى تتنقل ، فتنتقل معها أفئدة . وأعددت ياصديقتى المجهولة ، قبل هذا كله ، بشرتك لخمر الشمس ، وعينيك للأمل المرجو ، وأعددت قلبك للخفقان ! . .

أنت ترين نفسك اليوم محرومة مغبونة . وأنت مخطئة ، إنك تحسدين على ما أنت فيه من سلام مقيم وخير عظيم . وربما كان خيرك حقاً ، وخير بلادك ، قد بدأ يوم سفرك إلى الريف ، الذى لا يعجبك لأول وهلة . إن فيه البعوض الذى يلدع ليلا ، والذباب الذى يضايق نهاراً ! . . وليست طرقاته ممهدة بالأسفلت . وليست أنواره ثريات فخمة ، وليس فيه سينما . . وا أسفاه ، ليس فيه سينما ! . . وويلاه أيضاً ، ليس فيه تليفون أوتوماتيكى للتسلية أحياناً ، والمعاكسة أحياناً ! . .

سينقصك هذا . وقد يضايقك أن الخيّاطة الأجنبية بعيدة عنك ، وأن المزين الأجنبى غير قريب ، ومحالّ البيع والشراء ليست مكيّفة الهواء ، أو حافلة بآخر الأزياء ! . .

ستجدين كل ماحولك بسيطاً متواضعاً . وهذا هو الدرس الأول . فإن أحوج ما تحتاجين إليه ، أيتها الآنسة ، هو البساطة والتواضع . ستدركين أن فى الحياة أشياء أجمل وأروع من العجرفة والكبرياء ، ومن الغرور والظهور . . سترين الفلاحة التى كنت تحتقرينها عن بعد ، سترينها عن كثب ، فتدركين أنك كنت ظالمة فى احتقارك ، وأنها هى الأولى بالتقدير والتبجيل . . إنها تحمل الندى على رأسها من الصباح المبكر ، تملأ الجرار ماء من النهر ، وتطعم الماشية ، وتتعهد الدجاج ، وتحضر لرجلها فطوره ، وتطحن وتعجن وتخبز فى وقت واحد ! . . ثم تحمل لزوجها طعام الغداء إلى الغيط ، وتتركه ينام القيلولة ، وترعى هى الغنم ، وتحرس الحقل أثناء ذلك . . ثم تعود فتحضر طعام العشاء ، وتطبخ بامية أو ملوخية ، وقلما تعرف غيرهما ، وما أكثر ما يكون ذلك من دون لحم ، أو بلحم رخيص تافه . . وتظل طوال أسبوعها تضع البيضة على البيضة ، وتحلب الجاموسة أو البقرة فجراً ، وتخضّ لبنها ، وتحفظ زبدها ، وتربى دجاجها ، لتحمل ما استطاعت من هذا لبيعه فى سوق البلدة . وتضع القرش على القرش ، لتشترى لزوجها وولدها آخر الموسم قطعة قماش ، إذا رأيتها أنت عليها ، أيتها الآنسة ، ضحكت ، وسخرت ! . .

تعلمى إذن كيف تحترمين هؤلاء الفلاحين ، الفقراء ، المتواضعين ، الذين هم كنز هذا البلد وسر رخائه ، الذين ظلوا مخلصين للأرض الطيبة ، متفانين فى حبها ، أجدبت أم أخصبت ، سواء أزادت ثمارها ، أم طال بوارها . .

تعلمى أيتها الخالية ، الفاضية ، الحائرة ، أن فى الحياة المصرية الصميمة ، فى الريف ، ماهو أجمل وأنبل من لعب الأمواج ، وغزل البلاج ! . .

وهؤلاء الإنجليز

احتفلت الكلية الحربية بتخريج مئة ضابط .

وكان أمامى كتاب شائق لأندرى موروا عن : « محاضرات فى القيادة » ، هو مناقشات ممتعة بين فيلسوف وضابط . وإنى أحب أن ألقى بلمحة من هذا الكتاب على هامش ذلك الاحتفال . فهناك رجال قد يمتلئون إيماناً من كلمة يقرأونها ، أوحوار يشتركون فيه . ومما يقال فى هذا الصدد أن « سسيل رودس » قد كوّن مشروع أمبراطوريته الأفريقية بينا كان يستمع إلى حديث « رسكن » عن العظمة البريطانية فى جامعة أكسفورد .

إن حوادث الحياة والاستعداد الفطرى ، كليهما ، يساعد فى تكوين رجل الجيش . مثال ذلك قيصر وبونابرت ، فقد كانت عبقريتهما الحربية ذات سبب خفى بسيط ، هو أنهما يعرفان القيادة ، فللعبقرية حرارة ، وللحالة التى قد يكون عليها الوطن من خطر أو ظفر حرارة أخرى تشحذ الخيال وتخلق الاحتيال . وكان نابليون يقول : « إن الخلق بغير ذكاء خير من الذكاء بغير خلق » . ولعله يعنى أن الذكاء القليل إذا شغل قلباً حاراً ، يؤدى أضعاف ما يؤديه النبوغ إذا شغل نفساً فاترة .

ولقد حدث فى إحدى حروب نابليون أن رأى نفسه أمام عدوين : أحدهما جيشه ضعيف ، والآخر جيشه قوى . وكانت القواعد الحربية تقضى بأن يبدأ بمهاجمة القوى . ولكنه لم يفعل . وبدأ بالضعيف فسحقه . ثم عاد إلى القوى فهزمه . فلما سئل فى هذا قال : إنه بدأ بالضعيف ليوحد أعداءه ويصفيهم ، ويلهم جنوده العزم ، ويلهبهم بخمر النصر ، وفى الوقت نفسه يطمع عدوه الآخر به ، إذ يزعم أنه بدأ بالضعيف لضعفه ، فيستهتر به ، فيتغلب نابليون عليه .

والعلوم التى تلقن فى الكليات الحربيـة تتطلب معيناً عظيما من الخلق والإرادة والصبر ، مع حسن التصرف عند تطبيقها فى الميدان . لابد قبل الذكاء الخاطف كوميض البرق من جلد لا ينفد مهما ادلهم الجو . لا بد من عناد لا يعرف الفشل ولا اليأس ولا التسليم .

خذ اللورد كتشنر مثلا . فهو من أروع النماذج لرجل الحرب . لم يكن ذكاؤه مشتعلا ، ولـكنه كان ، إذا ما أعد عدته ورسم خطته ، يسخر فى خدمة قراره إرادة كالصخر ، وبعد نظر كامل لأدق التفاصيل ، بحيث كان يندر أن يخفق .

لقد عرف كيف يعد ، فى أناة وصبر ، عدة الانتقام لمقتل غوردون بيد الدراويش . فعمل على تـكوين الجيش مع كبار ضباطه المصريين ، وتزويده بحطام الجيوش الأوربية ونفايتها من الذخائر . ثم سار به فى طريق ضيق صخرى كأنه قائم من أسنة الخناجر ، مع حفظ مواصلات المؤن والذخائر عبر الصحراء . وكانت هذه هى بالذات الأعمال التى توافق طبيعة كتشنر وترضى مزاجه . وأخرج القضبان التى دفنت فى الأوحال والرمال . وعمل بيده على مد الخط الحديدى ، راسماً المنحنيات ! . . فلما تم ، أو كاد ، فاض النيل عليه ، وجرف منه نحو سبعة كيلو مترات . فصرّ على أسنانه ، وبدأ من جديد . وأخيراً تمـكنت القاطرة الأولى من المرور . وفى الوقت نفسه وصلت من انجلترا سفينة مدفعية ، اشتراها بما وفره من اعتماد الجيش المصرى ، لتمـكنه من إطلاق النار القوية على أعدائه . فأبحر عليها مع أركان حربه ، وأمر بالسير بمحاذاة الشاطىء . . وهنا سمع صوت انفجار هائل . فإن خزان السفينة المدفعية ، قد انفجر . وقال الضابط الميكانيكى إنه لاسبيل إلى إصلاح العطب ! . . وعندئذ حكم الضباط بأن كتشنر سوف يخرج عن حلمه ، وينفد صبره ، ولو لأول مرة ! . وشاهدوا عينيه كادتا تخضلان بالدمع . وشفته تدلت أسى ، وقد بادر بالنزول إلى « الكابين » . ثم خرج بعد خمس دقائق فقط هادئاً . وأمر بالرحيل ، والاستغناء

عن السفينة المدفعية ! . . وظلت هذه الحملة أكثر من عام . ثم قتل المهدى ومعه عشرة آلاف درويش . . ودخل كتشنر الخرطوم . وكأنه ، فى موكبه ، قد قدّ من صخر كتمثاله الذى يشاهد الآن هناك . . .

وفى بداية الحرب الماضية كان وحده ، من دون قواد الحلفاء جميعاً ، يعد العدة لحرب خمس سنوات ، وعندما نادى بضرورة تجنيد ثلاثة ملايين جندى إنجليزى ، سخر منه رجال السياسة .

ومع ذلك تحقق كل ما رسمه كتشنر . فلا شىء يقف أمام رجل يركّز كل قواه لغرض واحد ، لأنه ينال نتائج عجيبة ، تبدو بعد ذلك كالمعجزات .

وكان كتشنر رجلا ، وكان قائداً . . .

شرقية غربية تتكلم

إلى عزيزى الدكتور ج . ف ، وحرمه السيدة « ب »

كانت زيارة وفاء لدين قديم وود مقيم . . إنه بيت من البيوت القليلة التى أحبها . ربته : أعطاها الله كل ماتتمناه المرأة لنفسها ، وكل مايتمناه الرجل للمرأة . لايعادل كمالها إلا جمالها . لم تستطع شرور الدنيا أن تنال من قوة الخير فيها . بل كان انتصارها ساحقاً .

ما أسعد الساعة التى تقضى مع هذين الزوجين الصديقين وصغيرتهما ، تلك الصغيرة التى أصبحت فتنة بحسنها الآسيوى العجيب ، وأصبحت فى سنتها السادسة « غندورة » ، أبت أن تدخل للسلام علىّ قبلما تبدل ثوب لعبها ، فتلبس فستاناً بهيجاً من الحرير بلون الذهب . فكأنها أميراطورة طفلة ، ينتظرها عرش من عروش الصين .

تحدثنا عن لندن وشجاعتها واستبسالها فى الدفاع عن حوضها . . وقد عرفا لندن ، لأنها لهما مدينة شهور العسل . وقد شهدت أجل سنى حبهما . وقارنا بين مقاومة لندن واستسلام باريس . فقد عاشا فى المدينتين زمناً . وكلاهما ـ الزوج والزوجة ـ من أم أجنبية وأب مصرى . فكيف إذن تطور الحديث الذى أدى إلى هذا المقال ؟ !

قالت السيدة : إن ما أصاب أوربا هو مقياس خلقها . فهى اليوم تحصد ما زرعت . وسيكون الثمن فادحاً كلما كان الإسراف فى الترف والرفاهية عالياً . إن الحياة ليست الاستهتار والاستمتاع ، ولكنها الجهاد والاعتدال . وخير ما فى الحرب الحاضرة بالنسبة إلينا أنها ستعلمنا ضروباً من الحرمان ، ترتفع بها كرامتنا ، وتزدهر حيويتنا ، وتقوى قوميتنا . . فإننا ضعاف الوطنية . ولسنا

شديدى التعصب لبلادنا بالقدر الذى ينبغى أن يكون .

لقد علمتنى أسفارى العديدة ، ومقامى الطويل بأوربا ، أن أزداد لمصر حبا ، وبكل ما فيها تعلقاً . . حتى العيوب أشعر أنها ضرورية ، إذ تحملنا على النضال لملافاتها والتغلب عليها ، وفى هذا مران لإرادتنا وخلقنا ، وامتحان لوطنيتنا واستعدادنا .

ولقد سمعت ، منذ أيام ، صديقة لى تفخر بأن لديها مربية أجنبية لأولادها . فعارضتها ، وأنكرت عليها زهوها . وقلت لها : إننى لا أسمح لنفسى كمصرية أن أرى أية مربية أوربية أصلح لولدى منى . كيف أكون أماً ؟ كيف أرضى بأن أكون أماً وأنا أعترف بأننى دون مربية أجنبية ؟ ! إن هذا الشعور الخاطىء الذليل هو ميراث عتيق ، ورثناه قبل نهضتنا ، بوهم أن كل ماهو أجنبى أصلح من كل ماهو مصرى . وإذا كان أبى قد تزوج من أوربية ، فإن زوجى لم يفعل ، ولن يفعل ولدى ! فمن كان له عذر بالأمس فقد تلاشى اليوم عذره . وإن حياة الغد عقب الحرب الحاضرة تكون حياة مصرية خالصة ، كلها كرامة ، أعنى : كلها اعتزاز بالقومية .

فنقلت بعض حديثها الشائق ، حتى لا أكون أنانياً . . أما نغمة حديثها ، وحرارة صوتها ، وروعة يقينها ، فقد حظيت بها وحدى .

عاد إلى الشرق ...

أذنت ساعة الإفطار بتناول فنجان من الشاى . فقد كان الحر لا يطاق . وكنا قد جئنا لا لنأكل ونشرب ، بل لنتحدث . إنها صداقة قديمة طاهرة بين رجل وامرأة ، جمعتهما يوماً ما مدينة جميلة ، يقال إنها كانت أجمل مدن الدنيا . ولما تصافحا لاحت لهما ، فى وقت واحد ، أنوارها التى تبهر العيون ، وفنونها التى تسحر العقول ، فبدت لهما حياتهما فيها كما لو كانت حلماً جميلا . وهما الآن يرزحان تحت كابوس ثقيل . إن اليقظة مزعجة .

هاهما ذان قد اجتمعا اليوم ، ليتعزيا بالذكرى ، ويشغلا عن الحقائق بالأحلام . . .

ما أجمل هذا البيت الصغير ! . وما أشد أناقته ! . . كل ما فيه ذوق وروح . هنا تمثال صغير ، على المصطلى ، من صنع الفنان النابغ « عبد القادر رزق » ، يمثل « بنت بلد » منطوية على نفسها فى ملاءتها اللف . . وهنا وهناك لوحات بلدية أخرى لبنات ورجال : هذا بشال أحمر ، وهذا بكوفية بيضاء . . وفى ركن آخر « أناتول فرانس » ينظر بعينه الساهية ، التى كانت ترى كل شىء ، وتنفذ إلى أعماق القلوب ! . .

هنا اجتمع شرق وغرب . . بيت آنسة شرقية تربت فى أوربا ، واقتطفت زهور الثقافة اللاتينية ، واحتفظت بكبريائها الإسلامية التقليدية ، وراعت حرمة وطنها ، فلم تتزوج بأجنبى ، ومع ذلك ما كان أكبر الفرص أمامها ! . . وهى لذلك تستنكر زواج المصرى بأجنبية ، ولا تغتفره . . وترى أن العزوبة خير منه . أما الذين سبقوا إلى ذلك ، من عشرة أو عشرين عاماً ، فلا ذنب لهم .

كانت تتكلم ، وأنا أفكر فى أن حرية فكرها ، وانطلاق روحها عن قيود ارتضيناها جميعاً لأمهاتنا ، قد لايستسيغها كثير من الناس . بل إن السطحيين والبعيدين عن الاختلاط بها قد يسيئون تأويلها . ولكنها رمز هذا الجيل المعذب ، الحائر ، من الجنسين ، الذى تربى فى الغرب ، وعاد إلى الشرق ، يريد أن ينهض به ، ويسعده ، فيشقى فيه . . .

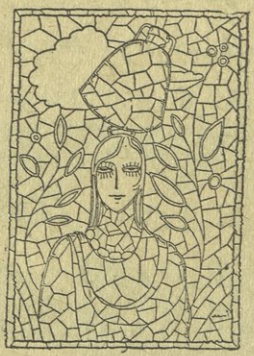

ثم هؤلاء الإنجليز

توقظنا صفارات الإنذار أحياناً فى الليل ، فنسمع صوتاً محزناً مخيفاً ، أشد إيلاماً وإزعاجاً للنفس من عواء الضبع الجائعة فى الصحراء ، وهو الصوت الذى اصطلحت عليه الإنسانية للنواح على أبنائها ، ورثائهم ، وتحذير بعضهم من البعض الآخر ، وإنذارهم .

استيقظت فى إحدى الليالى ، فسمعت الأبواب والنوافذ بعضها يفتح وبعضها يغلق ، وسمعت حركة وهمساً ، وسمعت الأيدى والأرجل تتخبط فى الظلام ، وتتعثر فى الأثاث . ورأيت كيف تكون لهفة الأم على أولادها ، وقد أيقظتهم وهى حائرة ، لا تدرى هل تبقى فى دهليز البيت المظلم المعرض للأخطار ، أم تخرج بهم فى عرض الطريق إلى أقرب مخبأ ، وتعرضهم للفح الهواء ! . ما أصعب وظيفة الأم ، وما أجلها ، وما أطولها ! . . . إن كل دقيقة منها تساوى كل ما يبذله الرجل من عناء طول عمره ! . .

لا أدرى كيف انتقل فكرى فى الحال إلى لندن ، عبر الصحارى والبحار والجبال ، بأسرع من وميض البرق ، فوصل إلى الجزيرة الباسلة التى لى فيها أصدقاء قدماء ، لا يذكرونى الآن بالطبع ، أما أنا فأذكرهم ، وما زلت أحبهم . كيف هم الآن ؟ إن قلبى يطفر جزعاً عليهم . هؤلاء الذين اختاروا اسماً هندياً : « راحة جاى » ، للقيلا الجميلة البسيطة التى يسكنونها فى ضواحى لندن . أما الأب فيعمل منذ ثلاثين عاماً فى محلات « سلفردج » الهائلة ، التى أصابتها بالأمس قنابل الألمان . وأما الأم فهى متعلقة بكل ما هو شرقى ، تهيم به حباً . وأما البنت الكبرى فقد عرفتها فى باريس نموذجاً للخلق الإنجليزى المتين . وأما الصغرى

فهى آية الفتنة والمرح ، أو على رأى أختها ، لو أمسك محبوها حبلا ، لما كان للحبل أول ولا آخر !..

تذكرت الشاى الذى أعدوه لى ، ثم النزهة الطويلة فى الحقول والمروج ، ثم العشاء الفاخر ، والموسيقى الشجية ..

أين هم ؟ وكيف هم الآن ؟ إن من لم يزر لندن ، ويعش فيها شتاء ، يستحيل عليه أن يتصور شجاعة هؤلاء الإنجليز ! إننا كنا فى غرف النوم ، والنار تتأجج فى المصطلى ، وعلينا بطاطين وبطاطين ، والبرد مع هذا كله يلتهمنا التهاماً !.. كيف يعيشون الآن تحت الأرض فى سراديب ، وخنادق ، ومخابىء ، لادفء فيها ، ولا طعام ، ولا راحة ، ولا ذرّة من الهدوء والاطمئنان ؟!

أجل !... كان لا بد من رسل الموت ، لنعرف رسل الحياة !...

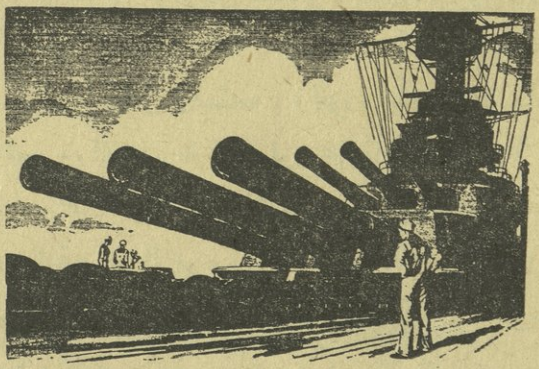

شـــيخ يتـكلم

وقف أمس شيخ فى السابعة والستين يتكلم باسم الأمبراطورية البريطانية ، يتكلم ، ويتحدى ، ويهدد أعداءها بحرب تهول وتطول حتى تشهد ١٩٤٣ و١٩٤٤ .. وإذا قال ذلك « ونستون تشرشل » ، فيجب أن يصدقه العالم ، فإنه أبعد ساسة الإنجليز نظراً ، وأصفاهم بصيرة ، وأشدهم إحاطة بالمعلوم والمجهول من السياسة . إنه يمثل أعظم فضائل جنسه . وقد ظل سنوات عديدة ينذر بلاده ، يوماً فيوماً ، بكل ما وقع الآن . فمنذ ١٩٣٠ حتى إعلان الحرب الحاضرة ، وهو يكتب ويخطب فى الشؤون الخارجية . وعندما تولى النازى الحكم فى ألمانيا عام ١٩٣٣ ، كان تشرشل أسبق ساسة أوربا تنبؤاً بالأخطار التى ستنجم عن ذلك . فراح يحذر بلاده ، ويحفزها على زيادة التسلح . لا سيما فى الجو والبحر ، وتوقع ضرب المدن الآمنة بالطائرات ، واندفاع الرجال عندئذ للنضال ، دفاعاً عمن يرونهم صرعى حولهم من النساء والأطفال . ويرى كذلك أن سلاح الغواصات لن يكون قاطعاً أو حاسماً ، رغم ما قد يكبده من خسائر ، فأوصى بتجديد الأسطول البريطانى وتسليحه ، وتجهيزه بأحدث المعدات ، وآخر المخترعات ، للهجوم والدفاع ، مع إنشاء قوى بحرية أخرى تكفل للأسطول حصر أعداء بريطانيا ، وضمان حرية تجارتها وانتقال جيوشها فى عرض البحار . فأخذت الحكومة البريطانية ، آخر الأمر ، برأيه ، وقررت ذلك عام ١٩٣٧ . وابتهجت الدول المحايدة بذلك ، حتى التى كان مفروضاً ميلها للألمان كالسويد ، فصرح وزير خارجيتها ، المستر ساندلر ، بأنه يرى فى ذلك البرنامج البحرى الجديد للتسليح « عدة جديدة » للسلام .

أجل ، لو استمع الإنجليز للمستر تشرشل ، ما وقعت هذه الحرب . كانوا

يزعمونه مسرفاً فى التشاؤم . واتهمه الدكتور جوبلز بالوقيعة بين بريطانيا وألمانيا . فرد عليه تشرشل بالأرقام ، وفضح الميزانية السرية للتسليح الألمانى ، وكانت مليار جنيه فى السنة (ألف مليون جنيه) !! . كذلك نبّه حكومته إلى قوة ألمانيا الجوية الهائلة ، ونبهها إلى الطابور الخامس فى لندن ، المكون من عشرين ألف ألمانى .

وها هو ذا اليوم فى محيطه الذى يحبه ، محيط المخاطرة والمغامرة . فهو طول حياته رجل كفاح ، يبحث عن معارك طريفة . كان فى شبابه جندياً وصحفياً . اشترك فى حروب قارات أربع ، من جنوب أفريقيا ، إلى أمريكا ، إلى الهند ، إلى أوربا . وطبعه « الديناميتى » يتفجر فى السياسة بقوة وبأس يروع خصومه . وقد اتخذ الآن عدته ، وعرف أين يضع عداوته . . .

فلننتظر منه المعجزة ، معجزة كسب الحرب . . أى فخر أعظم من أن مصير الأمبراطورية كلها ، ومصير دول عديدة معها ، قد أصبح فى يده ؟! . . .

يعيش فى الماضى !..

رجل يعيش بغير قلبه ، دفنه واستراح ، دفنه فى ذكريات الماضى . لم يعد يعنيه من حياته « اليوم » ، بل « الأمس » . أمس عاش وهو أمين لهذا العيش ، فاختفى حاضره ، وانطوى بانطواء شمس الأمس الغاربة . وهو لو أراد اليوم أن يتجدد ، وأن يعيش من جديد ، لما استطاع . لأن الخيانة ليست من طبعه وخلقه . وهو قد يكون وفياً لغير وفى . هو لايسأل الطرف الآخر وفاء ، لأنه يعلم أن من طبيعة الزمن التحول ، ومن طبيعة المرأة التغير . فهو وفى الآن لا لشخص ، بل للوفاء نفسه ، وللذكرى . فقد اختفت المرأة التى كانت جميلة ، ساحرة ، خلابة . وحلت محلها آية فاتنة ، ومجموعة نادرة من الذكريات . فكأنه اليوم يعيش فى متحف . قد ينكر الناس جموده ، ويعيبون عليه انفراده ووحشته ، ويعزون ذلك إلى كبرياء فيه ، أو انكسار منه . وهو مع ذلك يعتقد أنه الآن الظافر ، المنتصر ، السعيد حقاً ، لأنه يعيش مع ملاك الذكريات عيشاً نقياً ، خالصاً ، متجرداً عن المادة ، متحرراً من العبودية أحياناً ، ومن السيادة أحياناً .

هل يستطيع رجل ، فعلا ، أن يعيش فى الماضى ملء حياته الحاضرة ؟ هل يستطيع أن يبلغ من السعادة وهو منفرد مقدار ما بلغ يوماً وللروح شقيق ؟

هل يستطيع أن يرى من كان يوماً كل حياته ، يروح ويجىء أمامه ، ويبسم لغيره ، ويضحك لسواه ، ويتحدث ، ويلعب ، ويرقص ، ويأكل ، ويشرب ، ويطالع ؟ . . أشياء كلها كانت له وحده ، من دون الناس جميعاً . ثم ينظر إليه كما لو كان شبحاً ، أو خيالا لذلك الملاك الذى يعيش فى قلبه ، ملاك الذكرى ؟

كيف أفسر ما أريد أن أقول ؟ هناك أشياء تصغّرها الكلمات وهى علوية ،

توجد أشياء لا يجوز أن نرسمها بالكلمات ، لأننا إذا حاولنا ذلك ، كنا كمن يقرب الصلاة وهو سكران . توجد أشياء يجب أن نشعر بها شعوراً صادقاً أميناً ، ولا ندنسها بالحبر على الورق ، أو باللسان .

رأيت هذا الماضى الجميل فى عينىْ صديقى ، فقلت :

ـــ سأستمد من بريق عينيه اليوم مقالى . . .

الرجل الجديد

دار ، قبيل الحرب ببضعة أشهر ، البحث عن الرجل الجديد ، لأن الرجل القديم قد بطلت « موضته » ، وفسدت عقليته . رجل جديد مشبع بالوطنية التى لا تتعارض مع الإنسانية ، وبالسلام الذى لا يتغذى من الحروب ، وبحب الرخاء الذى لا يجىء عن طريق الاعتداء ، وبالخلق قبل العلم والمعرفة .

اجتمع ، فى ظل جبال السويد الجميلة ، نحو مئتى أستاذ وطالب ، ينتسبون إلى خمس وعشرين جامعة من أعظم جامعات العالم . فماذا كان يشغل تلك العقول المفكرة ، التى جاءت من أقصى أنحاء الأرض ، لتجتمع فى البلاد التى تشرق فيها الشمس فى منتصف الليل ؟ لم يكن ذلك ليعجبوا بجمال الطبيعة الساحرة ، وإنما ليحرروا القوى البشرية من ضروب الحقد التى تدفع بها إلى الدمار . فإن العالم مشغول منذ أمد طويل بتحسين وترقية كل ما هو مادى وعلمى ، ومهمل كل ما هو إنسانى . . العالم مشغول باستمرار فى إخراج آلات جديدة للعمار أو الخراب . فى حين أن إخراج رجل جديد ، إبداع نوع جديد من الرجال ، هو الذى تحتاج إليه البشرية الآن ، أكثر من أى شىء آخر .

ولعلك تزعم أن هؤلاء الجامعيين قد تمنوا مخلوقاً حاد الذكاء ، متوقد الذهن ، ثاقب الفكر ، على أساس من التعليم مكين .

والواقع غير ذلك . فقد لاحظوا ، على الضد من ذلك ، أن الجامعة لم تمن إلا بالذكاء ، وأنها كانت جد مخطئة ، حتى اليوم ، فى أن تعمل على تكوين الذكاء وتدعيمه وتوفيره ، فى حين أنها تهمل العواطف ، وتتجاهل البدن .

وهم لا يبحثون عن طراز متعلم جديد ، وإنما عن طراز جديد لرجل متزن ، تتوافر له الإرادة والعاطفة والخلق ، توافر الذكاء . . طراز رجل قوى ، حر ،

لا يخاف ، ولا يحجم عن حمل المسئوليات ، ولا يتأخر عن العمل بالتعاون مع غيره من الرجال . . رجل يحب بلاده ، ويطيع الله . . .

للجامعة ، وللجامعيين ، إذن ، رسالة غير الاندفاع فى المادية . . وللجامعة أن تعلِّم ، ولكن ليس لها أن تهمل الخلق . . فإن هذا الإهمال يؤدى إلى عدم التوازن فى حياة رجل المستقبل ، فيصبح فى الحياة بغير هدف ولا رسالة . وإنه لا يكفى إخراج « متخصصين » ، أو « إخصائيين » ، أو تكوين ذوى الذكاء المرهف . وإنما ينبغى ، قبل هذا كله ، تكوين مواطنين شجعان ، وزعماء مخلصين ، لهم كل صفات الرجولة .

وهكذا اجتمع الجامعيون عند هذه الرغبة الإنسانية والقومية معاً ، ووقع منشورهم خمسة من بينهم ، يمثلون جامعات : أوسلو ، وكوبنهاجن ، وسانت أندروز ، وأكسفورد . وكانت خاتمة منشورهم تناشد الأساتذة ، وتذكرهم بواجبهم : من ضرورة معاونة الطلبة على الوصول إلى المراكز التى يستخدمون فيها كل قواهم ، لتأدية أكبر خدمة يستطيعونها لبلادهم وللعالم . وبذلك أيضاً يصبح للجامعة نصيب عظيم فى إعادة تكوين خلق الأمة ، والنهوض بروحها المعنوية ، وتدعيم مكانتها ورسالتها بين الأمم .

عروس النيل ! .

نظرة إلى يوم أمس ، منذ بضعة آلاف عام . . .

النهر المقدس ، حارس الوادى ، قد آن له الوفاء . . .

الشعب ، والزرع ، والضرع ، ينتظر منه اليمن والرخاء . . .

النيل ثائر ، تحولت مياهه السمراء إلى حمراء . حملت من جنبات الوادى ، من أقصى المنبع ، فى قلب أفريقيا ، الطمى كالتبر . .

أمواهه تفور ، وتغلى ، وتضرب الشاطئين . . كأن النيل قد طال انتظاره ، ونفد صبره ، وتطلع طويلا إلى وفاء بنى آدم ، مرة واحدة فى العام ، ليفى هو ، ويجود ، طول العام . . .

البلد كله حائر . . من هى العذراء الموعودة هذا الموسم ؟ . . من هى التى ستفتدى بنفسها بلادها ؟ . . من هى تلك الموعودة بأن يضمها النهر المقدس إلى أحضانه ؟ . .

من هى الأصيلة ، الكريمة ، التى ستكون عروس النيل ، الأصيل ، الكريم ؟ . .

وجدوها ! . . هذه الكاعب الحسناء ، العذراء ، البتول . . .

كان خدرها يطل ، من كوة صغيرة ، على خليج طويل ، ضيق ، متعرج ، يستقى منه الناس ، ويسبح فيه الأولاد ، ويغرق فيه الأطفال أحياناً . .

كانت تملأ جرتها عند الفجر ، كأنها فجر آخر ، يكسف بزوغ الشمس ! . .

قالوا : هذه هى العروس المنشودة . .

فراحت تجرى ، وقد كسرت جرتها ، من لهفتها ، وارتمت ، وهى تلهث ، فى حجر أمها العجوز العمياء ، التى كانت لها كل العزاء . . فمسحت الأم دموع

بنتها بشفتيها وهى تقبلها . وانضمتا بقوة ، حتى صارتا جسداً واحداً ، كأنه يتحدى فرح الشعب ، الذى هو فرح الموت ! . . وأخذوها قسراً ، فاستسلمت للمصير . . هذا هو القضاء المحتوم . . فأين المفر ؟ .

قالت لها أترابها ، وهن يتفنّنّ فى تزيينها ، ويبالغن فى تجميلها ، وتزويدها بالأساور والقلائد : « أنت تحسدين ! . . أنت عروس النيل ، مصدر الخير والبركات للبلاد . . أنت القربان المختار . . أنت حبيبة الإلـهة إيزيس » ! . .

كان قدّها المياس ، كالغصن ، ينكسر ، وهو بحاجة إلى يد تسنده . . كان شعرها كالليل الحالك ، ووجهها كالنور الساطع . . كان فى قسمات وجهها من سحر هاروت وماروت . . وكان فى بريق عينيها سيف يصيب القلوب بالحزن والحب ! . .

وفى موكب عظيم زفت العروس إلى عروسها . . ثارت أمواجه ، وفارت ، كأنها أذرع هائلة قد انضمت على هذا الخصر ، النحيل ، الواهن ، فهصرته بقوة ، فارتمت العذراء فى أحضان الماء ، فى إغماء . .

وفارت المياه مرة أخرى ، وثارت ، وهاجت ، كأنها تعلن عن سرور النهر ورضائه . . .

وفى الغداة طلعت الشمس ، ورد النيل الجميل وفاء بوفاء . . .

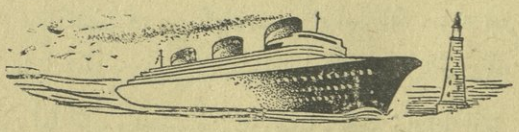

الشرق فى الغرب

كانت الدعوة إلى العشاء فى شارع الشانزليزيه — أجمل شوارع الدنيا غير منازع — على بعد دقيقة واحدة من مكتب « الأهرام » الباريسى ، وعلى دقيقة واحدة أيضاً من قوس النصر وساحة الايتوال .

فاجتمعنا فى الصالون المشرف على منظر منقطع النظير ، والساعة الثامنة مساء ، والشمس قد بدأت تغرب وتصبغ الدنيا بأعز ما تحبه الدنيا . « الذهب ، والدم »

كنا نحو عشرة أو أكثر من عشرة ، جئنا من كل أنحاء الأرض : من الحجاز ، ومن الهند ، ومن العراق ، ومن سوريا ، ومن لبنان ، ومن إيران ، ومن المغرب ، ومن مصر . .

جئنا لأغراض عجيبة منوعة متباينة . . تركنا بسببها بلادنا البعيدة . . لا أظن أن اثنين منا جاء لغرض واحد ! .

ولكننا فى ذلك المساء اجتمعنا لما لا يختلف فيه اثنان . . وهو تناول الطعام . كانت الدعوة قد وجهت إلينا من رجل فاضل ، فذ فى فضله ، لا أكرمه بهذا المقال ، وإنما أكرم مقالى .

هو الحاج محمد زينل على رضا . تاجر لؤلؤ ، وخادم علم !

وكانت لوحات الصالون مقصورة على « من صبر ظفر » و « عز من قنع ، ذل من طمع » و « كشف الدهى بجماله » . . ثم اسم الله . . ثم اسم الرسول . .

ودخل علينا الحاج زينل ، فبادلناه السلام . ثم سألنا : « تجمعوا وتقصروا ؟ » . أما أنا ، وبعض من كان معنا ، فقد تبادلنا النظرات متسائلين عن هذا الجمع والقصر ؟ ! وهل هو « فاتح شهية » يسألوننا هل يقدم مع

الطعام أو قبل الطعام ؟! ولكن الحاج زاد بعد ذلك تفسيراً ، فقال : « من لا يجمع ويقصر فليتفضل إلى صلاة العشاء » ! . . فذهب من ذهب معه ، وبقينا نحن — وكنا على غير وضوء — فيمن يجمع ويقصر ويصلى مايفوته سحابة النهار فى أول الليل ! . .

إنه تاجر لؤلؤ من أشهر تجار العالم ، وتجارته تمتد من البحرين ومياه الهند والخليج الفارسى إلى باريس ولندن . وله مكتب ومسكن فى بومباى ، ومسكن فى جدة ، وأسرة كبيرة مشهورة ، عريقة فى تجارتها ومكانتها ، وله مكتب ومسكن فى باريس ، وله مكتب فى لندن ، وهو لايستخدم فى السفر إلا الطائرة ، ويقطع العالم شرقاً وغرباً على أجنحة الهواء .

وهو فنان بارع . فليست تجارة اللؤلؤ عملا مادياً بحتاً . إنها فن رفيع . فاللؤلؤ تجارة عزيزة المنال . إنها دراسة عميقة للحجم ، واللون ، والوزن ، والضوء .

وإذا قلت اللون فإنه عشرات الألوان ، وإذا قلت الضوء عنيت مئات الأضواء التى تشع من تلك اللآلىء العجيبة ، التى تستخرج من قاع البحر لتحلى نحور الحسان !

فى مياه الهند ، وفى الخليج الفارسى ، يغوص الغواصون المحنكون لصيد اللؤلؤ ، معرضين أنفسهم للموت من أخطار سكان البحر ، ذات المخالب ، وذات السموم ، وذات السهام ، ومن أخطار الموت اختناقاً . . فيخرج اللؤلؤ بعد جهاد ، ويصقل ، ويفرز ، وينظم ، ويوزع على الجهات الراغبة فيه ، بعد درس طويل ، مع ملاحظة حالة السوق ، ودرجة الطلب . .

منذ عشرين أو ثلاثين عاما يعمل الحاج زينل فى هذه التجارة البديعة ، المرهقة ، التى لا تدع له أحياناً وقتاً للطعام ، وإن تحتم أن تدع له وقتاً للصلاة .

فهو رجل يعيش بالله ، ولله ، كل ما يأخذه من تجارته ينفقه على خدمة العلم والدين . فهو أول رجل أسس فى الحجاز شيئاً اسمه « مدرسة » . واليوم يستحيل أن يذكر العلم أو الدين ، فى تلك البقاع المقدسة ، إلا مصحوبين باسم هذا الحاج الفاضل الكريم ، الذى لاينسى صلاته فى باريس ، ولا يخلع ثيابه الحجازية فى لندن ، ولا يريد من البحر أو البر إلا كلمة المعروف ، وصنع الخير ، ونشر العلم ، وأدب الدين ، وأداء فرض الله ! . .

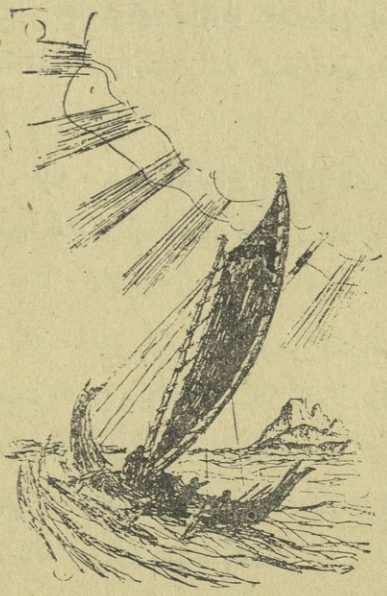

فى وطنه الروحى

دعوه يحلم !

لاتقطعوا عليه أحلامه ! . .

إنه يحلم بألوان جديدة من العلم والفن والجمال . إنه الآن فى جوه ، فى جنة العقل ، فى وطنه الفكرى ، فى أرض روحه . . . طال حنينه إليها ، إذ طال بعده عنها . . إنه الآن فيها منفرد وحيد ، ومع ذلك كل من حوله أحبابه .

أليس هذا بلد الحرية ، وهو فى بلده مقيد أسير ؟ ! أليس بلد النور ، وقد كان يعيش فى شبه ظلمات حالكة من ذكرياته وآلامه وأحزانه ؟ ! أليس البلد الذى يحنو على الغريب ، وقد كان فى بلده غريباً ؟ !

دعوه يحلم ! . . إنه فى حاجة إلى حلم طويل جميل ، ينسيه الجهاد المادى المضنى فى سبيل مواطنيه ، فى سبيل تحقيق مثل أعلى ، فى سبيل السمو بالذوق والفكر . فهو يريد الخروج من الدنيا لا له ولا عليه . . يريد أن يعيش للخير المحض ، يعطى ، ولا يأخذ ، ويمنح ، ولا يسأل .

إنه أعطى ، ويعطى ، حبات قلبه ، كل يوم حبة ، حتى شعر بالفراغ الهائل فى قلبه ، فأراد أن يعمّر قلبه ، ويغنم له حبات جديدة ، ليسعد بها بعض النفوس المحزونة ، ويعلل بها بعض النفوس الشقية المحرومة فى بلاده ! . .

وهو يحب تلك النفوس المجهولة المنزوية فى عقر دارها ، تقرأ له أحياناً ، دون أن يعرفها ، وإن كان دائماً يشعر بها من حوله . وهو كثيراً ما يكتب لأجلها وحدها . وهو الآن فى وطنه الروحى يذكرها ، بل إنه ليس فى هذا الوطن إلا ليخدمها . هذه النفوس العزيزة التى إذا لم تنل الهناء المطلق فى هذه

الدنيا ، فقد يكفيها عزاء ، بعض العزاء ، أن نفوساً بعيدة عنها تذكرها ، وتتمنى لو أتاح لها الدهر أن تسعدها .

دعوه يحلم لكم ولنفسه ، لاتقطعوا عليه أحلامه ! . . إنه الآن فى وطنه الروحى ، ولكنه أشد قرباً إلى وطنه الأصلىّ ، وأكثر حباً لمواطنيه . . لأنه لم يذهب إلى أغوار هذا الكنز العميق ، البعيد ، النائى ، إلا ليغنم بعض العزاء للنفوس الحزينة ، وبعض الحرية للنفوس السجينة ، وبعض النور للنفوس الكريمة الأبية ، التى تعيش ، على رغمها ، فى وطنه ، فى الظلام ! . .

للتـــاريخ . . .

نشرت صحيفة « بلچيكا الحرة » دراسة تحليلية عن قصب السبق فى الحرب ، ودور الذهب الفاصل فى ذلك . . ونوهت بما قالته جريدة ألمانية مشهورة هى « دتشرفولكسفرت » من « أن أهم عامل فى أداة الحرب هو الذهب » . . وراحت تحلل مدى ما تستطيعه حكومة الرايخ وحليفتها إيطاليا فى هذا السبيل ، ومقدار حاجتهما إلى المال ، فى حين أنهما تهددان العالم بالحرب منذ عام ، حتى أحرقتا أعصاب الناس فى أنحاء المعمور . فإن ألمانيا فى حالة الحرب لاغنى لها عن الذهب ، إذا أرادت أن تشترى من الخارج ، لا المعادن للذخائر فقط ، بل كمية كبيرة أيضاً من المؤن والزاد للبطون . فإنها ، برغم جهادها الرائع ، وعملها المتواصل ليل نهار ، لا تزال مضطرة إلى استيراد نحو عشرين فى المئة من المواد .

وفى الكتاب الذى وضعه الكاتب الألمانى « فريتز سترنبرج » ، بعنوان : « كفاية ألمانيا الحربية » ، إحصاءات طريفة تدل على تنظيم حملة « عدم ملء البطون » ، حتى أصبحت قلة التغذية جزءاً من برنامج الحياة الألمانية . وعملت فى هذا السبيل دعاية واسعة النطاق ، تفضيلا للقنبلة على الزبدة ، وللمدفع على اللحم ، حتى لقد صرح الدكتور « ورتمر » ، الخبير الطبى لحزب النازى ، بأن كل من يملأ معدته باللحم والشحم يضاعف اختلال النسبة بين المحصول والاستهلاك ، ويعد خطراً على الاستقلال الغذائى ، وعلى سلامة البلاد .

ولا نزاع فى أن قلة النقد ، وعدم المقدرة على الدفع فوراً ، مما يحرج الدول غير المستعدة . ولسنا ندرى مدى ما يقال فى هذا الصدد من الصحة عن ألمانيا ، من أنها تستبدل بترول رومانيا بمستحضراتها الطبية ، وترسل إلى شركة بترول

فى أمريكا خمسمئة ألف آلة موسيقية « هارمونيكا » بدل صفائح الغاز ، بل إنها أرسلت — وهو ما لا يكاد يصدق — أفراس البحر (سيد قشطه) إلى شركة فيلادلفيا ! . .

ولكن مهما قيل فى هذا ، وبولغ فيه ، فمن المحقق أنه عند إطلاق الرصاصة الأولى ، لا يمكن أن يشترى الحديد ، أو النحاس ، أو القمح ، أو البترول ، بالمستحضرات الطبية ، ولا بالآلات الموسيقية ، ولا بالحيوانات الأعجمية ! .

فإذا كانت ألمانيا ترجو الفوز الحاسم فى خلال الأسابيع أو الأشهر القليلة الأولى من الحرب ، فهل لديها فعلا من الآلات والمخترعات الجهنمية ما يكفى للقضاء على أعدائها ، بين غمضة عين وانتباهتها ؟

إن رجال الفنون الحربية يستبعدون هذا الغرض لوفرة استعداد خصوم محور « برلين . روما » ، ولاسيما بعد ميونخ . ولكن لا مندوحة عن الاعتراف بأن ألمانيا تستطيع باستعدادها الحالى أن تصمد للحلفاء ، لا أربع سنوات ، بل عشر سنين . فانظر مدى ما فى هذا كله من التضحيات الشنيعة من الجانبين . ولاسيما أنها تقضى على كل تلك النهضة العظيمة ، التى نهضتها ألمانيا على يد الهر هتلر ، غير أن نهضته لا تحول دون تذكر كلمة شكسبير الخالدة :

« إن فى السماء والأرض ، باهوراسيو ، أشياء أعظم كثيراً مما أحاطت به فلسفتك » .

[الأهرام : ٣١ يوليو ١٩٣٩]

الشرق أوْلى !..

« رون بوان شانزليزيه » .. الماء يتفجر نوراً وعيوناً . . وكل ما حول الماء والنور والعيون يتحدث عن عالم قائم بنفسه ، منقطع النظير عن كل عالم آخر ، كما لو كان هذا العالم امرأة أنانية ، شديدة الأثرة ، لأنها جميلة ، رائعة الجمال . فتانة ، شديدة الفتنة . ساحرة ، موفورة السحر . وهى لهذا كله تريد أن يحبها كل من نظرت إليه ، أو عنيت بإلقاء التفاتة عليه ، ولا تمنح قلبها أحداً !...

كل من حوله يبسم له ، كأن كل من حوله نسيب للغريب !... هذه الابتسامة ردت إليه عشرة أعوام من شبابه ، فكأنه لم يرحل عن هنا ، ولم يناضل ، ولم يتألم ويسهر الليالى . . إنه ولد من جديد ، كتب له عمر آخر . .

كل من حوله يبسم له . . فلا عجب إذا بسم ثغره ، وتحرك بعد شجن وحزن قلبه . . كل ما حوله يبسم له : الشمس والقمر ، الليل والنهار ، السلام والخطر ، الجرأة والخفر ، الحديث والنظر . الصمت . . . والقدر ! . . .

كل ما حوله يبسم له ، ويدعوه إلى الابتسام ، ليس فى جنة الدنيا عبوس وقطوب ، لأنه ليس فيها أحزان وخطوب ، ولا يسمح فيها ببأس القلوب ! . .

هذه الابتسامة هى خبز الفقير ، الذى لا يجد غذاءه ، وهى عزاء الشقى ، الذى عز عزاؤه ، وهى بلسم الفؤاد الكليم ، الذى حار فيه أطباؤه !

هذه الابتسامة تهدى الحائر المتخبط فى البيداء ، كالنجم الذى يقود السارى فى الصحراء . . يتعلق بها الغريق ، ويتعلل بها الشيخ ، ويصبو إليها كل من تقطعت به أوصال الحياة ، ولم يعد فى قوس صبره منزع للسهام .

كثيرون يعيشون بهذه الابتسامة ، يتغذون بها ، ويسكرون من رحيقها ، ويتعطرون بأريجها ، ويستضيئون بنورها ، ويسكنون فى حماها وظلها .. لأنها ابتسامة الرجاء ، والحمى ، والرعاية ، والحب . . .

ما أوْلى الشرق بهذه الابتسامة ! .. ما أوْلاه بها وهو أرض القناعة والكرم ، وموطن التسامح والإيمان ! . . .

عندما احتُضر السلام . . .

السلام يُحتضَر منذ عام . من سبتمبر ١٩٣٨ إلى أغسطس ١٩٣٩ ، وسيف الحرب مصلت على الرؤوس ، والناس ينسون يوماً ويتذكرون يوماً مصيرهم الحزين ، حتى كاد الناس يزهدون فى السلم ، ويتمنون الحرب ، خلاصاً من حالة مضنية للنفس ، مرهقة للعقل ، متلفة للعصب . ولم يعد بإمكان عالم بأسره أن يعيش فى حالة حذر دائم ، وتأهب ، واستعداد ، ونفقات طائلة ، وتجارة كاسدة ، وأن يعيش هكذا أكثر مما كان طوال ذلك العام . . مطلب يجاب ، تتبعه مطالب أخرى . ولم يعد بالإمكان تمزيق أوربا قطعة قطعة ، وضمها واحدة بعد واحدة ، إلى وطن تضخم بسكانه ، ويريد أن يتسع ويتفسح على حساب جيرانه . ولم يعد بالإمكان أن تعلن فى البلدان التعبئة الجزئية ، التى تكلفها ما لا طاقة لها به من نفقات ، وانفعالات .

والذين يعيشون فى قلب أوربا ، فى باريس ، كما نعيش اليوم ، قد أدركوا الويل فى هذا كله . فقد أطفئت أكثر أنوار الشوارع والميادين أمس ، حتى كادت مدينة النور تصبح مدينة الظلام ، واختفت تلك التيجان من الأضواء الساطعة ، وحلت محلها أنوار بنفسجية زرقاء قاتمة ، تقبض القلوب .

وفى جميع المحطات ألوف الجنود يرحلون ، وفى خارج هذه المحطات أهلهم فى توديعهم ، وداعاً فيه من البسالة ومن التأثر ، وفيه من الوطنية ومن الألم ما لا يوصف .

وغصت شوارع باريس بالضباط . . وتجدهم فى المطاعم والمقاهى مع أهلهم يشربون الكأس الأخيرة ، أو يتناولون آخر وجبة تجمعهم جميعاً . تصور طابع الحزن النبيل على وجه الأم ، التى ترى زوجها راحلا ، ومن حولها خمسة أولاد ،

بعضهم يشعر ويفهم ، وبعضهم لم يدرك بعد معنى الحرب أو السلام . . فهو سعيد بوجوده فى باريس يلعب ويمرح ، ويأكل ويمزح .

إن التسامح والتسليم بعد اليوم فى شبر أرض من أوربا ، لدولة من الدول ، معناه الضعف والاستسلام . لقد امتد اللغم ، وبدأ الجنود يعبثون بالبارود ، وتجاوبت الطلقات على الحدود . . فإذا لم تتدارك هذا العالم معجزة سماوية ، فإن حضارة عظيمة تتقوض ، ويذهب ريحها ، وتصبح أثراً بعد عين . . ستلبس يومئذ ملايين البيوت والمدن ثياب الحداد . . ماذا يعوض هذه الملايين بعض أشبار من الأرض ، بعد ما فقدت أشبالها ، وأنجالها ، وأحبتها ، ورجالها ، وثروتها ، ومالها . . وتيتمت أطفالها ؟ !

[الأهرام : أول أغسطس ١٩٣٩]

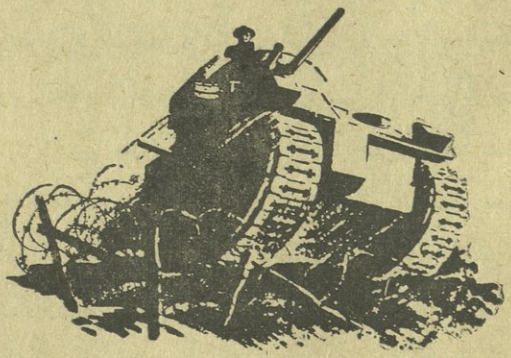

تضامن الديمقراطيات

ما أعظم الدروس التى نتلقاها ، فى هذه الأيام العصيبة ، على هذه المدينة ، قلب أوربا الخافق ، التى كانت مدينة النور ، فأصبحت مدينة الظلام !

لكن شيئاً آخر ينيرها الآن ، هو الشعلة المتقدة فى قلوب بنيها ، هو تلك الشجاعة الهائلة التى تلقوا بها الضربة العنيفة التى أدمت فؤاد الإنسانية بإشعال نار الحرب ، وهى النار التى إذا كانت ما زالت محصورة ، حتى كتابة هذه السطور ، بين دولتين ، فإن ألسنتها ستندلع فتلتهم أوربا ، وتخرج من الغرب إلى الشرق .

لقد أعلنت هنا التعبئة العامة ، ومعنى هذه التعبئة أن ملايين سيحملون اليوم السلاح ، ويقفون صفاً واحداً ، وقلباً واحداً ، للدفاع عن الأوطان ، وعن الحرية ، وعن الإنسانية جميعاً .

وهكذا نرى مرة أخرى شبح الحرب المخيف يحلق فوق أوربا ، حاملا الخراب والموت ، رمزاً متجدداً على بشاعة المطامع وشناعة الكبرياء . وأوربا ما زالت فى دور النقاهة من الحرب الماضية ، فهى فى أشد الحاجة إلى السلام . وقد جاهدت ، ولا سيما منذ عام ، فى سبيل هذا السلم ، جهاداً عنيفاً . . جاهدت بالمفاوضات الدبلوماسية ، وجاهدت بالاستعدادات الحربية ، حتى علمت اليوم أن رضوخها المتوالى لإرادة فرد واحد ، معناه التسليم فى حقوق جميع الأفراد ، وجميع الشعوب ، واحداً بعد واحد . .

لقد ضاقت أوربا ذرعاً ، وأنهكت قواها حرب الأعصاب ، ولم تعد تقبل الاستسلام للتهديد ، والوعيد ، والشدة ، والحقد ، والافتراء . لقد سئمت هذه الحالة التى تعطل القوى الروحية ، والمؤسسات المالية ، والاقتصادية ، وتشل

التجارة ، وتؤدى إلى الخضوع والمذلة .

إن أوربا حريصة على الحياة طبعاً ، حريصة على حياة مجيدة ، بمؤسساتها الباهرة للحضارة . ولكن ليس هذا الحرص معناه الرضاء بمذلة الخضوع لفرد واحد جبار ، يعبث بكل ما حوله ، ما طاب له ، فتطيح لعبته برؤوس الشعوب .

لايستطيع الرجال الأحرار ، فى الدنيا كلها ، من أقصاها إلى أقصاها ، إلا أن يتضامنوا مع الديمقراطيات فى جهادها النبيل لتحرير الحرية .

[باريس : ٢٨ أغسطس ١٩٣٩]

[الأهرام : ٢٠ سبتمبر ١٩٣٩]

الوزير الجندى

المسيو چان زاى ، وزير المعارف الفرنسية ، رفع كتاب استقالته إلى المسيو دلاديبه ، سائلا إياه أن يعفيه من عمله فى الوزارة ، لأنه يريد الانضمام إلى صفوف القتال ، بين الذين بلغوا مثله ٣٥ عاماً ! . .

وقد أراد ذلك رغم أن القانون يعفيه منه ، لأنه يؤدى خدمة حيوية لبلاده ، لا تقل شأناً عن الجهاد بحد السلاح .

فهو الوزير الذى قد آثر أن يلبس السترة الكاكى ، أو الزرقاء ، ويقف ، فى صف واحد ، مع الفلاح ، والنجار ، والحداد ، والزبال . . لا يعرف فى فرقته بأنه صاحب المعالى ، أو صاحب السعادة ، أو صاحب العزة ، ولا حتى باسمه المجرد « چان زاى » .

إنه سيأخذ رقماً ، ويصبح : « النفر نمرة ٨٧ ، ٢١٠ حرف د أورطة س ٣١٣ » — مثلا . .

هل أنا فى حاجة إلى بسط كل ما فى هذا المثل النبيل من جمال ؟! إنه لا يعد كثيراً فى بلاد حرة ديمقراطية . ولا يعد كبيراً فى بلاد تذود عن حريتها ، وعن شرفها ، بالاحتفاظ بعهدها ، والتمسك بكلمتها .

وعند كتابة هذه السطور يكون المسيو چان زاى قد ارتدى سترته العسكرية ، بغير تيجان ولا نجوم ، بلا قصب ولا ذهب ، ووضع رقماً على صدره وعلى رأسه ، وحمل بطانيته وزمزميته وسلاحه . .

بهذه الرجولة يتعلم الأطفال ويتكون الرجال . من هذه القوة الروحية الباهرة تستمد الشعوب معين نضالها وجهادها . من هذا التواضع على خدمة مبدأ واحد ، ومذهب واحد ، تأخذ الذريات بعضها عن بعض محبة الواجب ، وتقديس الواجب ، والاستهانة بالموت ، فى سبيل الواجب ، فداء للأوطان . .

سماحة الشرق

كان فى البيت الذى أسكنه ، فى حى « الايتوال » ، حتى أمس ، نحو ١٥٠ ساكناً . فهل تعرف ماذا أدت إليه التعبئة العامة ، وإخلاء باريس إلى الريف ؟ ! أصبح فيه أربعة أشخاص ، أحد السكان ، والبواب ، وزوجته ، وشخصى الضعيف ! !

هاهى ذى شوارع مدينة النور قد تحولت إلى مواكب خيالات وأشباح . الشانزليزيه التى كانت تبهر العيون بأضوائها الماسية ، من قوس النصر إلى المسلة المصرية ، قد أصبحت من الظلمات بحيث لا ترى فيها كفك ولا موضع قدمك .

وفى كل خطوة تجد رجل البوليس حاملا قناعه الواقى من الغازات ، وحرملته الواقية من السموم ، وخوذته الواقية من الشظايا . فهو يذكرنى بالعسكرى المصرى عندما يحمل كيساً فى رمضان فيه فطوره . . ما أعظم الفرق يا إلهى ! ! . . وما أروع الفرق بين روح الشرق وروح الغرب .

العسكرى عندنا ، فى شهر الصوم ، يظل طوال يومه ، فى الحر والنكد ، صابراً ، مجاهداً ، حاملا ، تحت إبطه ، زاده : كسرة خبز ، وقطعة جبن ، يأكلهما إذا أذن أذان المغرب بنهم شديد ، ويحمد الله ألف مرة على هذا الرزق والخير ، ويحمده على الزاد الأعظم ، وهو التقوى .

وهنا جندى أوربى يحمل مخلاته أيضاً ، ولكنها للوقاية من الموت . إن أخاه الذى بجواره يعدّ له شر أنواع السموم ، يطمع فى قتله ، وإحراق وطنه ، يطمع فى الانتصار عليه ، ومحوه . . يحلم بضم بلاده إليه ، كأن أرض الله الواسعة لم يعد فيها متسع للجميع ! . .

إن تقشفنا أنبل ألف مرة من طمعهم . إن تقوانا أشرف من جحودهم . إن خبزنا أكرم من زادهم .

ها هو ذا الشرق الكريم ، الذى نصفه بالتأخر ، يضرب بترفعه عما فى يد جاره أنبل الأمثال . . ها هو ذا يرضى بالكفاف من العيش ، وبقليل من الخبز ، ولا يكاد يعرف الترف ، ولا ينظر إلى ما فى يد جاره ، ويستعيذ بالله ، إذا فعل ، من وسوسة الشيطان .

الشرق يشقى ، ولا يعتدى . فليت الغرب يعرف فضله ، ويقتبس من روحه ونبله ! . .

العشاء الأخـــير

« إلى م . . . »

كنا ، عصر يوم حار ، فى القاهرة ، نتناول الشاى فى دار أنيقة لأسرة مصرية راقية . وكانت ربة الدار نموذجاً رائعاً لما كان يتمناه قاسم أمين : جمال المرأة ، وعقل الرجل . . وكان أنجالها حولها نماذج عالية أيضاً للتربية القويمة .

وكان ذكر الحرب عرضاً . فرأينا محيّاها الوضاء قد احتقن ، وصار بلون الدم ، ثم جالت العبرات فى عينيها . إنها لم تتمالك خيالها من أن يذهب بعيداً . فإن نجلها خريج كلية الهندسة قد التحق بالجيش ، وصار ضابطاً . فتصورت كل الأخطار التى قد يتعرض لها ، وتصورت ما قد يهدد حياته الغالية العزيزة عليها .

أما هو فقد ابتسم ، كما ابتسمت أخواته ، ابتسامة الشبيبة التى ولدت خلال الحرب الماضية ، والتى لا تعرف الإسراف فى الحنان وفى الخيال ، والتى لا ترى محلا لكل هذه المخاوف ، والتى غالباً ما تستهين بحياتها فى سبيل بلادها .

ذكرتنى تلك الأسرة الكريمة الصديقة ، بما أراه حولى الآن فى كل مكان . . أسرة الضباط أو الجنود الشبان المسافرين اليوم أو غداً إلى ميدان القتال ، تلبية للدعوة إلى التعبئة العامة . الأسرة الآن تتناول « العشاء الأخير » ، تتناول الطعام ، ربما لآخر مرة ، هكذا مجتمعة . . وقد تنوعت أمامها ألوان « الطعام » ، وتعددت ألوان الشراب ، وتنوعت الفواكه والأقداح .

لا يمكن أن تزعم ، إذا لم تكن تعرف أن الحرب غداً ، أن هذه الأسرة سترسل إلى النار ولدها وفلذة كبدها . إنهم يضحكون ويمزحون ، كما لو كانوا عائدين من « فرح » أو ذاهبين إلى ملهى . . وإذا نظرت وتأملت وجدت ،

بالطبع ، بعض الإسراف فى العطف والحنان . فهم يتسلفون العواطف التى سيحرمون منها زمناً ، وربما حرموا منها أبد الدهر . .

فاعجب لشجاعة هؤلاء النساء التى لا تدانيها شجاعة الرجال . إنها الحوادث والأيام ، وطوارىء الحدثان ، التى كونت هذه الحالة النفسية القوية ، من الصبر والتجلد ، ومواجهة الخطر ، والموت ، والابتسام .

سيكون لنا هذا كله يوماً ما .. فقد قطعنا مسافة لا بأس بها من الطريق . .

ولعل الله يرحم أولادنا ، فيقضى بأن يكون طريقهم مفروشاً بالورد لا البارود ! . .

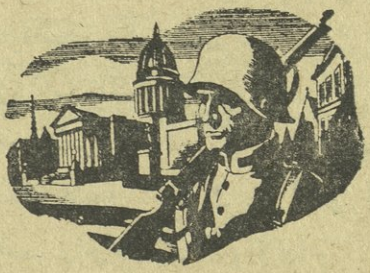

ثم هؤلاء الإنجليز ! . .

هناك أشياء ميز الله بها الإنجليز .

كنا على الباخرة « النيل » ، فى عودتنا إلى الوطن ، مشغولين قبل كل شىء بأنفسنا . كنا أنانيين . كنا لا نفكر فى غير نجاتنا ، وخلاصنا ، ووصولنا . كنا لا نفكر فى غير أهلنا وصحبنا . كنا نتكلم عن الغواصات وأخطارها فى الليلة الأولى ، ونحن فى عرض البحر ، عندما ساد الباخرة ظلام دامس ، وأطفئت أنوارها كلها ، ولم يبق إلا بصيص أزرق ضئيل ، لا يبدو فيه الشيخ من الشاب . كان بعضنا مهتما بالنوم أو اليقظة ، والبعض الآخر بالطعام أو الشراب . كان بعضنا مشغولا بسرعة الباخرة ويوم الوصول . وكان البعض الآخر يتتبع أخبار الراديو ، ويرهف السمع ، ويناقش الأنباء ، ويستنتج ، ويتفلسف . وكان هناك من يحكمون على الحرب بأنها بنت يوم وليلة . وكان الآخرون يزعمون أنها حرب حصار — حصار حصون ، وحصار مؤن — قد تمتد إلى سنوات .

وكانت بيننا سيدة إنجليزية كريمة ، تدعى « مسز سندر » ، لم تفكر فى نفسها وزوجها ورياضتها — وهى رياضية مشهورة بلعب الجولف — وإنما فكرت فى البحارة المصريين ، فى « الطعشجية » الواقفين ليل نهار أمام أتون النار ، الذى تبلغ حرارته درجة هائلة لا تطاق فى الشتاء القارس ، فكيف بها فى الحر اللافح ؟ .

قالت مسز سندر : « إن هؤلاء الرجال هم حزب من الأبطال . وهم أبطال فقراء ، وهم مبعدون عن أوطانهم فى هذه المرة لمدة تضاعفت وطالت ، ولهم زوجات وأولاد ، يشعرون بما فيه رجالهم هؤلاء من خطر ووحشة وحرمان ، فلماذا لا نقدم مكافأة صغيرة لهم ، دليلا على عطفنا عليهم ، وشكرنا إياهم ؟ » .

وقرنت القول بالفعل ، بل لعلها لم تتكلم بقدر ماعملت ، وهذه من أجل صفات الإنجليز : القول القليل ، والعمل الكثير . . فقد قصدت كل من توسمت فيه حب الخير ، وسألته أن يجود بما يشاء . . فالبعض دفع القروش ، والبعض دفع الجنيهات . فكان الشكر للجميع واحداً . . لأن القصد الأول هو التعاون الإنسانى ، وليس المفاضلة بالمال .

ومن ألطف ما حدث : أن التبرعات وقفت عند مبلغ ٤٥ جنيهاً . وعدد الرجال ٥٠ . فأصرت مسز كلارنس سندر على أن تحصل على خمسة جنيهات أخرى . وعندئذ تبرع الوجيه المحترم باسيلى كسبر بنصفها - مع أنه سبق أن تبرع بثلاثة جنيهات ، وأن تبرعت السيدة الفاضلة حرمه بمثلها - وتبرع الأستاذ عباس راشد ، صاحب الدار المصرية للآلات الزراعية والميكانيكية ، بالباقى . فشكرنا لهم هذه الأريحية ، والشعور النبيل . وفرحت مسز سندر ببلوغ أمنيتها ، بعد مجهود دام نحو ٢٤ ساعة . . فاستحقت أيضاً تقدير الباخرة . .

وإنى اليوم ، إذ أذيع فضلها ، أثق أن كثيرين من بنى الإنجليز سيحيّون معى هذه السيدة الإنجليزية ، التى هى من الطراز العالى الذى يمثل قومها . . ونتمنى لو كثرت نماذجه بيننا .

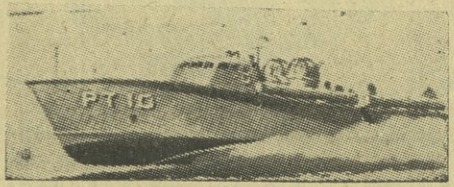

الشـــاعر

كانت الباخرة تسير ، كأنها سر فى ضمير الليل ، لا يخفق فيها نور مصباح ، ولا يلمع فيها زجاج نافذة . .

كان الليل حول « النيل » جميلا جداً ، استمد جماله من ضوء القمر ، فكأنما هو زنجية حسناء تختال فى ثوب لؤلؤىّ . . حتى لقد ذكرنا قول شاعر المعرة :

ليلتى هذه عروس من الزنـ ـج عليها قلائد من جمان

كانت « النيل » عالمنا الفريد المحدود ، ومع ذلك فقد كان يغمرنا فى هذا العالم جو من البهجة لا يحد . كنا — شرقيين وغربيين — كأنما نحن أسرة واحدة ، اجتمعنا على حب وطن واحد ، زادتنا الأخطار تعلقاً به ، وحنيناً إليه .

وكان البدر حارسنا الوفى الأمين . . ظل خمس ليـال يشيع فينا من صفائه صفاء ، ومن سناه طمأنينة ورجاء . وكان عشاق البحر مستندين إلى حواجز السفينة ، قد نال منهم جلال الليل ، وجمال البدر . فافتقدنا « الملاح التائه » صديقنا الشـاعر المبدع على محمود طه — إذ قدرنا أنه ، حتما ، فى عالم وحده ، يستوحى ، ممـا حوله : معانى فريدة ، وأغانى جديدة . فهو صديق قديم للقمر ، يزاحمه أحياناً ، ويغار منه على عرائس أحلامه . .

وعثرنا به فى أعلى السفينة ، وكأنه فى برج يشرف منه على عجائب السماء ، ويغازل عرائس الماء ، وينسج لنفسه عالماً بهيجاً من الحياة والحب . فقلنا :

— أيها الشاعر ، أما زلت تغار من القمر ؟ .

قال :

— بلى . .

وسمعناه يهمس :

أغار عليك إن قبّل هذا الثغر أو ثنّى
جرىء اللحظ عربيد بكل مليحة يُعنى
فإن لضوئه قلباً وإن لسحره جفنا
يصيد الموجة العذرا ء من أغوارها وهنا

ومرت الليالى الخمس كأحلام شاعر . بل من يدرى ؟! لعل الله كتب لنا السلامة ، لأن فى الباخرة شاعراً ، يلقى أشعاره على البحر فيهدأ ، وعلى الليل فيصفو ، وعلى البدر فيهدى . . ويلقى أشعاره على من حوله فينصتون ، وينسون وحشة السفر فى تلك الساعات الرهيبة ، وتبدو لهم أرض الوطن البعيدة دانية قريبة . .

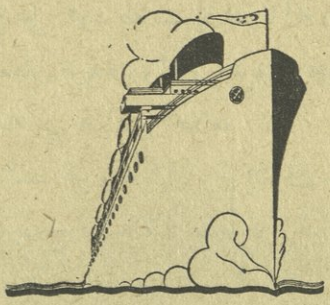

نور الشرق

وطنى ! . . .

وطـــنى لو شغلت بالخلد عنه

نازعتنى إليـه فى الخـلد نفسى !

أرخى الظلام فى باريس سدوله على البيوت ، على الشوارع ، على المدن ، على البلدان جميعاً ، وأطفئت المصابيح الساطعة التى كانت رمز التحضر والرخاء . عادت الدنيا أدراجها إلى الهمجية الأولى ، لتعيش على ضوء سراج . وتهاجم القبائل بعضها بعضاً ، لتفوز بما تقتات به .

شهدت باريس ، فى خلال إعلان الحرب . فتعلمت علماً جديداً عالياً فى حب الأوطان . فقد كان الناس يسيرون إلى ساحة الوغى ، بقلوب مرتاحة ، وثغور باسمة . كانوا قد نفد صبرهم ، وتمردوا على تلك الحالة من القلق والإرهاب ، التى ظل زعيم الچرمان يلقى فيها العالم يوماً بعد يوم ، ويغتال من أوربا بلداً بعد بلد . كانوا قد اعتزموا الحياة أو الموت . كانوا قد صمموا على الموت جميعاً ، إذا اقتضى الأمر ، ليحيا من بعدهم أولادهم فى سلام وصفاء .

حقاً ، إن قضية الحلفاء هى قضية الإنسانية . إنهم يدافعون عن مستقبل الحضارة . إنهم يذودون عن التخوم والحدود غير المنظورة الآن على خريطة أوربا ، لأن رجلا قد أحرق أوربا ، وأشعل النار فى خريطتها ، وضرب مئات المدائن ، وألبس السواد ملايين البشر ، وحرّم الشبع والنوم ، بل حرم الحزن والبشرى ، على اللواتى هن من لحمه ودمه ، وقضى عليهن بالشقاء . .

حملتنا « النيل » إلى أرض الوطن . تركت وراءها ظلمات أوربا ، لتملأ عيوننا مرة أخرى بنور الشرق . فخرجنا من ميناء الإسكندرية فى المساء . سمعنا

فى الشوارع الضيقة أنغام الراديو الراقصة ، ورأينا وجوه المصريين الباسمة ، رمز الإيمان بالخير وبرحمة الله . فنظرنا فى محبة وعطف إلى هؤلاء الفقراء ، الذين هم أغنى أهل الأرض بالقناعة والإيمان . وتمنينا لو قبّلناهم جميعاً ، فرحاً بهم ، بعد ما كنا نشعر به فى الغربة من ألم ، فلطف الله بنا من مذلة الغربة ، وظلّلنا بعزة الوطن .

ويا وطنى لقيتك بعد يأس
كأنى قد لقيت بك الشبابا !

ويلات

وضع المستر بتلر ، العالم المشهور ، تقريراً ممتعاً عن التعليم ، وما كان يمكن أن يصيبه من خير وبر ، لو أن ما أنفق فى الحرب الكبرى الماضية صرف عليه ، فقد خسر العالم فى تلك الحرب المنحوسة ٤٠٠ مليار دولار . وبهذا المبلغ كان يمكن بناء بيت بـ ٢٥٠٠ دولار ، وفرشه بـ ١٠٠٠ دولار ، وإحاطته بحديقة من خمس قصبات ، ثمن كل قصبة ١٠٠ دولار ، وذلك لكل عائلة من أهالى الولايات المتحدة ، وكندا ، وأستراليا ، وانجلترا ، وبلاد الغال ، وإرلندا ، وأسكتلندا ، وفرنسا ، وبلچيكا ، وألمانيا ، وروسيا . . وبعد هذا كله يبقى من المال مايكفى لمنح كل بلدة سكانها ٢٠,٠٠٠ نسمة فأكثر ، فى جميع البلدان المذكورة : جامعة ، ومكتبة ، ينفق عليهما ، فى كل بلد ، خمسة عشر مليون دولار .

وهذا التقرير القائم على إحصاءات دقيقة ، يدل الآن ، ونحن بإزاء نكبة الحرب الحاضرة ، على لمحة مما يخسره العالم المتحضر ، بسبب الحماقة التى ارتكبها بعض المنتسبين إليه .

وخسارة المال هى ، فى الواقع ، أتفه الخسارة . لأن المال هو لى ، وهو لك ، وكان ، قبلى وقبلك ، وسيكون ، بعدى وبعدك ، لألوف الناس .

أما النفوس والأرواح فهى التى ستذهب بالملايين ، ولاسبيل إلى تعويضها . كيف يمكن تقدير الثلل ، الهائل ، المخيف ، الذى سيصيب البشرية من الحرب الحاضرة ، إن لم تقف رحاها بمعجزة سماوية ؟ !

لقد زار مرة دوق وندسور - عندما كان ولى عهد انجلترا - ملجأ خاصاً بمشوّهى الحرب ، فرأى ماتقشعر منه الأبدان . فكان يواسى هؤلاء الأبطال الذين فدوا بالنفس أوطانهم ، حتى وصل إلى غرفة قالوا إن فيها سبعة رجال .

فلم يجد إلا ستة . فسأل عن السابع ، فاضطربت رئيسة الملجأ والممرضات جميعاً ، وتمتمن معتذرات ، والتمسن من الأمير أن يتسامح ولا يرى الرجل السابع ، فأصرّ ، ففتحوا له الباب . فإذا به يرى كتلة من اللحم ، ليست لها عيون ، ولا فم ، ولا أنف ، ذراعها مندمج فى كتفها ، وصدرها مختلط ببطنها ، كتلة حمراء كالدم ، فيها ثقوب : كانت : عيوناً ، وأنفاً ، وفماً .. فلم يتمالك الأمير نفسه ، فاغرورقت عيناه بالدمع ، وتقدم من هذه الكتلة البشرية البشعة ، فقبّلها ، رمزاً لاعتراف الوطن بجميل مئات الألوف من المشوهين ، الذين منحوا الوطن حياتهم ، ولم يحظوا حتى براحة الموت وصفائه .

فانظروا ، وتأملوا أى جرم هو هذه الحرب ، التى تترك فى كل بيت ولداً يتيما ، وأرملة حزينة ، وأماً ثكلى .. وتترك فى كل ركن كتلا بشرية ، مشوّهة ، لم يعد لها اسم ، ولا رسم !

وحدة العـــالم

يدخل علينا رمضان هذا العام ، فيدركنا فى حالة احتياج شديد إليه ، حتى الذين لم يتعودوا الصيام أظنهم سيصومون هذا الشهر حتما . لأن العالم ، المخضب الآن بالدماء ، بحاجة إلى أن تتجه جميع قواه الروحية إلى الله ، فى ورع وابتهال ، حتى يرحم الله العالم .

يجىء رمضان ، فلا يجد الكثيرين محتشدين حول الكاس والطاس . فالناس — حتى أرباب اللهو والبطالة — قد شعروا بأن النكبة التى أصابت بولونيا ، وتصيب الآن أوربا ، تلحق ، ولو رذاذاً ، كل فرد منهم ، مهما يكن نائياً بعيداً . فالدنيا — مع تقسيم حدودها وانفصال نجومها — هى فى الواقع وحدة مشتركة كالجسد الواحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر البدن بالسهر والحمى . . .

فالبولونى الذى مات فى حصار دانتزج ، أو ڤارسوڤيا ، يهمنى ، ويهمك ، ويهم ساكن لبنان ، وساكن عمان ، وساكن إيران ، وساكن اليابان . إنه كان يدافع عن حرية بلاده فعلا . ولكنه فى الوقت نفسه — من حيث يدرى ولا يدرى — كان يدافع عن حرية كل الأوطان . كان يدافع عن هذه الإنسانية المضطهدة ، التى لا تكاد تهم بالوقوف على قدميها حتى تنشب فيها بعض الوحوش أظفارها ، وتعمل فيها أنيابها .

يهل إذن شهر رمضان على العالم الإسلامى ، وقد انطفأ فى بلدانه الكثير من النور ، وحرم عديدون الطعام الموفور ، واستعد الألوف من أهله للويل والثبور ، وعظائم الأمور . . .

وعلى ذلك فنحن نلقاه أشد ما نكون خشوعاً ، وتهيباً من هذا الزمن القلب العجيب ، الذى لا أمان له ، ولا إيمان فيه .

نلق رمضان أشد ما نكون اليوم إيماناً برسالته ، رسالة الزهد والتقشف والورع . . رسالة البطون التى تأكل قليلا . والنفوس التى تشعر كثيراً . . رسالة الألسن الجافة من الظمأ ، والقلوب العطاش إلى الخير والبر والإيثار . . رسالة التضحية بالقوت رحمة بالفقير ، وإنصافاً لليتيم وابن السبيل . . رسالة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . . رسالة الصوم والصلاة والزكاة . . رسالة المحبة الخالصة للناس ، من جميع الألوان ، وجميع الأديان .

فلنكن إذن فى هذا الشهر المبارك مسلمين ، بكل ما تحمله كلمة الإسلام من جلال وجمال . . إذا عشنا فى مصابيح ساطعة ، فلنذكر الذين معدهم خاوية . . وإذا استعددنا للعيد ، فلنذكر الذين كل أيامهم صيام بغير عيد ! . .

ولنتجه إلى الله خاشعين ، ونحن فى حالة الصوم والحرمان ، ليشفى العالم من شهوات النهم ، والطمع ، والدم ، والطغيان ! . .

عادت من الغرب

ساعة مع آنسة مصرية ، خريجة السوربون ، آتاها الله العنصر الطيب والعقل المستنير ، سافرت ، وشاهدت ، وتأملت ، ودرست . . وهى الآن ، منذ بضع سنوات ، قد وقفت وقتها وعقلها وقلبها على تعليم بنات جنسها . ونسيت فى هذه المهمة السامية ذات نفسها ، وكرست لهذه الرسالة فؤادها . فلما سألتها أمس عن خلاصة رأيها فى التجربة التعليمية التى قامت بها ، أبدت لى آراء جديدة ، لم أكن أنتظرها منها ، مع أنها عودتنى دائماً طرافة آرائها . فآثرت أن أنقل بعض رأيها لقرائى .

قالت لى : إنها تعتقد أن تعليم البنت المصرية فرض واجب ، على شريطة أن يكون الغرض منه هو : بناء بيت جميل ، ومشاركة زوج كريم ، وتربية أولاد نجباء . . . أما غير ذلك فلا . .

فهى لا تريد أن تتعلم البنت لتصبح معلمة مثلا . ولا لتحترف أية حرفة من الحرف التى يطمع فيها عدد كبير من الجنس اللطيف . إنها ضد الاحتراف . وهى لا ترى له عندنا ضرورة إطلاقاً . فبلادنا ، لحسن الحظ ، لم تصب بحرب تحرمنا الرجال ، بحيث نرى أنفسنا مضطرين إلى الاستعانة بالنساء . فلا محل للبنت فى عمل خارج عن دائرة بيتها . وهى نفسها — صاحبة هذا الحديث — قد أضاعت شبابها ، أو كادت . فهى لم تستطع أن تؤدى بحسب ضميرها ما كانت تطمع فى أدائه ، من تكييف عقليات على غرار عقلها . حال بينها وبين ذلك ، الوسط المطبوع من قبل بطابعه الخاص ، الذى يصعب تحويله ، أو حتى تعديله . إنها كانت تريد عمل شىء عظيم ، فلم تستطع . ورأت اندفاعاً نحو الخروج عن البيت إلى المكاتب . . وهى تستنكر هذا الاندفاع ، وتراه فى غير مصلحة

بلادها . تريد للبنت أن تتعلم فعلا ، على أن يكون قصدها الأول والأخير من التعليم : أن تكون فتاة راقية ، وزوجة فاضلة ، وأماً صالحة .. وكل من تخرج عن هذا تضل سبيلها ، وتخطىء طريقها ، وتجني على نفسها .

هذا هو الرأى الذى اجتهدت أن أنقله بإخلاص إلى القراء ، وبخاصة إلى القارئات .. أنقله وأنحنى له ، لأنه خلاصة تجربة المرأة ، وظل فكرها المعذب ، وقلبها الحزين .

كتائب شرقية

اجتمعنا بكتائب لبنان وطلائع الأرز الجميل ، وسمعنا أناشيده العذبة ، التى تسكر الجوارح بحب الأوطان .

شكراً للصديق الأستاذ أسعد داغر . إننا كنا بحاجة إلى هذه الألحان . إنها انتزعتنا من ضجيج المدينة ، وحملتنا إلى ربوع زهتها الطبيعة ، وآثرتها برزق عظيم .

جلست العروبة إلى مائدة واحدة . كانت العروبة تكرم لبنان فى أرض مصر . وليس لبنان بالبعيد عن العين ولا البعيد عن القلب . إنه أصبح دانياً قريباً . إن أبناءه الأمجاد قد امتزجوا بنا ، وتقدموا إلينا بفضائل نادرة من الهمة والذكاء ، والفطنة ، والأمانة .

إنهم خدموا قضيتنا الفكرية والوطنية خدمة جُلّى . وكانوا فى كل ما تولوه من وظائف وأعمال نماذج تحتذى ، فى نشاطها ، ورجولتها ، وصدقها ، وأخوّتها . لقد لقحوا نهضتنا بعناصر الجيل الفريدة . واندمجوا فى أهل الوادى السعيد ، فأصبح واديهم . وشربوا من ماء النيل ، فأشربوا حب النهر المقدس ، الذى عبده يوماً ما آباؤنا . فأصبحنا بنعمة هذا الحب إخواناً .

ما أكثر ما نأخذه كل يوم عنهم !.. وإن مزاياهم لكثيرة . وليس أقل هذه المزايا استقامتهم المشهورة ، ومثابرتهم ، وجلدهم لكل ما يقومون به ، ويقظتهم للخدمة الجليلة التى يؤدونها لهذه البلاد ، وسهرهم بكل إخلاص على أداء الواجب ، فالواجب عندهم هو الأسمى ، وهو الأسنى . وهم يعرفونه حق المعرفة ، ويسعدون بمحالفته سعادة خالصة ، ويستعذبون كل عناء فى سبيله .

إن السفر إلى لبنان هو نزهة محلية ، كالسفر إلى أسوان .

مرحباً بكتائب لبنان ! . . .

موكب الذكرى

كانت الساعة السابعة صباحاً . وفى الجو غيمة ، وفى القلب غيوم . . البرد كاد يشتد . والنيل ، من بعيد ، كأنه يغلى . والأهرام مثلثات سوداء فى الأفق النائى ، تنحسر عنها ستائر السحب الثلجية اللون ، شيئاً فشيئاً ، مقدمة لسطوع شمس القاهرة الصباحية الحنون . .

استيقظت العاصمة . . وبدأ السير أولئك الذين يجالدون العيش ، وتجلدهم الحياة من الصبح حتى المساء . أول المبكرين الذين يحملون الندى على رؤوسهم ، هم أقل الناس حظاً . . .

بدأت تسير على كوبرى الخديو إسماعيل ، منذ الفجر ، عربات النقل الواصلة من الدقى ، محملة بقافلة القبور . . مركبات خشبية امتلأت عوارضها بنسائنا البلديات ، يحملن إلى الموتى « رحمة » العيد . . احتشدن ، وازدحمن على عربات الكارّو ، وكأن الحوذى ، والحمار نفسه ، جزء من هذا الموكب البلدى الإنسانى . الذى تتمثل فيه ، على مظاهر فقره ، أنبل المشاعر البشرية . . هذه مواكب الذكرى . . هذه مواكب الأحياء تذكر الذين غابوا عنا ، وتخلوا عن بقية الجهاد . . أى جهاد أروع من أن يعيش الناس محرومين من أحبابهم ! .

هؤلاء الفقراء الذين يقصدون محلة الموت ، فى صباح يوم الوقفة ، قد استعدوا لهذا اليوم منذ أيام . . حرموا أنفسهم أشياء ضرورية ، ليصنعوا الفطير والخبز ، ويشتروا البلح والليمون والخوص والزهور التافهة . . ويعطوا التربى بضعة قروش ، وينفقوا على ذهابهم وإيابهم ومبيتهم من قوت أفواههم ، ليهبوا فقراء آخرين ، أشد منهم فقراً ، وأولى بالرحمة . . .

تأملت هذا الموكب متأثراً خاشعاً . . وقلت : أرسل إليه هذه التحية . موكب الفقراء ذوى الإحساس الفنى ، وذكرى الراحلين الذين سوّى بينهم الموت ، فلم يعد بينهم غنى ولا فقير .

لوحات

عندما يكفهر وجه السماء ، قبيل المطر ، تستبشر وجوه أناس كثيرين . . وعند ما تبكى عيون السماء ، تضحك عيون بعض الناس ، لأنها تعود فترى ، بعد السنين الطوال ، لمحات سعيدة من العهود والذكريات . .

لذلك يحب بعض الشعراء والفنانين ، وبعض ذوى القلوب الحساسة ، جو المطر . . ولقد كانت سماء القاهرة أمس كريمة رحيمة ، لأنها عطفت على الذين حرمهم الدهر ، وتركهم يعيشون بغير ذكرى ، كالسمك على الأرض بغير ماء . . فهذا الجو الرمادى الجميل يخلق للروح جوها القديم . فى ذلك الجو كانت نفوسهم حرة طليقة فى ساحات السعادة . كانت نفوسهم قد وجدت شبيهاتها من النفوس الحائرة ، فتمت لها هناءة النجوى .

كانت تلك النفوس آتية من كل قطر ومصر . كانت قد تناست ، فى أرض الموعد الروحى ، أجناسها وأديانها ، وأصبحت كتلة واحدة ، تؤمن برسالة واحدة ، هى رسالة الإنسان على هذه الأرض ، رسالة الفكر ، ورسالة القلب .

فى هذه السماء الرمادية ، قامت أمس لوحات رائعة فى عينى رجل أصبحت عيناه لاتريان مما حوله شيئاً ، أصبح وحيداً ، وعاش بين الجماهير المزدحمة لايسمع صخبهم وصراخهم ، ولا يسمعون ضجيج روحه . .

كانت هذه اللوحات كلها جميلة ، ولو كان بعضها حزيناً ، لأن الزمن صقل الحزن ، وجعله يبدو على حقيقته ، وحقيقة الحزن أجمل وأنبل من زيف الفرح .

بعض هذه اللوحات يمثل فتى وفتاة : هو من الشرق ، وهى من الغرب . وقد سارا ، فى يوم رمادى ، فى غاب بولونيا ، قرب المساء ، يصغيان بشغف إلى

صوت أقدامهما على حصباء الطريق ، لأنهما كانا يصغيان بشغف إلى حديث صامت ، ليس من هذا العالم .

ثم لوحة أخرى ، وأستاذ التاريخ فى السوربون يسجل عهد الإقطاعات ، أيام ملوك فرنسا وأمرائها ، وقد انكسر قلمها الرصاص ، وهى تكتب المذكرات ، أو أن مداد قلمها الحبر قد فرغ . . فقدم لها قلمه ، فكتبت به ، ثم حملت إليه مذكراتها الأنيقة ، الصحيحة ، البليغة ، تفسر له ما فاته . وقد كان كل شىء فاته ، ولا سيما علم الحياة . .

ثم . . لوحة أخرى . . .

الجو الداكن

[عزيزى الأستاذ الصاوى

قرأت بسرور كلمتك الأخيرة التى ضمنتها ابتهاجك برؤية الجو الداكن والسماء التى جادت برذاذ من الغيث قبل الأوان . وشاركتك الشعور اللذيذ باستئذان موسم الشتاء ، ذلك الشعور الذى اهتززت له طرباً ، لأنه ذكرك بأيام صفاء النفس فى أجواء تخالف بتكوينها وألوانها الجو المصرىّ .

وفى الحق ، إن بعض النفوس الحساسة لتحتاج إلى تلك الأجواء والألوان لتشعر بصحوها الداخلى ، وإنها لتخشى أشعة الشمس وتحاول الفرار من ضوئها وتنفر بطبيعتها من وضوح النور واشتداد القيظ . وهذا الجو الداكن نفسه هو الذى مثله ليوناردو دافنشى أجمل تمثيل فى لوحته الخالدة ، فان الشمس المشرقة لا تصلح إلا لانماء النبات وفرح الحيوان . أما الغيوم المتراكمة والسحب المتلبدة التى ترسم بمساعدة الخيال أشكالا وصوراً شتى كالتى كان يراها هملت فى عالم أحلامه فجديرة بأن توقظ شهوة الخلق والتفكير ، وتنبه العواطف الكامنة فى حنايا النفس ، وهى نفس الحالة التى تغنى بها طرفة بن العبد فى معلقته الشهيرة ، واستطاب فى ظلها الخلوة الصحيحة والنشوة التامة والالهام الالهى لنظم الشعر ورشف كؤوس الغرام . فتمهل يا حبيبى قليلا ، ولا تبادر بالسفر إلى تلك الأجواء ، فانها عما قليل تسافر إليك ، وتواصلك على ضفاف النيل ، وتعيد إلى نفسك قوتها ، وتغسل القلب من أدران الهم المتراكم من تخافات الخلق ، وتطهر النفس من أرجاس الاحتكاك بالنوكى والحمقاء . والسلام عليك ورحمة الله ؟

محمد لطفى جمعه]

إن تلك الأجواء يا صديقى لن تسافر إلينا ، ولن تصل يوماً ما إلى ضفاف النيل ، ولن تعيد إلى النفس قوتها . . . فالجو الداكن فى مصر لا يبقى طوال الشتاء إلا لحظات معدودة . وهو عندئذ يكون شبه زائف ، وإنما نحن نحبه لأنه خديعة لأنفسنا من أنفسنا . ونتعلل به للذكرى . . هذه الذكرى هى التى نعيش بها ، ونتجلد بخيالها ، على كل ما حولنا ، مما يشق بلادنا ، ولا نستطيع له دفعاً ، لأن دفعه يتطلب مئات السنين ، وجيلا غير هذا الجيل .

شاب شرقى

منذ بضع سنوات ، وصلت ، عند الفجر ، إلى ميناء بور سعيد ، الباخرة اليابانية « هارونا مارو » ، وعلى ظهرها شاب شرقى ، فى الثلاثين من عمره ، كان عائداً من أوربا ، متشبعاً بحب بلاده ، متهوساً بالخدمة العامة ، راغباً من صميم فؤاده أن يفدى بالنفس أوطانه .

قضى سبع سنين فى جهد متواصل ، رأى فى أول عهده عادات وتقاليد وأعمالا مفجعة ، فانتقدها بحرارة ومرارة . وهو اليوم إذا أسف على شىء ، فإنما يأسف لأن قلبه قد تشبع بهذه المرارة ، بحيث فقد حرارته ، ووقف فيه نبض النقد والتقريع .

عاد ، فكان إذا رأى غلاماً متشرداً يأخذ من القمامة قشرة بطيخ ملوثة ، ليلعقها بترابها وجراثيمها ، كاد يهم بالبكاء ! . . وهو اليوم إذا مرّ عليه ألف غلام يسألونه الصدقة ، نهرهم ، وسبهم ، بأقذع الألفاظ !

عاد مؤمناً بالمثل الأعلى ، وبالخلق الرفيع ، وبالنزاهة المطلقة ، فوجد كل ماحوله يزعزع اعتقاده ، ويزهده فى الخلق ، وفى النزاهة ، ويجعل المثل الأعلى فى عينه رمزاً للضعف والعجز !

عاد مشتعلا حماسة لخدمة بلده ، ودأب على هذه الخدمة ، ليل نهار ، سبع سنوات . .

وفى هذا الجهاد النبيل ، كانت ستائر الزيف ، والغش ، والنفاق ، والكذب ، والرياء ، تنحسر عن عينيه ، كل يوم ، شيئاً فشيئاً ، حتى بدا له أن الذى يمد يده للسلام عليه ، إنما يريد أن يقطع يده . والذى يعانقه ليقبله ، إنما يريد أن يسرق نقوده . والذى يضرب له موعداً للقاء ، إنما ليدبر له كميناً غادراً . . وأنه أولى

للرجل أن يعيش مع النمور والفهود فى الغابات ، من أن يعيش مع بنى الإنسان .

عاد ورأسه ممتلىء أفكاراً طيبة ، وقلبه جياش بالأمانى العذبة ، وروحه ترفرف كالنحلة فوق الزهور . .

وهو اليوم قد أصبح خالى الوفاض من أفكاره ، وقلبه كالإناء الذى تشبّع بالملح ، لا يقبل بعده ذرّة !

عاد رحيما ، كريماً ، يقدم طعامه لأول طارق ، وجيبه لأول سائل ، وقلبه لأول نفس .

وهو اليوم قد وجد أن الذى كان يأكل زاده ، كان يسخر من سذاجته . والذى كان يضع يده فى جيبه ، كان يضحك من غفلته ، والذى كان يفتح له قلبه ، كان يهزأ بعاطفته .

عاد الشاب الشرقى ، فأدرك ، بعد سبع سنوات ، أن للفكر وطناً ، وللجسد وطناً آخر . . وأن الذى يمجد وطن الجسد هو كالجثة الهامدة التى تحمد التراب الذى فوقها . . وأن الذى يجحد وطن الفكر ، وطن الروح ، هو الذى خلص من أوشاب التعصب الأعمى ، وسما فوق الحدود الموضوعة على تخوم البلدان ، وتحرر من عبوديات مفروضة باسم القوميات ، والقومية الحقة منها براء ، ونجا من الجو الخانق ، وانطلق كالعندليب ، يغرد ، ويطرب ، من وراء البحار ، الأحرار القلائل المساكين فى وطن الجسد ! . .

من هم الأحرار ؟

كنت قد كتبت مقالا(١) عن شاب شرقى عاد إلى بلاده من أوربا ، فاصطدم بكل ما حوله ، فصار كالعندليب الذى حبس فى قفص ضيق ، لايستطيع أن يغرد ، فلابد له من عناية إلهية تكسر قضبان قفصه ، حتى ينطلق حراً إلى وطن الروح ، ليطرب ، من وراء البحار ، الأحرار القلائل المساكين فى وطن الجسد ! ! . . .

فسألنى قارىء كريم عما أعنى بهؤلاء الأحرار ، من أمثال هذا الشاب . .

والسؤال سهل ، والجواب صعب . . إذ يوجد قراء يسألون أسئلة تدل على يقظة نفوسهم ، ورغبتهم فى الوصول إلى أعماق قلب الكاتب . ولكنى سأحاول الرد ، قدر الطاقة :

« الأحرار » هنا ، هم أحرار الفكر ، الذين انطلقوا بعقولهم من كثير من القيود والأحكام المبتسرة ، وسموا بأرواحهم فوق التخوم الجغرافية المرسومة ، وتطهروا من أدران التعصب الأعمى ، التى أخرت الشرق ، وقسمته على نفسه ، فظل ضعيفاً . . .

هؤلاء الأحرار الذين تذوقوا الحرية فى بلاد الحرية ، قد أصبحوا كالنبات الذى يغرس فى غير أرضه ، بحاجة إلى الظل ، وهو فى الشمس . . .

هؤلاء الأحرار يريدون النهوض بالمجموع ، ولايستطيعون ، لأنهم يعملون وحدهم بإخلاص ، والرجال قليل . . .

يريدون أن يروا العدالة والنزاهة تسود كل فرد وكل هيئة ، وأن تكون للشعب وحدة ، وفيه انسجام . . وهذا عمل أجيال . . . وهم لذلك يشقون ويتعذبون . .

---

(١) انظر : « شاب شرقى » ، صفحة ١٠٦

وهؤلاء الأحرار القلائل المساكين هم نقطة فى بحر الجماهير الزاخر . هم طائفة شبه منبوذة ، لأن وسطها ينكرها ، طائفة مغمورة بالوحشة والألم ، لأنها لا تستطيع إلغاء عقولها ، ولا قتل إحساسها ، ولا التخلى عن كرامتها ، ولا النزول عن ترفعها ، ولا الاندماج فى طوائف الوصوليين ، والنفعيين ، والزائفين ، والمهرجين .

الأحرار القلائل هم الشهداء الأحياء ، الذين يستشهدون كل يوم ، فيموتون جوعاً ، قبل أن تمتد أيديهم إلى السحت الحرام ، أو تلغ أقلامهم فى عرض إنسان .

الأحرار القلائل فى هذا البلد هم نواة حريته الحقيقية . . هم الذين يضعون الزيت فى القنديل ، الذى على ضوئه الخافت تهتدى الأمة إلى أشرف وأقدس مافيها : إلى كيانها الحق ، وإلى أصلها المجيد ، وإلى مثلها الأعلى .

هؤلاء الأحرار المساجين ، المساكين ، قد يسرهم أن ينطلق من بينهم طائر ، يرسم أفكارهم وأفكاره ، ويعزيهم ، على البعد ، وينقذ قيثارة قلبه ، التى تقطعت أوتارها ، حتى لم يبق فيها إلا وتر واحد . . هو : الأمل فى الله . .

الحب الطاهر

شارع الجبلاية ، فى الزمالك ، على ضفة الجزيرة الغربية ، قطعة من غاب بولونيا ، لأنها جنة العشاق !

مررت بها أمس ، بعد الغروب ، فى الساعة التى تودع فيها الشمس الوجود ، بحنان غريب . . فى الساعة التى يصمت فيها الكون ، ويصغى إلى لغة العيون ، وخفقات القلوب . . .

وجدت شباناً صغاراً ، وبنات دون سن الحلم . . ومع ذلك بدأوا يحلمون بالحب ! . .

هذا النضوج الباكر ، قد أنضجته نار الحرب . . فالحرب قد ألهبت ظهر الدنيا بالسياط ، علماً وعملا . . فنضج كل شىء قبل أوانه ! . .

على كل مقعد خشبى ، على طول ضفة النهر ، بلا استثناء ، من كلٍّ زوجان اثنان ! . .

وجندى البوليس يتمشى روحة وجيئة ، لينبه الغافلين إلى أنه بالمرصاد . . حارس الأخلاق ! . .

ومع ذلك ، فالحب هو الحارس حقاً ، إذا كان عفاً طاهراً ! . . .

ربما كان ما فى طباعنا من جمود ، وما فى شعورنا من غلظة ، وما فى قلوبنا من فراغ ، يعود إلى أن صبانا كان محروماً من مثل هذه العواطف . وبعض الرجعيين والجامدين يعزون إليها كل الشر ! . ولو بحثوا فى أعماق نفوسهم ، ونظروا بشجاعة ، لدهشوا من حقيقة أن النفس الجامدة لايمكن أن تكون نفساً خيرة .

فالذين يتظاهرون بالحرص على الأخلاق ، بحاجة إلى دروس فى الأخلاق .
وقد يرتكبون أشياء فاجرة فى الخفاء ، ويزعمون أن الناس يجهلون ! . فإذا جاء حديث الحب استغفروا ، وحوقلوا ، والحب منهم براء . . لأن الحب هو اتصال النفس بالنفس ، فى حالة من السمو ، والعفاف المزدوج ، المترفع عن الدنايا ، الذى يريد القوة والاتحاد ، ويجعل للحياة طعماً ، وللجهاد معنى .

إن الله قد خلق الجسد ، وجعل من القلب ملاكه الحارس .

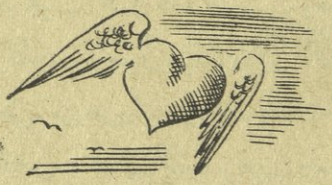

كانت لهم بيوت ! . .

استيقظت الشمس متراخية . تأخرت فى النعاس ، نامت فى حضن الليل ، وعز عليها ، فى الفجر ، الفراق . . .

رأيتها طالعة . . . كانت تتثاءب ضياء ، وراحت تمد ذراعيها النورانيتين ، اللتين لا آخر لهما ، فتلمس بهما الكائنات . . فتصحو ، وتبتسم لهذا العطف والحنان .

كان كل ما تلمسه الشمس يبتسم . . بدا لى النيل ، عن بعد ، وكأنه ابتسامة فضية عريضة فى وجه الأرض الأسمر ، وجعل النور والظل من كل ما حولنا لوحة جميلة . ونشرت السفن الصغيرة أشرعتها البيضاء ، كأنها تلوح بمناديل لمطلع الشمس .

بدأت الحرارة تدب فى أعضاء الكون . وبدت الحياة جميلة جمالا رائعاً ، وساد كل ما حولنا صفاء عجيب . كأن هذه الشمس ، وهذه السماء ، وهذا النهر ، والجزيرة النضرة ، والناس يروحون ويغدون إلى أعمالهم مبكرين : كأن هذا كله لا يشعر بما فى الشاطىء من حروب وويلات تشيب لها الولدان ! . إن الحياة جميلة . ولكن بعض الناس ، قبحهم الله ، يريدون جعلها على صورتهم . إن الحياة غنية بخيراتها الطبيعية العظيمة . ولكن بعض الناس ، فقراء النفس ، يريدون تشويهها وتدميرها . فحكموا على الملايين من الرجال بالسير إلى المذبحة . وحرموا ملايين النساء والأولاد التمتع بحياة العائلة ، والتمتع بمثل هذه الشمس المشرقة ، والسماء الصافية . . فدفنوهم ، كما فى عصور الهمجية الأولى ، فى حفر أرضية مثلجة ، تحت المطر ، وفى عصف الزمهرير . كالمتوحشين الذين كانوا يلجأون إلى الكهوف .

كيف تكون الحياة هكذا خيرة ، كريمة ، جميلة ، وفى الدنيا كل هؤلاء الأشرار ، الذين يطوحون بالإنسانية إلى الدمار والموت ؟!

لم يكن هناك من يتضور جوعاً . كانت الأرض ، فضاء الله ، واسعة . . فلم يختنق من أهلهم أحد لضيق المكان . وكانت سنابل القمح تزدهر ، وتؤتى غلتها . وكانت مناجمهم تخرج الفحم والحديد ، وكانت آلاتهم تعمل ليل نهار . وبدل أن تزيد الحضارة تقدماً ، والعمران انتصاراً ، تصهر المدافع ، وتصب القنابل .. كانت الحياة ضاحكة مستبشرة ، وهم وحدهم الكاشرون عن أنيابهم ، يبيّتون الموت للحياة .

ماذا أفادوا الآن ؟! إنهم هم أنفسهم يعيشون فى الظلام كالخفافيش . إنهم يخافون على حياتهم الرخيصة ، فيطفئون النور ليلا ، حتى لا تهاجمهم طائرات أعدائهم ، فى حين تفنى لهم على خط « سيجفريد » أرواح وأرواح ! . .

الناس يزعمون أن من مات على فراشه لايستحق العيش ، ولذلك قضوا على شبيبة بلادهم ورجالها بالفناء فى الفضاء ، ليموتوا بين المدافع والزوابع ، ليموتوا فى سبيل أطماع زعمائهم الحمق ، ويقضوا فى الوقت نفسه على بيوت كانت تعيش فى هناء ورخاء . . وكانت مثل بيوتنا تهتف لشمس الشتاء ، وتحيّى الضياء .

السعادة الغاربة

« إلى روح صديق « على برعى » الذى قضى
نحبه بعد هذه الكلمة بثلاث سنوات »

كانت سهرة عائلية أنيقة ، لاتتجاوز ، من نساء ورجال ، عشرة أصحاب . أما رب الدار فهو نموذج الرجل الوفى الكريم ، رأى الدنيا من أقصاها إلى أقصاها ، ولم يشعر بالسعادة الحقة ، حتى تزوج من تلك المصرية التى كانت فى باريس ، هذا الصيف (صيف ١٩٣٩) ، تلفت الأنظار بجمالها الشرقى العريق ، ووجاهتها ، واحتشامها . وكل أصحابهما على هذا المثال . لذلك سعدت النفس بالعيش ساعات فى ذلك الجو الحار ، الفياض بالمودة والذكاء ، والأحاديث الشجية ، والذكريات التى تحيى موات القلوب .

ما أقرب الهناء إلى الناس ، وهم يحرثون الأرض فى البحث عنه ! . . إنه هنا كما رأيته بالأمس ، فى مثل هذه الأسرة التى جمعها الحب . شخصان انسجمت منهما الروح ، فتعاونا على حسد الزمان ، وانتصرا على تفاهة الأيام ، وجعلا من التعب والعناء مرحاً ، ومن جهد الغربة مزاجاً ، ومن مشاق السفر مزاحاً ، ومن العودة إلى الأوطان حناناً . . .

اجتمعنا إلى المائدة ، البسيطة بساطة تشهى الشبعان فى الطعام . . وتذوقنا صحناً من الأرز المفلفل بالصنوبر ، طهاه صديقنا رب البيت بيده . فهو فى هذا يفوق طاهيه ! . . فقد عاش زمناً طويلا أعزب ، وعلمته العزوبة الطويلة الطهى الشهى ، وعلمته كيف يقدر بعد ذلك حياة العائلة ، فيحترمها ، ويدخل عليها فنوناً من المرح والمسرة ، هيهات أن يعرفها إلا من عاش عيشه ، وتعذب عذابه . فالهدى يصدر عن الحيرة ، كما تصدر اللذة عن الألم .

إنى أحب هذا البيت . ولا ترجع صداقتى لأهله إلى سنوات طويلة ، بل إلى شهور قليلة ، فقد تعرفنا فى باريس ، وباريس بين السلم والحرب . ورأينا معاً باريس فى النور ، ثم فى الظلام . ولكن نفوسنا المتلهفة إلى معين الصداقة الخالصة ، لم تكن بحاجة إلى دهر طويل . . كانت مستعدة . . كانت تبحث بعضها عن بعض . . كانت تتمنى مثل هذا اللقاء والإخاء .

الأمزجة واحدة . فلو أسست يوماً بيتاً لاقتبست من ذوقهما : كل هذه اللوحات تتحدث عن البحر ، ولا تتحدث عن شىء سواه . . حتى « الزهريات » الضخمة الفخمة قد رسمت عليها أمواج البحر وسفنه ! . لا أشخاص ، ولا حدائق ، ولا مناظر . . لا شىء إلا البحر ! فيالوحدة المزاج ، وانسجام الطبع ! . . فالبحر من أصدقائى أيضاً . . . رحت أدور حول البيت ، وأقف أمام كل لوحة : هذه مراكب فى ضوء القمر تسير فى سلام المساء . . وهذه « جندول » البندقية مسرح الحب والخيال تذكرنا بصاحب أغنيتها الخالدة « الملاح التائه » . . وهذه قوارب صيد تعبث بها الأمواج عبث الأطفال برمال « البلاج » . . وهذه مراكب نشرت قلوعها مع الهواء ، ورفعت رأسها كبرياء ، كأنها تسجل انتصارها على الماء . . وهذا بحر خضم هائج يحلو بعده الصفاء . . وهذا كوخ صغير تنضح جدرانه بالسعادة ، ويفوح منه شذى الهناء ، على شاطىء البحر . . فكأنما هو بيت « على » و « زينب » ، على شاطىء الحياة ! . .

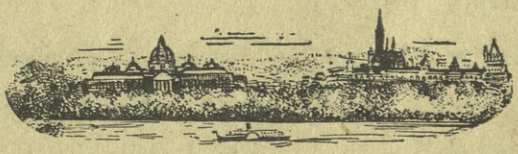

عود إلى التاريخ ...

عدت أمس إلى القرن السابع عشر ، أطالع الكتب القديمة ، وأسألها تفسيراً عن حياتنا الجديدة الحزينة ، فى وسط هذه المعامع والمعارك والنيران . فوجدت فى « السياسة مأخوذة عن الكتاب المقدس » صورة مروعة للعاهل الألمانى ، كأنها كتبت عنه ، بقلم « بوسويه » فى معرض حديثه عن « الطماع » منذ ثلاثمئة عام :

« ... إنه يزعم أن كل شىء له . فما لشعب أن يخرج من تحت جناحه . فإذا رفض نيره ثارت كبرياؤه . لا يتحدث عن المهاجمة ، لاعتقاده أن له الحق الشرعى فى كل شىء ، ولاعتقاده أنه الأقوى ، لا يرى فى نفسه المعتدى . ويسمى غزو بلاد الشعوب الحرة دفاعاً عن النفس !

« أما المحافظة على الحرية ضد أطماعه ، فهو يعدها تمرداً وخروجاً عليه ، فلا يذكر إلا الانتقام . . وليست الحروب التى يعلنها فتنشب على يده إلا عقاباً عادلا للمتمردين » .

« وهذا المفتون ليس بحاجة إلى استشارة . . وليست جماعة مستشاريه إلا صورة زائفة ، لتعلن بطريقة مشهودة ما اعتزم أن يضعه سلفاً موضع التنفيذ .

« وتعرف فى ملامحه الأخرى أنه لا يؤمن بالله ، ولا يحترم الناس . هذا هو خلق الطماع الغازى الظالم . وقد يفلح زمناً . ولكن الويل له ! . . لسوف تسومه أزمان ! . »

أى كاتب من كتاب اليوم يستطيع أن يصور الهر هتلر بأبلغ وأبدع من هذه الريشة ؟ !

وتوجد أحكام ، ليست دون هذا الحكم قسوة ، على مواطنى هتلر ، الذين يذهبون إلى الموت كما لو كانوا يقصدون المسرح . وليست العبرة فى هذه الأحكام أنها صادرة من إنجليز أو فرنسيين ، بل من ألمان أيضاً يشار إليهم

بالبنان ، مثل « هنرى هاينى » و « فردريك نيتشه » . فهاينى الكاتب الشاعر الرقيق لم يستطع أن يعيش ويموت إلا فى باريس ، لأن بلاده سممت ينابيع حياته . وقد صور شعبه فى أبشع صورة ، وتهكم عليه تهكماً مريراً : فى ملبسه ، وفى مشربه ومأكله ، وفى عاداته وتقاليده . واسمع إليه مثلا مما يقول عن ألمانيا والألمان :

« فى هذه البلاد يطلقون : « الذاكرة » على « الذكاء » . فهم يحفظون كل شىء عن ظهر قلب ، من ملوك روما إلى المناورات الحربية ، ومن الرسم إلى الألعاب الرياضية ! . ويأخذون هذا كله مأخذ الجد بطريقة واحدة لاتتغير ولا تتحزب ولا تقارن ، كما يأكلون قطعة من الأرنب أو يعزفون لحناً من الموسيقى »

ولم يكن هنرى هاينى مع ذلك شاعراً خيالياً يتيه فى بيداء الأحلام . . فقد كان أيضاً من أبعد سياسيي العالم نظراً ، عندما رأى فى عام ١٨٥٤ الجامعة الألمانية ، من أساتذة وطلبة ، تتجه إلى فرض حقوق للشعب الألمانى لاحد لها . فخشى هاينى مغبة هذا الطموح ، وهو يعرف شراهة مواطنيه ، فلم يتردد فى أن يعلن أن اليوم الذى تتسع فيه « بروسيا » ويعظم شأنها سيكون يوما أغبر : « سيكون حكم الشؤم والكذب والاعتداء » ! . .

ولم يكن نيتشه أشد اعتدالا من صاحبه . فهو أيضاً قد كتب : « إن الروح الألمانى هو عندى جو مرذول ، أستنشق فيه رائحة كريهة ، صادرة من كل قول ألمانى وحركة ألمانية . ولم يعرف الألمان قط كيف يجتازون امتحاناً عسيراً ، كامتحان القرن السابع عشر ، الذى اجتازه الفرنسيون ، فكان منهم « لارشفوكو » و « ديكارت » ، اللذان يمتازان باستقامة الفكر وصفاء الروح ، مئة مرة أكثر من طلائع المفكرين الألمان » . .

كان نيتشه ، صاحب هذا القول ، فناناً جريئاً ، لاتقف جرأته فى القول عند حد ، ماذا تراه كان يحدث لو وجد فى عهد النازية الهتلرية ؟ ! . هو الذى كان أيضاً ، فوق هذا كله ، يحب يهودية فنلندية حسناء ! .

القس الطيار

ذهب ولم يعد !

كلمة جاءت فى برقية بإحدى الصحف الفرنسية التى يحملها البريد فنقرأها صلة ورحمة . . أثرت فى نفسى كثيراً ، وأعادت إلى ذهنى الساعات الأولى من هذه الحرب المنحوسة ، التى أشعل نارها رجل منحوس ، جاء على الدنيا نقمة .

وخلاصة البرقية : أن « برنار جوفروى » الذى كان والده من قواد الجيش ، قد درس الطيران ، وصار ملازماً طياراً ، ثم دخل الدير ، وأرسلته هيئة الآباء الدومينيكيين إلى روما ، حيث أتم دراسات عالية ، وعين أستاذاً فى جامعة روما . فلما نشبت الحرب عاد إلى وطنه ، والتحق بفرقته كضابط طيار . ونظراً لثقافته الواسعة عرضت عليه الحكومة وظيفة كبيرة فى السلك السياسى ، فرفض ، وآثر ساحة القتال . وفى ٣٥ نوفمبر الماضى جاء الدور على ضابط له ثلاثة أولاد للقيام بمهمة استكشافية خطيرة ، فتطوع الأب « برنار جوفروى » للقيام بها بدلا منه . فسمح له بذلك . فذهب . . ولكنه لم يعد ! . . .

هذا ما قرأته ، وتأثرت به ، لما فيه من نبالة وتضحية . . وتأثرت به أيضاً إذ تذكرت يوماً من أيام سبتمبر الماضى ، بعد إعلان الحرب ، إذ كنت قد ذهبت أستأذن البوليس فى إرسال برقية إلى مصر ، قبيل عودتى ، وحان موعد الغداء ، قرب محطة « سان لازار » . فدخلت مطعماً قريباً من تلك المحطة ، التى كانت تعج بالضباط ، والجنود ، والعاملات المسرعات إلى الضواحى ، وباعة الصحف تتخاطف الأيدى صحفهم . . فوجدت المطعم شديد الازدحام ، وهناك مائدة صغيرة زهد فيها الناس لتعرضها لمدخل المطعم ولفح الهواء ، فاخترتها مستقلا بها . وكان إلى جانبى قسيس فى نحو الأربعين مرتدياً مسوحه السوداء ،

ولكن تزين صدره أجنحة صغيرة بيضاء ، هى رمز الطيارين الحربيين . فلفت ذلك نظرى . وتأملته . فإذا به رجل وسيم ، يأكل بهدوء وأناة وتأمل ، وفى شبه وجوم وإشراق معا . فقد كنا جميعاً فى مأتم الإنسانسية . وكنت أفكر فى رجل الدين هذا والأجنحة التى يحملها على صدره رمز النضال الدنيوى . فهو لم يسلم من المعركة ، ولم يتهرب تحت ثوبه الأسود من واجبه القومى . بل عاش فى وقت السلم مترفعاً عن ملذاته ، فلما أعلنت الحرب جاء يخوض غمارها ، ويلقى أخطارها ، ويصطلى بنارها . . .

ولقد هممت بأن أحدثه . . ولكنى ذكرت أننى أجنبى ، وفى حالة الحرب . . فترفعت عن مواطن الشبهات . .

ذهب ولم يعد ! . . .

من يدرى ؟ ! . . ربما كان رفيق الطعام يومئذ هو ذلك الشهم الجرىء ، الذى نزل عن الحياة راضياً ، من أجل والد ثلاثة أطفال . . وذهب إلى الموت . . ولم يعد . .

فسلام على تلك الأجنحة البيضاء ، تزين تلك المسوح السوداء . . يالها من رمز جميل على أن حب الوطن من الإيمان ! .

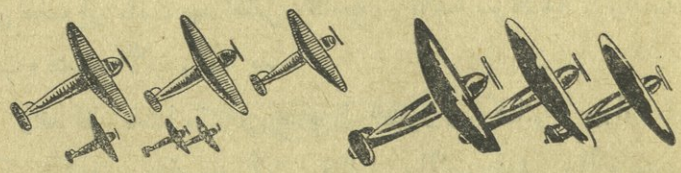

رسالة المرأة

ربما زعم كثيرون منا ، نحن البعيدين كل البعد عن الحرب ، نحن الذين نتتبع النضال فى البر والبحر والجو ، باهتمام شديد ، ربما زعمنا أن الحرب هى حصون ومدافع ، وهى بوارج وغواصات ، وهى مناطيد وطيارات .

إن الحرب تختلف ، فى جوهرها ، عن ذلك كثيراً . فليس عدد القنابل والمدافع والطوربيدات والطيارات هو الذى ينتصر وحده . إنها الروح المعنوية الرابضة بعيداً عن الصفوف ، فى المؤخرة ، فى المدن الآمنة ، هى التى تدير أيضاً دفة الحرب ، وتساهم إلى حد بعيد فى النصر .

وهذه الروح المعنوية تعتمد ، إلى حد كبير ، على المرأة . فرسالة المرأة وقت الحرب لاتقل شأناً وجلالا عنها فى وقت السلم . بل لعلها أجل خطراً . فهى تكمل عمل الرجل ولا تنافسه ، وهى تسهر على ما يعوزه وينقصه . ولما كانت الحرب هى الشر ، فإن المرأة هى نقطة الخير فيها .

فالرجل يحول بلاده الواسعة الجميلة إلى معسكر هائل ، يجند فيه الأمة كلها ، لايرحم الطفولة ، ولا يرعى الشيخوخة . ولكن المرأة هى الملاك الحارس لهذا المعسكر ، فهى تقف فى المستشفى : تعالج ، وتضمد الجروح ، وتطبب ، وتشفى .. وهى تقف إلى جانب مهد الطفل : تناجيه ، وتناغيه ، وتلاعبه ، وتنسيه غياب الأب ، فتصبح الأب والأم معاً .

ولقد نظر عامتنا من زمن قديم إلى الطيور فى وكناتها ، ورأوا ما يصنعه الذكر بفراخه ، وما تصنعه الأنثى ، فقالوا : « الأب يطفش ، والأم تعشش » .. وهو مثل عظيم جداً فى تمجيد رسالة المرأة ، فهى فى وسط الحرب تفكر فى السلم . إنها هى التى تدعم نفسية المقاتلين المجاهدين . إنها ، فى رسالتها هذه ، أنفع

وأقوى من خط ماچينو . أىّ جندى ، أى بحار ، أى طيار ، يتلقى من زوجه رسالة يائسة ، رسالة حزن وبكاء ، وألم وقنوط ، ويستطيع أن يطلق النار بحذق على الهدف . . أو يستطيع أن يرى جلياً ، فى البحر ، فى ظلمة الليل ، شبح أعدائه الخائنين ، يخرجون من قلب المحيط الهائل . . أو يستطيع أن يدير محرك طائرته ببراعة ، واطمئنان ، وثقة ، ويحلق فوق أرض العدو ، ويستكشف ، ويصور ، ويدون ، ويعود سالماً غانماً ؟ !

إن رسالة المرأة نبيلة جداً ، وراء هذه الخطوط المخضبة بالدم ، الملتهبة بالنار . إنها تبعث بسطور قليلة حرارة الحياة وحب الأوطان . إنها تلطف الويلات ، وتحول الخطر الداهم إلى نزهة ، وترفع من شأن المثل الأعلى فى فؤاد الرجل ، فيعرف ما يهدد بلاده ، ما يهدد زوجه وولده ، إذا لم ينتصر . . .

تقول الكاتبة الفرنسية الشهيرة « مارسيل أوكلير » : « إن الرجل الفرنسى هو أشد رجال العالم تأثراً بالمرأة » .

وهذه أعلى درجات الإطراء ، فإن الرجال الذين لايحسون برسالة المرأة ، فى السلم وفى الحرب ، ليسوا أحياء . . إنهم أنصاف موتى ، إن المرأة العاقلة توحى بالعقل إلى الرجال ، والمرأة الشجاعة تجعل الرجال يستهترون بالموت .

هيهات أن تنتصر أمة ليس وراء مدافعها ، وحصونها ، وبوارجها ، وطياراتها ، نساء عاقلات ، ونساء جريئات ! . .

روح الشرق

تجتاز الإنسانية الآن محنة من أشد المحن التى عرفتها ، لأن الذكاء البشرى قد وجه لإهلاك البشرية ، ولأن المخلوق الضعيف ، الذى يسمى ابن آدم ، قد طغى ، وأراد أن يبلغ أسباب السماوات ، وأن يشارك الحيتان فى المحيطات ، وأن يزاحم ، فى نفث السموم ، الثعابين والحيات ، وأن يبذل ما آتاه الله من قدرة على شفاء المريض ، فى إطلاق سحب كثيفة من الغاز ، فتصيب بالعمى والعذاب ألوف الألوف من زهرة الشباب . . .

وقفت الدنيا ، فى هذين اليومين ، حبيسة الأنفاس ، واجفة القلب ، تشهد مصرع بنيها ، ونضال الخلاصة الباهرة التى تتصدر الحضارة وتوجهها .

ووقف شعبنا المصرى ، قلباً وقالباً ، مع قضية الديمقراطية ، لأنها قضية الحرية ، فإننا نعرف أى مصير كئيب ينتظر الأمم الصغيرة ، إذا ساد الطغيان ، وانتصر الحكم غير الديمقراطى ، وفازت دول تبحث عن التوسع الحيوى لبنيها ، وهى فى الوقت نفسه تحتقر الشعوب الشرقية ، وتراها خلقت لتقدم أرزاقها وأموالها ورجالها وقوت عيالها للشعوب « المختارة » ! . . .

أجل ، كان شعبنا رابط الجأش ، ينظر بثقة وإيمان إلى المستقبل ، لم ترعه تلك الحوادث الجسام التى يلعب فيها القدر بمصير الشعوب . ولم تهزه تلك الغارة البشعة التى التهمت بلاداً هى أرقى بلاد أوربا ، بين عشية وضحاها . ولم تخفه البوارج والغواصات والطيارات التى يقرأ تفاصيل التحامها وأنباء انفجارها وضياعها . . بل نظر بثقة إلى المستقبل ، عالماً أن الحرب سجال ، يوم لك ويوم عليك ، وأن الذى يزعم أن الحرب من البساطة كلعب الورق ، لايعرف ما هو الويل وما هو الشر .

ولم يكن إيمان شعبنا راجعاً إلى الخفة أو الاستهتار وعدم تقدير الأشياء ووزن الأمور . فهو يعلم تماماً خطورة الموقف . ويدرك أن مصيره مرتبط بمصير حلفائه . ويفهم أن كفته وكفتهم هى الراجحة ، مهما يتلبد الجو بالغيوم .

إن عظة الحرب تنفع هذه البلاد ولا تضرها . إنها ستجعلنا أقوياء بجيشنا ورباطة جأشنا وروحنا المعنوية الممتازة ، ستجعلنا متحكمين فى مصيرنا ، مسئولين عن كياننا . . وتجعل حليفتنا ، بريطانيا العظمى ، ترى إلى أى حد بلغ وقوفنا معها فى كفاحها ، مختارين لامكرهين . ولولا ذلك لسيطرت على الماديات ، ولما استطاعت إلى الروحيات سبيلا . . فى حين أننا فى هذه المحنة نقف بشجاعة واطمئنان وإيمان ، لأن الله لن يخذل قضية الحرية ، ولن يسلط على الأرض ومن عليها رجلا واحداً ، طاغية ، يريد أن يخضعه لإرادته ! . . .

أسبوع الآلام

يحتفل إخواننا المسيحيون « بأسبوع الآلام » ، وهو الأسبوع الذى يعد مرحلة حاسمة فى تاريخ حياة البشرية ، إذ عذب فيه السيد المسيح عذاباً أليما فى سبيل أداء رسالة عليا ، هى : رسالة السلام والتضحية .

فبعدما دخل أورشليم يوم الأحد ، من أول ذلك الأسبوع ، دخول الظافرين ، ينثر المخلصون فى طريقه الزهور ، ويفرشونه بسعف النخيل ، الذى رأيناه أمس فى أيدى الأوانس التقيات ، رمزاً لهذه الذكرى المجيدة . . وبعد أن خطب خطبته المشهورة التى قال فيها : « يا أورشليم . . يا أورشليم . . يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين ! . » . . . ثم ذكر سامعيه بأنه يريد أن يجمعهم كما تجمع الدجاجة صغارها تحت جناحها . . . بعد هذا كله لم يكن أحد يتصور أن الخيانة قريبة ، وأن « خميس العهد » غير بعيد ، وأن أقرب المقربين إلى السيد المسيح هو الذى سرعان ماطعنه من الخلف . أو كما قال عليه السلام : « قبل صياح الديك . . . » ! . .

رايت أمس هؤلاء الأوانس التقيات يحملن سعف النخيل ، وبأيديهن الشموع ، قد خشين عليها نفحة النسيم . . رأيتهن يصلين مبتهلات إلى الله ، فى ذل وخشوع ، أن يملأ أيامهن بنفحة السعادة والسلام .

وإلى الجانب الآخر من الأرض ، تدوى المدافع ، فتدك البيوت الآمنة ، وتشرد النساء والأطفال . وتتركهم بلا أزواج ولا آباء ، وتحرمهم كل ماكانوا يتمتعون به من طمأنينة وصفاء .

هؤلاء المتحاربون يكادون يكونون جميعاً من أتباع السيد المسيح . . . فهل ذكروا الآن أسبوع آلامه ؟ . . هل ذكروا ماذا أصاب الغالم ، من

الخارجين على رسالته المتمردين على دعوته ، الناكرين تعاليمه وتضحيته ؟ ! . .

إن أوربا المسيحية قد استأثرت بلبها المادة ، وسُلط عليها من أهلها طغاة مستبدون ، بلا قلوب ولا شعور . . نسوا رسالة المسيح ، وأوقعوا العالم كله ، فى أسبوع الآلام ، فى آلام . . نعرف كيف بدأت ، ولانعرف كيف تنتهى . .

فلعل الله يتقبل دعاء الأوانس الطاهرات ، فى هذه البقعة الطاهرة من الأرض ، على ضفاف النيل ، فيمسح بيده العلوية دموع البشرية ، ويضمد جروح الإنسانية ، ويعيد السلام إلى الأرض ! . . .

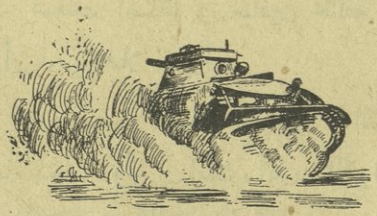

نبوءات

لم يعد القانون الدولى إلا ورقة صفراء تذروها الرياح . . . فإن رجلا طاغياً قد حكم على الشعوب المسالمة ، التى يضمن هذا القانون حيادها ، بأن تحارب مع حكومة النازى ، أو تصبح ضحية لها .

يقولون : إن الناس من خوف الفقر فى فقر . وهو ما ينطبق على تلك الشعوب الصغيرة ، التى غالت أشد المغالاة فى الاحتفاظ بحيادها ، فكانت النتيجة أنها أول من التهبت بالحرب ، واشتعلت بنارها . فإن ما أصاب هولندا وبلچيكا ولوكسمبرج ، لم يصب قرية فى انجلترا أو فرنسا نفسها .

وليس يجهل هتلر ضعف تلك البلاد المحايدة فى استعدادها ، لأنها كانت كلها تعمل للسلم ، فى الوقت الذى تعمل فيه ألمانيا للحرب . ولو أن هذه الشعوب القليلة العدد والعدة قد انضمت من اليوم الأول للحلفاء ، وانتصرت بشجاعة لقضية الديمقراطية ، لشغلت ألمانيا فى ميادين مختلفة فى وقت واحد ، ولاستطاعت كثرتها أن تعمل عملا خطيراً .

وليس يخفى أن شعور شعب كالشعب البلچيكى ، الذى لقى الويلات من الألمان ، هو مع الحلفاء طبعاً . . ولو أن الملك « ألبرت الأول » ، كان حياً ، لما تردد يوماً واحداً فى أن يقف فى الحال مع الجبهة الديمقراطية ، وهاهوذا خليفته يقود اليوم جيشه ، ويسير على رأسه ، بالرجولة التى عرفت عن والده .

وما أصدق ما قالته فى هذا المعنى ، فى الشهر الماضى ، جريدة « تلغراف » الهولندية :

« إن البلدان المحايدة ، بعد أن تجردت ، إلى أقصى ما فى وسعها ، من سلاحها ، قد ظلت تتفرج ، فى موقف سلبى ، على الحرب الروسية الفنلندية ،

وأرادت بذلك أن تقاوم بأى ثمن دخولها الحرب ، ولهذا السبب عينه أصبحت فى أتون الحرب من رأسها إلى قدمها » .

إن الشعب البلچيكى الباسل لم يكن فى الحرب الماضية مستعداً للقتال ، بل أخذ على غرة . . ومع ذلك وقف فى وجه الطغاة الألمان ، بكل شهامة ، وعطل غزوتهم الهائلة على باريس . وهو اليوم ، وقد عاش ثمانية أشهر كاملة ، فى منطقة الخطر ، فى منطقة النار والدم والموت ، سيعرف كيف يدافع ببسالة عن عرينه ، مهما يصبه من ويلات . . . فهو يعرف أيضاً أن هتلر قد أدرك أن كل يوم يمضى عليه يزيده ضعفاً ويزيد الحلفاء قوة ، فأسرع كالرجل الذى بيده مسدس وأصابه مس ، يطلقه على كل من يلقاه فى الطريق . . .

إن القوة وحدها هى التى سترد إليه صوابه ، فيدرك إلى أى حد قد أضاع بلاده ، بعد أن خرب نصف الأرض . . .

[الأهرام : ١١ مايو ١٩٤٠]

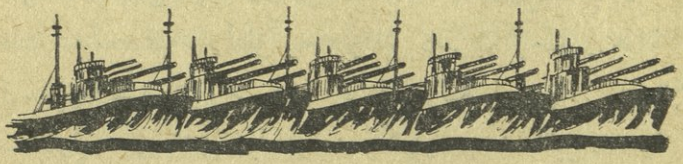

شريد

كانت الظلمات تتكاثف ، كالهموم التى تتوالى . . وكان وحيداً . . كان فى تلك الليلة بلا صديق ، ولا رفيق . . فدخل مطعماً . . فإذا بالأوراق الزرقاء تخنق المصابيح ، وتكتم أنفاس النور . . . والموائد والمقاعد خالية ، تتحدث فيما بينها عن ضيق صدر البشر بمظاهر الخوف والخطر . ولم يكن هناك إلا اثنان يستعينان على الطعام بالشراب ، ويستعينان على الشراب بالطعام .

فبدا له الطعام بلا طعم . فشرب كأساً واحدة . . . أراد أن يغرق فيها أحزانه ، فإذا بها تخرج له أشباحاً عدوة وأشباحاً صديقة . . . فراح يجمع بين من أحبوه ومن كرهوه ، على صفحة الطعام . . واتسع صدره ، فى ذلك الضيق الشامل ، للحب والكره معاً . والتمس المعاذير لمن أحبوه ثم كرهوه ، ولمن كرهوه ثم أحبوه ، ورآهم جميعاً على حق ! ! ! . . . وتساووا عنده ، فى تلك الساعة ، كما تستوى الأشباح فى الظلام . . .

إنه الآن بلا بيت ، ولا حب ، ولا رجاء . . إنه يعيش لنفسه كل يوم ، ليموت كل يوم . قد يضحك ويلعب ، ويدعو ويدعى ، ويمزح ويمرح ، ولكن بغير قلب . . إن قلبه خفق بحب شخص واحد ، هو أقدس شخص للإنسان وأصدقه حباً ، وهذا الشخص لم يعد الآن من هذا العالم . إنه كان يحبه حباً لا آخر له ، فلما مات عنه مات قلبه ، وأغلق بيته ، وعاش كالعرب الرحّل فى خيمة : يوماً بشرق ، ويوماً بغرب . . وهى عيشة حزينة ، ولكنها جريئة . . إن الوحدة تتطلب الجرأة ، حتى يقابل بها المرء ضجر النهار ووحشة الليل . . . والرحيل يتطلب الجرأة ، حتى يقابل بها المرء رزق النهار وسمر الليل . .

إن من عاش بهذا الحب العظيم لم يعد يرضى « بالدلع » والتفاهة . ومن كان له بيت مثل بيته ، كله نور ، وكله حبور ، لم تعد تخيفه ظلمات الطريق ، أو يزعجه الحرمان من الرفيق ! . .

التاريخ يعيد نفسه

مئة ألف شاب هولندى ، راحوا ضحية الهر هتلر ، فى ثلاثة أيام . . ماذا يمكن أن يصيب هذا الرجل من الويلات إذا تقبل الله دعاء أم واحدة من أمهات هؤلاء المئة ألف شاب ؟ ! . . هل يمكن أن يكون الله قد تخلى عن هذا العالم ، وتركه هكذا للويل والفناء ؟ !

ومع ذلك لايجوز للذين يؤمنون بالحرية أن يقنطوا من رحمة الله . فقد مرت بأوربا أيام أشد سواداً من هذه التى تجتازها الآن . وينصح « أندرى موروا » ، الكاتب الرقيق ، مواطنيه بالنظر فى ما كتبه « موريس بارس » عن الحرب الماضية فى مقالاته . فهو قد فعل يوماً بعد يوم ، فى أشد الأيام محنة ، المعجزات ، التى لايستطيع أن يؤديها غير رجل الأدب ورجل الصحافة ، إذا اجتمعا فى كاتب واحد . لأنه يستحيل على الصحفى ، مهما يكن قديراً ، أن يحلق إلى مايصل إليه الصحفى عند ما يكون رجل أدب . إنه كفيل بأن يرفع الروح المعنوية لبلاده ، من حيث لا تشعر بأنه يدعو بدعاية معينة . إنه فى الوقت الذى يزداد فيه دعاة التردد والهزيمة ، دعاة الضعف والانحلال ، يبرز بقوة وجلاء ، ويجمع الصفوف ، ويوحد الهيئات ، ويضاعف الآمال . إنه يصبح أحد أعمدة الثقة والظفر . . فأى دور يمكن أن يعد أبدع وأروع من دور الأديب الصحفى فى أوقات المحن والتجارب ؟ !

ماذا كان يقول المتشائمون فى عام ١٩١٥ ؟ ! كانوا يصيحون بأن : « ألمانيا تحتل عشر مديريات فى فرنسا . . والروس يتقهقرون ، ولم يعد لهم جيش ، ويستسلمون بالملايين . . والبلدان البلقانية تموت خوفاً ورعباً ، فهى أقرب إلى صفوف الأعداء منها إلى صفوف الحلفاء ، فتنضم فعلا إلى الأولين . . وخريطة

الحرب تعلن انكسار فرنسا وانجلترا ، ولاشك . . . » .

أما الأديب الصحفى « موريس بارس » فقد رد على ذلك منذ ربع قرن ، فقال : « إن الألمان يتظاهرون بوضع معاهدة الصلح وفاق شهواتهم ومطامعهم على خريطة العالم . بيد أن معاهدة الصلح لن تتم إلا وفقا لإرادة الجانب الذى يكسر ويهزم قوى خصمه فى النهاية . وإذا كان الجيش الألمانى يحتل صربيا ، ويتصل بالقسطنطينية ، فهذا لا يدل على أنه يملك آسيا . فالعبرة بالنتيجة ، والفوز لمن يحفظ التوازن فى قواه حتى اللحظة الأخيرة » .

فهل كان « بارس » يومئذ متفائلا ؟ ! . أجل . . ولكنه التفاؤل الحكيم الذى برره الزمن ، لأن ألمانيا ، رغم ظفرها وانتصارها الباهر ، فى الفترة الأولى ، قد خسرت الحرب ، وأذعنت لإرادة الحلفاء فى طلب الصلح . .

وما ينبغى أن تبذله أمة فى الخارج يجب أن تبذل مثله فى الداخل ، فتشد أزر شعبها بكافة الوسائل ، وتقوى روحه المعنوية ، يوماً فيوما ، ولا تضع فى رأسه إلا فكرة السير بالحرب إلى غايتها المعقولة ، والمحتومة ، وهى فوز الحرية .

والمحايدون الذين دفعوا أمس ثمناً غالياً لخوفهم وترددهم ، هم عبرة لمن اعتبر ، فقد آثروا التفرج على « غزوة العالم » ، فصاروا أول ضحايا هذه الغزوة ، وكانوا وقود النار . . .

[الأهرام : ١٧ مايو ١٩٤٠]

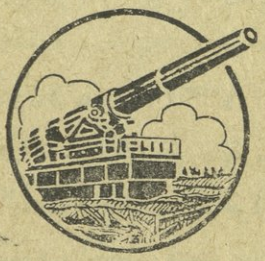

المرأة فى الشرق

يكاد قلب الرجل الجبار ينفطر ، عند ما يسمع بعصابة إفساد أخلاق الغلمان ، التى رددت أمرها الصحف ، وأجمعت على بشاعة ما وقع .

وهذا الشر الوبيل ، المتخلف لنا من أقدم الأجيال ، ينتشر فى البيئات الشرقية ، المحرومة من وجود نصفها الأفضل .

انظر إلى أى مجتمع عام ، تجد الأوربى مع زوجه وأولاده ، وتجدنا قد ملأنا المكان رجالا فى رجال !

بل انظر إلى أى رجل يسير مع سيدة ، قد تكون زوجته ، أو خطيبته ، أو شقيقته ، أو حتى حبيبته ، تجد العامل يترك عمله ، والتاجر تجارته ، والذى يقرأ الجريدة يدعها ، والذى فى سيارة يطل منها ، وجميع الذين فى الترام يلتفتون خلفهم . والخلاصة : أن أى رجل مع امرأة فى الشارع ، أو فى السيارة ، هو محل الشك ، والريبة ، والاتهام ، وموضع الغرابة ، بل أهم أسباب القيل والقال ! . .

نجد رجلا يجالس غلاماً فى حانة ، ويشاربه الخمر ، فلا يلفت ذلك النظر . ونجد شباناً يطوق بعضهم خواصر بعض فى الطرقات ، فلا غضاضة . ونسمع بعصابات الإفساد ، فلا نحرك ساكناً ، وكأن السطو على عرض غلام كسرقة حلة أو طست غسيل !

إننا نبعد المرأة عن المجتمع ، بحجة إفساد أخلاق هذا المجتمع ، فنتنظر صلاحه ، فى حين أن السر فى فساده هو ابتعاد المرأة عنه ، وغيابها منه .

إن التشكك هو أول علامات النفس المريضة ، الضعيفة ، الجاهلة .

فى أول عهدى بأوربا كنت لا أتصور كل ما لقيت فيها من أخلاق ، كنت أزعم ما يزعمه أولئك الذين يشتمون الآن أوربا ، ويظنونها بغير فضيلة ،

لأن أوربا عندهم محصورة فى بعض الساقطات ، أو الكابريهات .

ومع ذلك ففى عام ١٩٢٨ كان شاب شرقى يدرس العلوم الاجتماعية ، فى باريس . فإذا جاءت الساعة التاسعة مساء ، طرقت باب غرفته ـ غرفة صغيرة فقيرة ، غرفة طالب أجنبى فى الحى اللاتينى ـ فتاة فرنسية وسيمة ، هى اليوم من محاميات باريس المعروفات . فيتبادلان المذكرات ، تأخذ ما أخذه من علوم اجتماعية ، وتعطيه ما أخذت من علوم سياسية ، ثم تفهمه ما يعسر عليه فهمه . . وبعد ساعتين تخرج ، وقد يكون المطر هاطلا ، وحقيبة كتبها تحت إبطها ، وتروح إلى بيتها . .

وكان الفتى الشرقى ، فى كل مرة ، ولو تحت المطر ، وفى شدة الصقيع ، يفتح نافذته ، ويشيعها من الشرفة بنظرة أخيرة ، حائراً من كل هذه الفضيلة ، وهذه النبالة ، وهذه الكرامة ، وهذه الشجاعة . . . متسائلا : هل كان يزعم ، وهو فى مصر ، أن فتاة جميلة عذراء تخرج من غرفة شاب أجنبى ، فى فندق طلاب بالحى اللاتينى ، نحو منتصف الليل ، ولا يتهمها الشرقيون بالسوء ؟

إن سوء الظن ، وسوء القصد ، يبعد المرأة عن المجتمع ، فيظل المجتمع كله دون المستوى الذى نتمناه له .

لا تذكروا الربيع ! . .

كان ذلك فى الفصل الذى يزدهر فيه الربيع ، ويشرق فيه الشباب ، فى الحى اللاتينى ، قرب حديقة اللكسمبورج ، عند ما التقى ذلك الشاب الشرقى بصديقته البولونية ، التى جاءت باريس فى طلب الفن الجميل . . فتصافحا . . فجاءت إليهما تجرى صبية يانعة ، وقدمت إليهما « زهور الموجيه » ، قائلة : إنها « البشيرة بالهناءة » ! . . فاشترى لها طاقة صغيرة ، فأخذت منها عوداً وضعته فى عروة صدره ، ووضعت الطاقة قرب قلبها ، وهى مشفقة عليها من « الدبوس » الصغير الذى ربطها بثوبها الأنيق . . وتساءلت : كيف تقسو فتجرح الزهر ، وتشك بهذه الإبرة عود الأقحوان ؟ وقالت : « ما أغلظ قلب الإنسان ! » .

لقد تذكر الآن ، بعد عشر سنوات ، هذا الإشفاق على الزهر ، من تلك الآنسة البولونية ، التى كان أبوها أستاذاً للحقوق بجامعة « لوڤوف » ، وكان أخوها يدرس الطيران فى باريس ، وكانت أختها تحضر الأدب فى السوربون .

أين هى الآن ؟! . . لقد مر ربيع ، وربيع ، وربيع . . . وجاء على بولونيا عام لم يزهر فيه بأرضها ورد ، ولم يشرق شباب . . بل تخضبت تربتها بالدماء ، وضاع مليون من زهرة شبابها ، وتهدمت مدنها ، واجتيحت « لوڤوف » ، ولم يبق فيها حجر على حجر .

أين هى الآن صديقة الحى اللاتينى ، وزميلة الفن الجميل ، وحارسة الوداد ؟! هل هى حية ترزق ؟ ومن أين ترزق ؟ وأبوها ، وأخوها ، وأختها ؟ . . أين تلك الأسرة الكريمة ، التى هى رمز ألوف الأسر البولونية ، والفنلندية ، والنرويجية ، والهولندية ، والبلجيكية ، التى كانت بالأمس فى هناء شامل ، فتشردت ، وأصبحت بلا بيوت ، ولا مال ، ولا أمل ، ولا وطن . . .

كان الجو فى القاهرة أمس جو الربيع . كان الجو صافياً ، والهواء منعشاً . كان كل ما حولنا يدعو إلى الرضا والتفاؤل . غير أن هناك بعض الناس لايحسون لهذا الجو صفاء ، ولا لهذا الربيع سناء . إن قلوبهم منقبضة بالذكرى . إن الربيع حرام عليهم والإنسانية فى هذه الويلات .

لقد أنسى هذا الربيع الناس الذين يحبون السلم خطر الحرب . فانصرفوا يزرعون « زهرة الموجيه » البشيرة بالهناء ، ويتعهدون الفن الجميل ، بينا كان أعداؤهم يزرعون الرصاص ، ويصنعون الفولاذ ! . . .

دعوا الربيع يجىء ويذهب . . ولا تذكروه ! . . انسوا نسيمه العليل ، وزهوره الفواحة . . واستيقظوا على صوت المدافع التى تدوّى ، والدبابات التى تزحف . وأزيز الطائرات . . فهنا ، وهناك ، وفى كل مكان ، دماء وأشلاء . هى التى أصبحت زهور هذه الأيام ، وربيع هذا الزمان ! . .

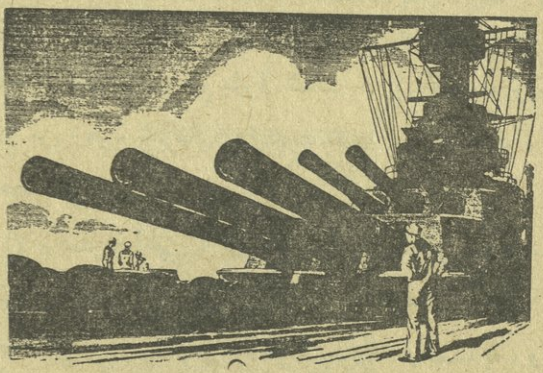

وداع باريس

كان ذلك قبل مغادرته باريس بيوم واحد . كان يسير فى شارع « موزار » الأرستقراطى الهادىء ، بعد ما ترك محطة « جاسمان » . وسأل عن سيدة كريمة حرم صديق عزيز ، إذ كان يخشى عليها البقاء ، ويرجو أن تعود معه إلى الأوطان . لم يجدها فى ذلك اليوم أيضاً . فسار كئيباً . وكان كل ما حوله أعصاباً متوترة ، ونفوساً ثائرة . كانت الحرب قد شبت . كان الموت قد ألقى ظله الأسود البشع على أوربا ، فأصبحت أوربا أشد ظلاماً من الفيافى المقفرة ، التى كان يقطع طرقها المتوحشون بالسهام والنبال . . .

وخرج ، فجأة ، من حانوت ، كلب كأنه مسعور ، وأمسك بأقرب شخص إليه ، سيدة ذات ثوب زاه أنيق ، فترك آثاراً فى ثوبها . . وخرجت صاحبة الكلب تستدعى كلبها ، وتنهره ، وتعنفه . .

وكانت السيدة غاضبة من أجل ثوبها ، ساخطة . فراحت صاحبة الكلب تعتذر لها بأنها كانت ساهية تفكر فى أولادها الثلاثة الذين سافروا جميعاً — وهم بين الخامسة والعشرين والثلاثين — إلى الميدان . وكان هذا يكفى عذراً . فنسيت صاحبة الثوب ثوبها ، وراحت تشجع تلك الأم التى وهبت الوطن أبناءها . . .

ومضى صاحبنا الشرقى يسير ساهماً مفكراً . . يفكر فى أهله ، وفى وطنه ، وفى هؤلاء الناس الذين اتخذ منهم أهلا ، وفى هذه الأرض الطيبة التى اختارها ، إلى حين ، وطناً . . .

ورأى مكتبة فى شارع موزار نفسه ، وهو طويل لا ينتهى ، فدخلها . . أراد أن يتزود قبل الرحيل من رحيق هذا الروح الفرنسى ، القوى ، الذى لن

يموت أبداً . . فماذا رأى ؟ . إنه طلب ، دون أن ينظر إلى غير صاحبة المكتبة ، كتاب « سلطات مطلقة » لجان چيرودو . . فسمع صوتاً ، كأنه لرقته ليس من أصوات البشر ، يقول : « إذن ما زلت مخلصاً لچيرودو » ! . . فالتفت ، فرآها . . هذه هي الصديقة التي عرفها خريجة العلوم السياسية ، وسكرتيرة تحرير جريدة اقتصادية كبرى . وكان يدهشه أن صاحبة هذا الجمال كله قد درست هذه العلوم كلها ، وتولت بعد ذلك في الحياة العملية تطبيقها . . فتحدثا هنيهة ، وزاد ألمه .

لم يفرح بهذا اللقاء الأخير العارض ، لأنه جاء بمثابة طاقة الزهر التي يقدمها الحبيب إلى حبيبه ، عند سفر طويل ، وبعاد غير جميل ، فتذبل ، على يديه ، طوال الطريق . . .

وسألها : هل تغادر باريس إلى بيتها الصيفي ، كما كانت ترجو ؟ فقالت : « كلا » ! . إنها الآن ، وقد أعلنت الحرب ، باقية في قلب العاصمة . إن واجبها هنا . ولن تتحول عن أداء واجبها نحو الذين في الميدان . . وسيعود منهم جرحى ، هم في حاجة إلى يد تضمد جراحهم ، وابتسامة تروّح عن نفوسهم .

ليست الباريسية بالفتاة الطائشة . إنها أول امرأة في العالم تعرف الواجب وتقدر التضحية ، إن وطنيتها الصادقة تعمل أكثر مما تتكلم . . إنها تعيش ملء حياتها ، ولكنها تجعل هذه الحياة ، بصدق العاطفة ، وسمو الشعور ، وإدراك الواجب ، أنبل ما تكون عليه حياة . . .

وودعها ، وودعته . . وتواصيا بالصبر ، وتعللا باللقاء والنصر . وقد عاد اليوم فرآها ، بعين خياله ، تبسم من خلال الدموع ، بعد غارات الألمان الجوية الوحشية . وسمعها تقول : « ويل للألمان ! إن لهم يوماً تشيب له الولدان » ! .

عرائس البادية

وقفت ببيت « مختار » (٣٠ شارع أسيوط ، مصر الجديدة) ، الذى زرته فيه قبل نقله إلى المستشفى الذى انتقل منه إلى العالم الثانى ، فذكرت ، إذ رأيته ، عجبى كيف يبقى هذا الأسد طريح الفراش ؟! دخلت عليه يوماً فوجدته يقرأ فى كتاب « باريسى » الذى ساهم فى تحريره ، وكأنه نسى مرضه وعذابه ، لأنه وجد فى الحديث شبابه ! . . ولمعت عيناه بمبعة الصبا وعزة الفتوة ، وكأن كل الحب الذى أسعده يوماً ما قد عاد فملأ قلبه ، وأجرى الدم فى عروقه ، وكأنى أرى فى عينيه أنه الآن يجرى ، ويقفز ، وينتظر ، ويلتى ، ويهنأ بالحبيب !

كان أمامى طريح الفراش ، ولكن الدنيا كانت ترقص فى عينيه ، وترقص أحياناً رقصة الهنود الحمر المتوحشين حول النار ، وترقص أحياناً مثل « بافلوفا » أو « إيزادورا دنكان » ، رقصة النسيم الذى نحس به دون أن نراه ! . .

كانت روحه التى أحيت فن النحت ، ووصلت مصر الحاضرة بمصر الغابرة ، كانت الشعلة التى أنارت ظلمات عشرين قرناً ، وسترت خمود ألفى عام ، كانت هذه الشعلة كأنما قد اجتمعت عليها كل الرياح لتخمدها ، وتردها من حيث أتت ، فجعلت تنطفىء رويداً رويداً على عين صاحبها الطريح الفراش ، يرى من فراشه الصحراء التى لا نهاية لها ، كأنها بعض آماله ، ويحلم ، ويمنى النفس : إذا نهض يوماً ما ، بأن يصور بالمرمر عرائس البادية ، حارسات الرمال وباعثات الخيال .

ولكن عرائس البادية كن يردن المثّال لهن خالصاً . . كن قد غرن من « الأميرات » و « الفلاحات » اللواتى صورهن مختار ، كن لا يردن أن يقفن فى صف واحد مع بنت القصر وبنت الريف . . كن يردن أن يجتمعن بالمثال فى عالمهن دون منازع . . كن يردن أن يجمعن سرهن وسره . . .

وبعد أيام لبى مختار النداء . فضمته صدور عرائس البادية ، ولعلها أكثر حناناً وأصدق ولاء من قلوب بنى الإنسان ! . .

شرقيٌّ وشرقيّ

أخلاق الشعوب تقاس بأخلاق عامتها ، وباعتها . القاعدة المطردة عند الكثيرين فى البيع هى الغش ، وفى الشراء هى المساومة ، كأن البائع والشارى عدوان لدودان ، كل واحد يريد أن يغنم من صاحبه ، بلا حق ، أكثر ما يمكن ، ويعطيه أقل ما يمكن .

خذوا مثلا : بائع الفاكهة فى شارع رئيسى قرب محطة الرمل بالإسكندرية ، أردت أن أتزود منه شيئاً أحمله إلى القاهرة ، لا لأن فاكهته غير موجودة بالعاصمة ، ولكن لأن « الهدية تفرح » . . وأنا رجل لا أحب أن أدخل البيت ، بعد سفر ، ويدى فارغة ! . . اشتريت ثلاث شمامات صغيرات بخمسة عشر قرشاً ، وأقة من الكرز بتسعة قروش ، وأقة من العنب بأربعة قروش ، وأقة من الخوخ بعشرة قروش . . .

نظرت إلى الذى كان يضع الكرز فى كيس ، ولم أنظر إلى الذى كان يضع الخوخ . فالنتيجة شر حتما ! . مع أننى لم أساوم ! . فوجدت نصف الخوخ معطوباً تالفاً ، لايليق أن يوضع فى كيس ، أو أن يقدم إلى زبون ، أو أن يبقى فى دكان . فالبائع غشاش . والغش ضرب من السرقة . فهل يمكن أن يعد هذا البائع شريفاً ؟!

خذوا مثلا كهذا للمقارنة . ولست أريد أن أضربه فى أوربا ، بل فى الشرق أيضاً . . ففى خلال رحلتنا فى تركيا ، وصلنا بالأوتوكار إلى صميم الأناضول ، فى بلاد فلاحين ، كالصعيد عندنا . . ولما أقمنا ليلة أو ليلتين فى « بروسّة » ، وكدنا ننصرف عنها فى الصباح ، تفضل الدكتور إبراهيم الشوربجى بك ، وأحضر لنا سلة كبيرة من الخوخ ، تكفى عشرين شخصاً يأكلون منها

طول النهار ! . اشتراها ، ووضعها إلى جانبي فى الأوتوكار ، وكلفنى بالتوزيع - « فتوصيت » يومها بسعادة الدكتور على إبراهيم باشا ، ونجليه الكريمين ، والدكتور سليمان عزمى باشا ، والدكتور شوشه بك ، والدكتور محمد خليل عبد الخالق بك ، و « عطفت » على الأصدقاء والزملاء الأساتذة : أشيل صيقلى بك ، وإدجار جلاد (بك) ، وفؤاد صروف ، ومحمد عبد القادر حمزه ، وكوهين (البورص) ، و (المرحوم) حسين رمزى بك (التركى) .

أجل ! . . جعلت آخذ من السلة الكبيرة ، وأعطى ، باليمين وبالشمال ، الخوخ كالشهد . . وكنت كلما تعمقت فى السلة دهشت ، لأن الخوخ يزداد حجماً ونقاوة ، ولم أجد خوخة واحدة معطوبة ، أو فاسدة ، أو غير ناضجة ! !

فالبائع لم ينظر إلى الدكتور الشوربجى بك باعتباره أجنبياً ، ولم يعتبره عابر سبيل ، هو اليوم فى بروسّه ، وغداً فى إستانبول ، لن يعود فيراه ، ولن يشترى منه بعد . . ولكنه باع « بالذمة والشرف » .

أين هذا مما عندنا ؟ أين هذا من قراطيس التين الفاسد الذى « يزوق » بتينة واحدة ، والبقية فاسدة ، تباع علناً فى المحطات ؟ ! أين الأمانة ؟ وأين الأخلاق ؟ !

وجه الدنيـــا

الساعة الثامنة مساء . المدينة مظلمة كأنها نائمة . القمر لم يطلع بعد . الكواكب كاسفة . السيارات بنورها الأزرق ، كأنها مستشفيات متنقلة .

كل شيء يقبض الصدر : ما تراه العيون ، وما تراه القلوب . . إن المحن زادتنا إنسانية . إن محنة الحرية زادتنا تقديراً لها وتعلقاً بها . ماذا ترى القمر يقول من عليائه ، وهو يشهد نصف الدنيا فى ظلمات حالكة ، والنصف الآخر فى نيران متأججة ؟ ! . . إن الدنيا أصابها الجنون حتما ، وهى تجرى على هذه الصورة المروعة من العجلة الطائشة إلى الموت ، تتعجل الموت ، تريده أن يدخل كل مملكة ، وكل بلد ، وكل قرية ، وكل بيت . تريد أن يموت نصف الناس بالحديد والنار ، ويموت النصف الثانى من الجوع والحزن .

من الذى سيعيش بعد ذلك يتمتع بالأرض ويعمرها ؟ من الذى يعوض هذه الشبيبة التى تعد بالملايين ، التى كانت ممتلئة قوة وحياة ، التى كانت ثروة هائلة لبلادها وللعالم ، والتى ذبحت بلا شفقة ذبح النعاج ؟ !

نظرت إلى القاهرة الحزينة فى ثياب حدادها الليلى ، وشعرت بالترف الذى نعيش فيه . ضقنا ذرعاً بهذه الظلمات من حولنا . فكيف بالذين هم الآن فى ساحة الموت ، يستقبلونه واثقين من قدومه ، لايستطيعون الجلوس ، ولا النوم ، ولا الراحة ؟ . . وقد يقضون الساعات الطوال ، بلا طعام ولا شراب ، لا يعرفون ماذا تدخر لهم الدقيقة القادمة ؟ . . إن حياتهم قد تحولت من السنين والأيام والساعات ، إلى دقائق وثوان !

ما أشد ما يغضب الناس ! ألوف الناس عندنا يغضبون لو استيقظوا فوجدوا حوانيت الجزارة مغلقة ، يوماً أو يومين فى الأسبوع ! . . ومع ذلك هم يعيشون

فى رغد : الخبز ، والخضر ، والطيور ، والأسماك ، والفاكهة ، والحلوى : هذه كلها لا حدّ لها ! .. ولكن كيف يحرمون يوماً من اللحم ؟ ! وما هذا الظلم ؟ ! وكيف تطيب الحياة بغير لحم ومرق ؟ ! ولماذا يكدون ويتعبون ؟ !

فالجالس إلى مكتبه خمس ساعات فى اليوم ، لا يشتغل منها بذمة وضمير إلا ساعة واحدة ، يشعر بأنه مرهق ، وأنه مضنى ، وأنه مغبون ، وأنه محروم ! . . فلا بد له من الفطور الدسم ، ومن الغَداء الشهى ، ومن نوم بعد الظهر ، ومن لعب الطاولة ، ومن شرب الخمر فى المساء ، ترويحاً للنفس من عناء الأعمال ! ولا بد له من ثلاثة أشهر إجازة فى السنة ! . . .

سيتغير وجه الدنيا . لن يبقى فيها بعد هذه الحرب هذا التواكل وهذا الخذلان ، لن تبقى أعمال الحكومات وأعمال الجماعات والأفراد على هذا النحو من الخمول والتثاقل والفوضى .

إن هذه الحرب هى السوط النارى ، الذى يلهب ظهر الدنيا الكسول ، لتستيقظ من سباتها ، وتطلق الكثير من نزقها وشهواتها ، وتتولى بجد وحزم أمور بنيها وبناتها .

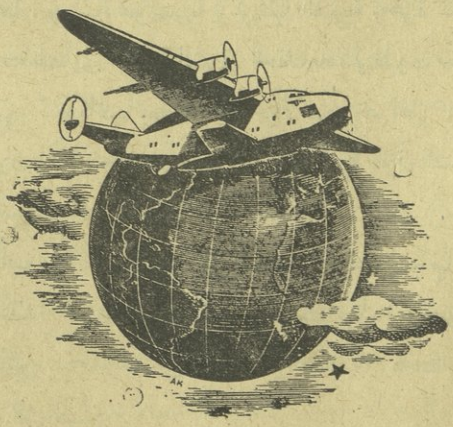

عند ما يلتقى الشرق بالغرب

جاء متأخراً ، كعادته ، فى ليلة رأس السنة ، إلى تلك الحفلة الصغيرة ، المقصورة على عشرة أشخاص من الجنسين . كان لا يعرف منهم إلا أهل الدار ، الذين اتصلت صداقتهم به عشر سنوات ، لا يغفلون فيها مرة عن دعوته إلى قضاء ليلة العام الجديد معهم ، وكان كثيراً ما يعتذر بسبب الحداد ، أو المرض ، أو العذاب النفسى الذى يطغى عليه عادة فى الأعياد ، فلا يحب أن يطلع عليه أحداً ، ويخفيه فى حجب الظلمات ، أو الحياء ، لأنه ، رغم جرأته فى جانب من حياته ، يعد شديد الحياء فى جانب آخر ، لا يجد له تفسيراً ولا تأويلا . أما فى هذه المرة فقد أمسكوا به قبل الموعد بساعتين ، فانساق ، شاعراً بالارتياح إلى أصدقاء أعزاء ، يذكرونه بأعز الناس عليه ، الذين كانوا يحبونهم أشد الحب ، وقد مضوا الآن عنه وعنهم ، لا يحضرون حفلا ، ولا يلبون نداء . . .

كان المدعوون من كل أركان الأرض : شيخ من رجال المال والأعمال من باريس ، وعالم من أمريكا ، وقسيس إنجليزى ، وشاب وزوجه صارا مصريين بمولدهما ، وسيدة سويسرية وكريمتها الشبيهة بزهرة الغاب فى نضارتها ، وربة البيت التى جمعت إلى جاذبية الشرق احتشامه ، وطبيب جراح يقضى أسعد أوقاته فى مستشفى ، وكاتب يبحث عن خيالات وخواطر ، ويمزج الأوهام بالحقائق ، ويلون الأشباح الهاربة بلون مزاجه ، كما تلون الشمس ، فى شروقها وفى غروبها ، السحب الراكضة فى فؤاد السماء . . .

وكان الشراب ، كالناس ، من كل البلدان : بعثت إسبانيا بنبيذها المعتّق ، وأرسلت أسكتلندا خمرها المشهورة ، وقدمت فرنسا رحيق الشمبانيا الذى يبتسم به ثغر العيش . . فشرب من شرب ، واعتذر من كانت عقيدته ، أو كانت صحته ، تأبى عليه الشراب .

وكان الراديو يتغنى ، من أوربا ، بأشجى الألحان . . وكانت كل ألحانه نداء حاراً قوياً إلى النسيان . . كانت أنغامه تتلاعب بأوتار القلوب ، تأمرها بأن ترقص ، وأن تخفق ، وأن تنسى ، وأن تحب . . .

فاستجابت الأيدى والأقدام إلى دعوة الرقص ، بعد أن هفت النفوس إلى الخصور تجذبها بالبنان ، والحنان . . . وامتدت الموائد الأنيقة ، وتعددت ألوان الطعام ، كل لون يزيد المدعوين إغراء ، كأنه ينافس سابقه ، ويتحدّى لاحقه . وأرغت الشمبانيا وأزبدت فى قلب الكأس ، كأنها هى أيضاً تحس بالحرارة والحياة ، كأنها هى أيضاً فؤاد يتعذب ، ويتمرد ، ويثور . . .

وحملت ربة الدار إلى ضيوفها « خراطيش » البخت ، تنطلق فإذا بها وريقات من الشعر تنطق بالحظ والمصير ، وإلى جانبها أوراق أخرى تتحول إلى « طراطير » . . فلبسها المدعوون . . تنكروا للحياة ، لأنهم كانوا بحاجة إلى نسيان الحياة ؛ فنسوها لحظة ، ثم ذكروها بالرجاء . . ذكر الشيخ الفرنسى زوجته الغائبة ، وتمنى لها الهناء ، وله قرب اللقاء . ونظرت السيدة المضيفة إلى محيا ولدها الصغير ، وغمرته بالقبل . . . وأمسك العروس الشاب بيد عروسه الشابة ، وضغط عليها موثقاً للوفاء . . ونظرت الأم السويسرية إلى جبين بنتها الفاتنة ، ثم إلى عينيها الزرقاوين ، ثم إلى وجنتيها الورديتين ، ثم إلى تقاطيع بدنها المثالية الجمال ، ولعلها عندئذ دعت لها ، أو تساءلت : فى أى ركن من العالم سيكون مصيرها ، ولمن ستكتب بنتها فى الرجال ؟! وراح الطبيب الجراح يستأذن فى الانصراف ، لأن وراءه فى الصباح المبكر مرضى سيجرى فيهم مبضعه ، وينزع من أبدانهم بالسلاح كمين الداء . . وبقى شاب مغامر حائر ، لم يتزوج حتى الآن ، مع أنه نيّف على الثلاثين ، فجاء يسأل الكاتب : ماذا يفعل ؟ وكان الكاتب غارقاً فى أمواج العام الجديد ، فتنبه . . وراح يسبح إلى الشاطىء ، فارتطمت يده بحافة المائدة ، فنظر إلى صاحبه ، وقال : تزوج يا أخى ، فلن يزداد عدد السعداء ، ولن ينقص الأشقياء عدداً ! . .

روح حائر

أيها الرجل المعذب ، إلى متى تظل تسير فى فيافى المجهول ، حاملا أثقال الأمانىّ والهموم ، التى تنقض ظهرك ؟!

متى تلقى عصاك ، وتستقر بك النوى ؟

إنك أنت نفسك تعجب من طموحك . . إنك تجرى وراء خيالات غريبة ، لاتكاد تبلغها حتى تسبقك فى ذلك الأفق ، فى ذلك السراب . . إنها خيالات سحرية ، تبدو من بعيد جميلة ، وهى تعلم أنها ليست من الجمال بحيث ترضيك وتستهويك . . فإن الجمال الذى فى رأسك ليس له شبيه ، وليس له وطن ، ومن هنا جاءت حيرتك ، وجاءت ، فى وطنك ، غربتك !

لست طالب مال . فإن المادة لم تكن يوماً ما هوايتك . فقد جرى الذهب بين يديك ، وتناثر تحت قدميك ، فلم تقبض عليه يدك ، ولم تغلها إلى عنقك . بذلت كل ما امتلكت ، ووهبت كل من عرفت ، وأعطيت كل من سأل ومن لم يسأل . ولم تعرف يسارك ما منحت يمينك . ولم تكترث بمن أخذ بحق ، ومن استغل باطلا .

أنت روح حائر ، يبحث عن أرواح حائرة . جسدك مسكين ، لأنه الضحية التى تبذلها على مذبح الروح ، فهو عليك هين . . أما روحك ، فهو العزيز المنال . أنت تضعه فى برج عاجى ، تفخر به ، وتتكبر ، وتتجبر ، لايقنعك ما يقدم إليه من آلاء العجب ، والصيام فى رجب ! . .

حيرته : سر شقائك . . وأنت تعتبرها سعادتك ! . .

أتذكر إذ مررت أمس ، أيها الروح الحائر ، فى شارع الأهرام ، والجو غائم ، الجو الذى تحبه ، الجو الذى يذكرك بأن الدنيا ليست مجردة عن الصداقة

الخالصة والمحبة الطاهرة ، والسماء توشك أن تبكى لبكائك الحبيس ، الذى تهم به ، وتخجل منه . . هناك ، إلى اليمين ، تترامى الحقول المستوحشة ، بين الثيلات الفخمة . . هناك ، إلى جانب حديقة من البرتقال والليمون ، ورائحة الزهر تملأ القلب عطراً ، ورائحة العشب تطهر الصدر من رائحة البشر . . هناك ، كانت أكواخ حقيرة ، أمامها نسوة ، فى خرق سوداء ، لا تكاد تفرق فى لونها عن المساعز التى حولها . . وعلى عيدان من الحطب قدر تغلى ، يتصاعد دخانها من بعيد . . فدهشت من كل هذا السلام والصفاء ، بين كل هذا الفقر والاكتفاء .

إنك ، مع ذلك ، أيها الراعى المهذب ، لن تضع عصاك ، وتستقر بك الأيام . . ستظل حائراً بين عذارى أحلامك ، وغوانى هواجسك ، فى مهرجان تنكّر فيه الناس ، وأنت لجرأتك وصراحتك ، تسير بملابسك ! . .

سيعود الربيع ! . .

أسبوع عيد الميلاد ورأس السنة هو عندى من أجمل الأسابيع البهيجة فى العام كله . هو أسبوع البر والعطاء ، وأسبوع التمنى والرجاء ، وأسبوع اللقاء بعد العناء . مائدته حافلة بزاد الحياة ، وأنواره تمزق حجب الظلماء ، وهداياه تقطع البحار والوهاد والأجواء ، وبخوره وزهوره تعطر الأرجاء ، وصلواته ودعواته تبلغ من الأرض عنان السماء .

أين نحن الآن ؟ ! أين هذا الأسبوع المرح الكريم ؟ ! أين هذا الأسبوع الذى ولد فيه عيسى بن مريم ، فجعله مقدساً بمقدمه ، طاهراً بأنفاسه ، جليلا برسالته ، نبيلا ببساطته ؟ !

أين نحن الآن ؟ ! أين هو النور ؟ ! وأين السرور والحبور ؟ ! أين لعب الأطفال ، وأزياء النساء ، وهدايا الرجال ؟ ! أين تلك الجموع الحاشدة ، تتجه إلى الله ، ليبقى السلام على الأرض ، ويزيد المحبة بين الناس ، ويضاعف ثمرات الحقول ، ويملأ بطن الفقير بالزاد ، ويمسح على أوجاع المرضى فيبرأوا ؟ !

إنه ، فى هذا العام ، الأسبوع الحزين . لذلك نذرت له الصمت أحياناً . أدركتنى ، فى هذا الأسبوع ، صور أفراح خلت منذ أعوام . . فرأيت نفسى تعود منفردة ، تائهة ، مشردة فى صحراء الذكرى . . .

الويل لأولئك المجانين ، الذين أشعلوا نار هذه الحرب ، فأحرقت عش الطائر ، وشردت أهل البيت ، وأشقت سكان المدينة ، وقطعت أنفاس صداقات حارة ، هى نعمة الوجود .

لقد تفرق أولئك الذين كانوا أعزاء ، يجتمعون من كل أنحاء الأرض كالأقرباء ، يتناولون الطعام على خوان واحد ، ويطالعون صحفاً بلغة واحدة ،

ويتبادلون الكتب ، ويتنزهون فى جنات وعيون ، ويمرحون فى عالم الأمانى والأحلام . . .

ماذا فعلت هذه الحرب ؟ ! لقد مزقت شمل الأحبة والصحاب ، فسافر الرجال إلى خطوط القتال ، وبقى النساء يرعين الأطفال ، ويشعرن ، إلى جانب النار المتأججة ، بالبرد القارس ، الذى يلهب أجسام أحبابهن بالسياط . . .

انطفأت المصابيح ، وأوصدت الأبواب ، وأغلقت النوافذ ، وأسدلت الستائر ، وصمتت أجراس التليفون ، وكفّت القلوب عن الفرح ، واكتفت بخفقة الحرمان . . . وطال الفراق ، ونسيت البلابل تغريدها ، وتوارت النجوم وراء السحب ، واختفت الطرقات فى غياهب الضباب ، وقنع الناس عن اللقاء المتكرر السعيد ، بالرسائل البطيئة التافهة يحملها البريد ! . .

العاطفة نائمة الآن . . دعوها نائمة ! . . كيف تستيقظ وقد ضربت الحرب بين الناس بسهم الفراق ؟ ! كيف تستيقظ لتجد الدنيا قد تبدلت سياقاً بين المجانين إلى الموت ؟ ! كيف تصحو العاطفة من غفلتها ، وقد تجرد الطغاة من كل عاطفة ؟ !

لقد نثر الخريف أوراق الشجر ، وجاء الشتاء فجرفها بعواصفه . . لقد بذر الناس حبات قلوبهم ، وجاء العتاة فداسوها بأقدامهم ، ودفنوها تحت أشلاء الرجال . . .

ستنتهى الحرب ، ويعود الربيع فيزدهر ، وتطلع الشمس ، وتستيقظ العاطفة ، ويلتى الشتاء ثلجه الفضى الناصع ، فيطهر الأرض من آثار الدماء ، وتدق أجراس الكنائس ، احتفاء ببزوغ فجر العام الجديد ، فيتنبه ضمير الإنسانية ، ويعود السلام إلى الأرض ، وعندئذ تتجاوب الأصوات ، من وراء البحار والقفار ، بالنداء . . ولكن هيهات ! . . والقلب كالشجرة ، يجدّد أوراقه ، يستبدل حباً بحب ، وأهلا بأهل ، وخلا ناً بخلان ! . .

دروس الأدب الحسّاس

كانت فى السوربون دراسات خاصة بالحضارة الفرنسية ، برنامجها الرئيسى يرمى إلى إعطاء الطالب الأجنبي فكرة سريعة تامة عن : تاريخ فرنسا ، وآدابها ، وفنونها ، وتطور الفكر فيها ، والحياة الفرنسية الخاصة بالأسرة ، والعامة الشاملة : لدستور الجمهورية ، والسلطة التشريعية ، والسلطة التنفيذية ، وحرية الصحافة والمعتقدات ، وما إلى ذلك . . .

وقد اختير لهذه الدراسات طائفة من كبار أساتذة السوربون ، أمثال : رينيه ، وميشو ، وجيو ، وبوجليه ، وفوكونيه ، وريبير ، وميستر .

وكان الأستاذ ميشو ، الذى خلفه بعد ذلك دانيل مورنيه ، يتحدث عن « الأدب الحسّاس *La Littérature sensible* » . . . فيبسط حياة جان جاك روسّو وفلسفته وأثره . وكانت الطالبات ، لاسيما الأمريكيات ، والكنديات ، وبنات الشمال من : بريطانيا ، وسكندينافيا ، وفنلندا ، وأستونيا ، يقبلن إقبالا شديداً على محاضرات « الأدب الحساس » . . فكنت تجد بين كل خمسين فتاة ثلاثة شبان ! . . وكان من يجلس فى المؤخرة ، على أحد المدرجات العالية ، يشرف ، كما لو كان فوق صخرة ، على القاعة البهيجة التى تسكر الجوارح من عطرها ، والتى « تفتح النفس » ، وتبهر العقل ، من منظر تلك الرؤوس المتوجة بتيجان الشعر الذهبية ، تكتب ، ثم ترتفع لتستمع ، فكأنها بحر من الذهب ، تعلو أمواجه وتنخفض . . ويود المرء لو سقط من فوق الصخرة وغرق فى البحر ! . . .

وفى ذات يوم كان الأستاذ يبسط إحدى قصص روسو : « هلويز الجديدة : *La Nouvelle Héloïse* » ، التى تجدد فى الأرض آيات الحب العذرى ، البرىء ،

الساذج ، الذى يهيم فى أرجاء الطبيعة الساحرة ، ويجهل حتى القبلة الطاهرة ! . . ونرى فيها البطلة تتحرج من كل شىء ، حتى من فكرة الحب ، وترضى بالحرمان ، وتعيش على قوت الأشجان ! . . .

وكان البروفسور الوقور يطالع رسائل المحب الساذج إلى « چوليا » ، يقول لها إنه يريد أن يهرب منها . . لأن مجرد وعدها إياه بالصداقة قد جعله يختبل ! . . أما النظرة منها ، فى حنان ، فإن فيها هلاكه ! . .

فتتبادل الفتيات والفتيان من الطلاب النظرات والبسمات . . ويمضى الشيخ فى مطالعة الرسائل ، حتى يصل إلى رسالة نعرف منها أن صاحبنا قد قبل صاحبتنا ! . . : « . . ماذا فعلت بى ، أواه . . ماذا فعلت يا چولياى ! . . إنك أردت مكافأتى ، فأضعتنى ! . إنى نشوان ، أو بالأحرى مخبول راح فى هذيان ! . . لقد انقلبت مشاعرى ، وتفككت أوصالى ، وتعطلت مواهبى ، من هذه القبلة القاتلة ! . .

« لقد أردت تخفيف آلامى ! أيتها القاسية ! فزدتها شدة وويلا ! . . إننى قطفت السم من شفتيك ! . . فسرى السم فى دمى ، وهو يقتلنى تقتيلا ! . . أرأيت كيف أموت من شفقتك ! . .

« كان اللهب يتصاعد مع أنفاسنا المحترقة ، وقلبى يحتضر تحت أثقال الرغبة الجامحة . . عند ما رأيتك تشحبين فجأة ، وتغمضين عينيك النجلاوين ، وتستندين إلى بنت عمتك ، وتسقطين فى إغماء . . عندئذ خنق الخوف عليك شغفى بك . . ولم يعد هنائى إلا حلم وسنان ، أو خلسة المختلس ! . . »

وإذا بضحكات عذبة ، لذيذة ، تصدر من تلك الأفواه اللذيذة العذبة ، فتضىء قاعة المحاضرة بلؤلؤ الثنايا ... فيهز الأستاذ الشيخ رأسه ، ويقول عاتباً على تهكم القرن العشرين بالقرن الثامن عشر : « أيتها الآنسات ! . . إن نساء تلك الأيام لم يكنّ يطالعن هذه الصفحات ، إلا ويغرقنها فى أحر الدموع ! . . وأنتن

الآن تضحكن وتسخرن ! . . فما أبعد الشقة ! وما أسرع الزمن ! وما أفظع الانقلاب ! . . . »

* * *

تذكرت تلك الأيام ، عند ما تلقيت من طالبة فى كلية الآداب شكوى من العميد الكبير أحمد بك أمين . . . فهو قد فرض عليهن ألا يقلمن أظافرهن ، وألا يعقصن شعورهن ، وألا يتزين ويتبرجن « تبرج الجاهلية الأولى ! » ، وأن يلبسن كمًّا طويلا ، وأن يضعن جوربا كثيفاً ، و « قبعة كابسة للرأس » !.

حقاً إن هذا جيل وجيل ! . . .

فأستاذنا أحمد بك أمين لا يمكنه أن يتصور أن البنات يتلقين العلم مع الصبيان ، فكيف بهن إذا ما صرن شابات فى سن الزواج ، لا يشغلهن الدرس والبحث عن العلم ، قدر ما يشغلهن البحث عن الأمل : الأمل فى الحياة ! . . فإن العلم يزيد فهمهن لحقيقة الحياة ، ولكنه يتركهن أشد ظمأ وتلهفاً على الحياة !.

وأستاذنا أحمد بك أمين إذا سلم بالاختلاط ، اضطراراً لا اختياراً ، فهو مشفق من عواقبه . لذلك يحاول أن يقلم أظفار الفتنة بالحيلولة دون الفتيات وتقليم أظافرهن . . « فالمانكور » يجعل لتلك الأظافر لون العنلب ، فيود كل فتى حساس لو أنها ، لجمالها ، تنشب فى عنقه ! . . أو على الأقل « تخربشه » ! . .

وكذلك الشعر يجب أن يكون عند أستاذنا العميد حبيس قفص أو جرس باسم « قبعة » ! . . لأنه إذا تهدل ، ثم رفعته اليد الجنون ، لتتركه يتهدل مرة ثانية وثالثة ، انخلعت معه ، فى كل مرة ، قلوب وقلوب ! . .

أما الأذرع ، التى أسميها : « الحيات المقدسة » ، فمن الخير أن توضع فى أكمامها ، كما يضع السحرة الحيات فى جرابها ! . .

وأما السيقان ، التى تضرب عليها حجب من الجوارب ، فإنها تصبح

قذى فى عين الفنان . . لأننى أخشى من أن يكون أكثر فتيات الجامعة لا يعرفن إلا جوارب القطن « أبو وبرة » !.. وبينهن وبين الجوارب التى تشف عما تحتها « اللى بالى فيها » أجيال وأجيال ! . . .

ولست عاتباً هنا على أستاذنا الشيخ العميد قراره ، فلقد تكلم القرن الثامن عشر بلسانه !.. وعزاؤه أن طالبات السوربون قد ضحكن من چان چاك روسو . . . أما طالباتنا المهذبات ، فقد تركن فى الأظافر التراب ، وأخفين الشعر « المكركت » فى جراب ، وربطن « بالدوبارة » : « الشراب » !

عندما أقبلت المرأة . . .

إنهم فريق من الرفاق ، يجتمعون من حين إلى حين ، فى بيت أحدهم ، ليتحدثوا ، ويحاولوا بالحديث أن ينسوا همومهم وشواغلهم ، وأن يرسموا مستقبل بلادهم ، وأن يتنبأوا بتطورات هذه الحرب ، وأن يدعوا الله لينزل السلام على الأرض . .

وكانوا أحياناً من الكثرة بحيث يتفرقون فى نواحى الدار ، بعضهم يقرأ ، وبعضهم يستمع إلى الراديو ، وبعضهم يلعب الورق ، وبعضهم يشرب ، وبعضهم يفكر . .

وكان أحدهم ، فى ذلك اليوم ضجراً ، متبرماً بالحياة والناس والحرب . كان منذ عامين يكاد يلمس السعادة . كان له بيت جميل ، فى مدينة مسحورة ، وكان يعد برنامجاً سياسياً ليخدم به وطنه ، وهو فى وطن الفتنة غريب . .

فانتقل من حجرة إلى حجرة ، ونظر إلى الذين يستمعون إلى إذاعات الراديو متلهفين ، وإلى الذين يحاولون أن يغرقوا الرؤوس فى الكؤوس ، وإلى الذين يتناقشون فى المال والأعمال ، يريدون الخطف باليمين وبالشمال ، ونظر إلى أماكن الغائبين ، الذين إذا دخلوا دخل معهم الغناء ، والطرب ، والضحك . . والنسيان . .

ووقف صاحبى لحظات ، يتأمل فى تلك اللوحة الحكيمة ، التى تمثل القرود الثلاثة : وضع القرد الأول يديه على عينيه فهو لا يبصر ، ووضع الثانى يديه على أذنيه فهو لا يسمع ، ووضع الثالث يديه على شفتيه فهو لا يتكلم . . هذه اللوحة التى تذكرنا بالسر . . وأن كتمانه فرض على كل من أراد أن يكون رجلا بين الرجال .

ودق الجرس . . فأحس تياراً خفياً يسرى فى الجميع ، فكأن الجرس متصل اتصالا مباشراً بأعصابهم ، فتوقفت ، لحظة ، الصفحة فى يد قارئها ، والورقة فى يد لاعبها ، والكأس فى يد شاربها . .

أما الذى كان يفكر ويتأمل ، فقد تمنى أن يجىء ما يشغله عن تفكيره ، وينقذه من تأملاته . .

كان نصفهم من المتزوجين ، السعداء ، الذين حلوا مشكلة الحياة بنساء طيبات ، كريمات ، متسامحات . . وكان النصف الآخر جباناً متردداً ، واقفاً على شاطىء الماء ، يتمنى لو جرؤ فاستطاع أن يخوض الحياة ، واضعاً قدماً فى البر ، وقدماً فى البحر ! . .

كان بعضهم يملك عشرات الألوف من الجنيهات ، وبعضهم يملك عشرات المئات . فليست المادة هى العقبة الحائلة دون الزواج ، ولكنها مجموعة شنيعة معقدة من الطموح والمطامع والأمانىّ ، ومن خطط المستقبل ، ومن مخاوف التجارب ، ومن كثرة المحن والمآسى المحيطة بهم ، ومن الآمال العاثرة التى يلقونها من حولهم ، ومن سن تتقدم بسرعة ، وتزيدهم تعلقاً بالوحدة والوحشة ، ومن . . ومن : قلوب كسيرة بين الجنوب !

وكان كل متزوج ، وكل أعزب ، يدفع الأعزب الآخر إلى الزواج ، ويشجعه عليه يوماً ، وينهاه عنه ويحذره منه أياماً !

حتى ذاك الذى كان يفكر . . كان قد دنا إلى السعادة التى يتخيلها دنواً خطيراً ، فتآمر عليه المعلوم والمجهول ، وحرماه السعادة ! . .

ولعل هذا هو السبب فى أنه ، عندما دق الجرس ، انتقل بنظره ، كوميض البرق ، من لوحة القردة الثلاثة ، إلى لوحة « ديانا » الجميلة ، إلهة الصيد والقنص ، على الجدار الثانى ، وقد تجردت ، وأمسكت بزمام كلبها السلوقى الجميل ، تشده وتجذبه ، وهو مندفع ، وفى اندفاعه جعلها آية فى الرشاقة . .

ودخلت فعلا ديانا ! . كانت مصرية . كانت فى ثوب أبيض ، كالثلج ، غاية فى سلامة الذوق ، فظهر الثوب الشفاف كأنه إطار خيالى لمحياها العاجى ، الذى تلمع فيه عينان تبوحان بكل شىء ! . . كانت عيناها من تلك العيون الفاضحة ، التى لاتخفى سراً . . ولا سر لها إلا الحب ! .

أما صوت الراديو فخفت ، وأما حديث المال والأعمال ففتر ، وأما صفحات القارئين فقد رقصت سطورها ، وأما ورقات اللاعبين فقد طمست أرقامها ، وأما كؤوس الشاربين فقد تغيرت طعماً ، وزادت مراً ! وأما الأفكار والتأملات فى رأس صاحبى الذى يفكر ويتأمل ، فقد تركزت ، ووضحت ، وتجلت ، كما يتبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر .

أما المحامى فقد جعلها قضيته ، وأما الأديب فقد وجد فيها رسالته ، وأما الشاعر فقد نظمها قصيدته ، وأما التاجر فقد عدها صفقته ، وأما صاحب الكأس فقد رفع كأسه يشرب نخبها ونخبه . . وأما المفكر ، المتأمل ، الحزين فقد جلس عند قدميها ، مستلهما ، مستوحياً ، صامتاً . .

لقد تساوى المتزوج والأعزب . . وصار كل منهما يزاحم الآخر ، عندها ، سراً وجهراً ! . .

هذه امرأة دخلت ، فدخلت الثورة فى كعبها ! . التهبت العواطف ، واعتدل الحديث ، وتوحد الاتجاه ، ورقت الحاشية ، وتهذبت الإشارة ، وانصقلت العبارة ، وصاروا جميعاً بلا زوجات ، ولا خليلات ، ولا ذكريات !

إن امرأة واحدة أقبلت ، فجرّدتهم ، ولو لساعة أو بعض ساعة ، من المطامع الشرهة ، وأنقذتهم من الشواغل المرهقة ، وحلت محل ورق المقامرة ، ونشوة الخمر ، وملأت رأس المفكر المتأمل الحزين بأفكار جديدة ، وآمال طريفة ، وأحزان لذيذة ممتعة ! . .

حمداً لله ! . . فماذا يصنع الرجال ، يارب ، لو أنك سبحانك تخليت عنهم ، فتركتهم ، ولو يوماً واحداً ، بغير نساء ! .

ليـــلى

ليلى : وسامة وقسامة ، عمرها عمر الزهور ، وجه شاحب يزاحم العاج روعته وجلاله . عينان صغيرتان ، ولكنهما تنفثان من سحر الشيطان . وقوام أى قوام ! غصن زنبق ، ينكسر ثم ينجبر ، وينفصم ثم يلتحم ! . . وشعر ، أى شعر ! غدائر صغيرة ، مستقلة ، تتزاحم على لون الشفق ، وتطغى لون الذهب ، وتضرب على كتفيها ، فتنفضها بيدها تارة ، وتداعبها تارة ، ثم تتركها مهملة ، مرسلة ، كأن كل شعرة منها سلك كهربائى يجتذب الرجال . . ثم تعود فتسبّح على حلقاتها ، بحمد جمالها !

رأيتها أول مرة فى « سيدى بشر » ، غزالة نافرة ، لا تستقر ، ولا تدع لمن ينظر إليها قراراً . لوّحتها الشمس وصبغتها بلون الخمر . وقد حجبت شيطان عينيها بنظارة زرقاء الزجاج ، بيضاء الإطار ، وتركت صدرها يتحدى الكائنات ، ويضنى الرجال . . وكانت تعرف سر صدرها وما أخفى ! . .

كان شبابها عجيباً . كانت هى الشباب . لو تجسد الشباب لكان إلى جانبها شيخاً مترهلا متهالكا ! . . كانت من حوريات الغاب . . أو من جنيات الأحراش والآجام . .

أو كانت هى « الموجة العذراء » ؟

كانت الرمال تخفق تحت قدميها . كانت الرمال تتحول تحت قدميها قلوباً . كانت فى السابعة عشرة ، وكانت فى الأربعين ! . . كان جسمها ينضح بالبكارة الفاتنة ، وكان اتزانها ، وثباتها ، وكبرياؤها ، ينطق بالأنوثة الكاملة .

وكان لها خطيب أو شبه خطيب : فتى عالق بكعبها ، يهرول فى ظلها ، كأنه كلبها . ولكنه لهذا يبدو ثقيلا ، ولو كان جميلا . كان الشعور الغريزى لمن يرى

تلك الفتاة العجيبة أن ليس من حقها أن تكون لرجل ، كائناً من كان . فهى من فلتات الطبيعة التى يريد كل رجل أن يستأثر بها ، ولن يستأثر بها إنسان !

وكانت على هذه الحداثة فى السن تميل إلى مجالسة الرجال . كانت لذتها الكبرى أن ترى الشيخ يتصابى . . أن ترى الرجل يطوى السنين القهقرى حتى يلقاها فى مثل عمرها ! . . وهى تراقب هذا التهافت منه ، مشفقة عليه تارة ، شامتة فيه تارة أخرى . وكانت تنظر إليه ، وهو يتدلله بها ، ولا يرعى حرمة سنه ، ولا يرعى حرمة جمالها ، وكأنها تنسج بمخيلتها صور الفتيات والنساء اللواتى طالما غرر بهن ، وخدعهن ، فى شبابه . . وترى بعين خيالها بنات جنسها هؤلاء يبسطن إليها أذرعهن ، لتنتقم هى لهن ! . . وهى تفعل ، ملبية النداء ، فتترك له أحياناً يدها ، كما لو كانت نسيت يدها ، فتطمعه ، وتثير فيه كامن اللوعة . ثم تنفر وتشرد . . أليست من الظباء ؟!

وأراها غداً وقد سار فى ظلها رجل آخر . . ثم شيخ ثان ، وثالث ! . .

ولم يكن خطيبها الفتى لينال منها أكثر مما يناله هؤلاء المعجبون ، بل لعله كان أشدهم حرماناً . لم يكن له منها لا قلبها ولا عقلها ولا جسمها . وكانت ظامئة للمعرفة . وكانت متعطشة للتجربة . كانت تؤثر أن تلقى بالها إلى هؤلاء الرجال الذين عركوا الحياة ، وعرفوا أهواء النساء . فتسألهم عن حبهم . ويتكشف لها منهم كيف يزوقون ، ويزخرفون ، ويبالغون . . كيف يحاولون أن يظهروا بمظهر البطولة ، أو الفروسية ، أو الشهامة ، أو الغنى ، أو الكرم . . وقد نالت منهم جميعاً تصريحات أدهشتها . تلك هى إجماعهم على أن زواجهم لا شأن له فى حياتهم . إنه نظام لابد منه ، قضت به العادات والتقاليد والظروف ، وتزوجوا ممن اختارهن لهم أهلهم ، أو ممن كن من أهلهم . وبذلك حلوا مشكلة البيت والولد . ففى دورهم نساء يشرفن على الطهى ، ويحاسبن الخدم ، ويخرجن الذرية . لا أكثر ولا أقل . . أما الآن . . فهم أحوج ما يكونون إلى الهوى والصبابة ! . .

وكانت تراهم ينسون دائماً أنها فى عمر بناتهم . وأن كلا منهم له بنت مثلها أو أكبر منها ، وأن من لم يتزوج منهم لو كان قد تزوج لأنجب مثل « ليلى » سناً ، وإن استحال عليه أن ينجب مثلها حسناً . . .

وفى ذات يوم غضب الخطيب الفتى منها ، إذ أوغر صدره إخوان له وزملاء ، سخروا من ضعفه وعدوه مطية لها . فلما حاول أن يردعها نهرته ، وقطعت ما بينها وبينه ، كما لو كان فتلة خيط .

وفى اليوم التالى كان لها خطيب جديد . كان أجمل ، وكان أغنى . فمن المحتم أن يكون خطيبها فتياً غنياً جميلا .

وراحت دوائر الرجال والشيوخ المعجبين تقدح الخطيب السابق ، وتمدح الخطيب اللاحق ! . . ولم يكونوا يقصدون بهذا إلا مدحها هى وتملقها . كانوا يضعون لها بألفاظهم الزبدة على الخبز الأسود ليكون أبيض .

* * *

ولم تتزوج « ليلى » من الخطيب الأول ، ولا من الخطيب الثانى ، ولا من الخطيب الثالث . . لقد تزوجت ليلى رجلا آخر أجمع أهلها على أنه جدير بها . فهيأ لها بيتاً أنيقاً ، وحياة رحبة رغدة . ولم يضيق عليها الخناق ، وإن كان قد أفهمها ، وأدركت هى ، من فورها ، أن حياة الزوجة غير حياة الخطيبة ، وأن جدران البيت ليست شواطىء البحر ، وأن ما يباح فى الصيف من غزل برىء فى الهواء الطلق ، لا يباح فى الشتاء ، بعد أن يغلق عليها الشتاء ، ويغلق عليها الزواج ، كلاهما ، أبوابه . .

فضجرت ، وسخطت ، ونفرت . إن الظبية فيها تريد أن تظل ظبية ، وإن كانت فى الخامسة والعشرين . . وهى لم تعد تستطيع السجن فى أربع حجرات . . كيف تكون الحجرات الأربع مسرحاً للظباء ؟!

ونسيت ليلى أن الزواج هو النفس المطمئنة . هو حياة متشابهة متكاسلة

تنسج فيها المرأة نسيج اليد ، لانسيج الخيال . . .

لقد شقيت « ليلى » ، وأشقت زوجها . ولم يكن حديث الرجل فاتراً ، ولا تافهاً . . ولكنها سمعت أجمل منه ، وأعذب منه ، وأشجى منه . . ولم يكن حبه لها بارداً ، ولا جامداً . . ولكنها رأت أحلى منه ، وأحر منه ، وأعنف منه . .

وكما ذهب عنها الخطيب الأول ، والخطيب الثانى . . ذهب عنها الزوج الأول ، والزوج الثانى . . وظلت ليلى حائرة ، معذبة ، لا تدرى سر حيرتها وشقوتها .

* * *

لعل السر هو : فى أنك استمعت يا ليلى إلى عشرات المعجبين ، وخلبت عشرات المفتونين ، وأوقعت عشرات الهائمين ، وتكسرت فى قلبك الغض الندى النصال على النصال ! . .

إنك عرفت ، قبل الأوان ، القبلة الخافتة التى لها أزيز وهمس ، والقبلة التائهة التى لها طنين النحل ، والقبلة المنكسرة بعد الصد والخصام ، والقبلة الحائرة تنشد الإلهام ، والقبلة العفة تتحمس ولا تلمس ، والقبلة الملتهبة الفاجرة تختم على الثغر بالنار يمين الغرام ! . . والقبلة الغادرة ، الكاذبة الرنين ، القبلة الكافرة ! . .

وبلوت يا ليلى الوعود الصادقة والزائفة . . وانتظرك كثيرون . . وانتظرت كثيرين . . وكنت فى هذا وذاك آناً متكبرة متعجرفة ، وآناً خاضعة مستخذية ، وآونة يبتهل إليك ويتهافت عليك ، وآونة ضعيفة مستصغرة ، راضية من الكأس بثمالتها ، ومن الهوى بنفايته ! . .

كان فيهم يا ليلى رجل مالى كبير ، تعرفين أنه متزوج ، وأن زوجته جبارة قوية ، وأنه يخافها . . وأن مركزه الاجتماعى لا يسمح له بالظهور معك فى مكان عام ، مهما يكن بعيداً سحيقاً ، فكيف بالبناء بك ، والزواج منك ؟!

ومع ذلك خدعت نفسك . وكنت تتسللين إليه ، وكان يتسلل إليك ، وتلذذت بعبثك ، وشاقك أن ترى شعره الأبيض يتمنى لمس أناملك . . وأن ترى سواراً من الذهب يطوق رسغك ، ثم يجيء منه فستان ، وفستان . . وحقيبة وقفاز . . ثم دستة من جوارب النيلون . . وزجاجة عطر من « جرلان » . . ثم . . ثم يجيء اعتذار ، وتعلل بالأعمال ، وكثرة الأشغال . . فخرجت من الروح إلى المادة ، وانتقلت يا ليلى من الحب العلوى النبيل ، الذى له هدف أسمى ، إلى ساحة الأخذ والعطاء ، والبيع والشراء ! .

وكان فيهم يا ليلى طبيب يربح أموالا طائلة ، لأنه أعزب ، وهو يستغل عزوبته ، ويغازل كل بنت ، و « يطبطب » على كل خد ، ويخدع كل امرأة ، ويسلبها بعد ذلك أجرة عيادته ! . . فترددت عليه ، وغازلك ، فتوهمت ، فعرفت الانتظار الطويل إلى أن تنتهى العيادة ، ورأيت من ينظرن إليك ، ويتهامسن عليك ! . . وعرفت بعد ذلك ، ويا لغفلتك ! أن ممرضته هى خليلته ! . . وأن مواكبكن ، أيتها المريضات بحمى الزواج من صاحب العيادة ، إنما هى مواكب المخدوعات المسلوبات ! .

وكان فيهم . . وكان فيهم . .

فلما جاءت الحياة الزوجية ، كنت تلك التى يسميها الفرنسيون « بلازيه » ، أى التى رأت كل شىء ، ولم تعد تنتظر شيئاً . . أى التى عركت الدهر وعركها ، وذاقت حلوه ومره ، وتحجر فؤادها . . ولم تعد تفرح لمطلع الفجر ، ولم تعد تأنس لسلام المساء ، ولم يعد ضياء القمر عندها ليوحى بالسكون الحنون ، وإنما بالسآمة والضجر ، أو الهوس والجنون ! . .

لذلك كله ، ولمثله ، ضاق صدرك بالبيت الهادىء الضيق الوادع ، ونسيت أنه حمى المرأة الذى يسترها ، والذى يكرمها ، والذى يرفعها ، مهما يكن البيت عادياً ، ضيقاً ، متواضعاً .

مائدته : ليست طافحة بألوان الطعام والشراب ، لأنها مائدة بسيطة ، متصلة البساطة ، وليست مائدة مغامرة ومخاطرة ! . .

وجدرانه : لاتتجاوب بالضجيج ، والصياح العربيد ، لأنه معبد للحنان والود ، لا صالة عامة للرقص والمخاصرة ! . .

وسقوفه : لاتمطر ذهباً ولا فضة ، لأنه بيت ، وليس نادياً للمقامرة ! .

أتعرفين الآن ، يا ليلى ، سر حيرتك ، وبعض شقوتك ؟ ! أتذكرين ذلك العبث البرىء الذى بدأ على رمال سيدى بشر . . وذلك الدوى السحرى الذى ملأ به الرجال المجربون ، والشيوخ المحنكون ، أذنيك الصغيرتين ، فى البحر ، ثم فى البر . .

وارحمتا لك ياليلى ! . .

لشد ما أخشى على ليلى ، تلك الموجة العذراء ، والظبية النافرة ، أن تكون قد ذهبت ضحية الطبيعة — تلك المرأة الغيور — التى غارت وانتقمت منها ، لمفاتن حسنها ، وجمال جسمها ، وزهوة شبابها ، فقتلت قلبها . . وتركتها للناس عبرة عابرة ! . .

رجال يقتاتون بالأشجان

منذ ما غار چوبيتير — إله الآلهة فى أساطير الأولين — من هناء الرجال والنساء ، أخذ التفاحة المشهورة ، وضربها بسيفه فشطرها شطرين ، شطر الرجل وشطر المرأة ، وألقى بكل نصف منهما فى ناحية من الأرض ، ولا يزال الرجل إلى يومنا هذا تائهاً ، والمرأة تائهة ، يضنى كل منهما ، ويفنى ، من جانبه ، فى البحث عن نصفه الآخر ! . .

وهذا هو معنى حياتنا الحاضرة : البحث فى الشقاء والعناء عن الهناء .

فإذا تركنا الجانب المادى من الحب والزواج ، وجئنا إلى الجانب الروحى ، الذى يهيم به الكتاب والفنانون والشعراء ، قلنا إن أكثر الناس هياماً بالمرأة ، وأشدهم خوفاً من المرأة ، وأولاهم بحب المرأة ، هم الشعراء والفنانون والكتاب . .

فهم يستمدون حياتهم ورزقهم من المرأة ، يعيشون عالة عليها ، يستغلون ميلهم إليها ، وحبهم لها ، وافتتانهم بها . . يرسمونها بالقلم ، أو بالقافية ، أو بالريشة والألوان . ويمدحونها تارة ، ويقدحون فيها تارة أخرى . ويعدونها يوماً الصديقة والحبيبة ، ويزعمون أنفسهم يوماً آخر من أعدائها . . وهى تجارة ، مثل تجارة الحرير فى دمياط ، أو الذهب فى الصاغة ، أو النور الذى توزعه شركة الكهرباء !

* * *

انظر إلى ذلك الكاتب الذى اشتهر بانتصاره للمرأة ، وفنائه فيها ، وشغفه بها ، وقل لى لماذا يخاف المرأة ، لماذا يخشى الزواج ؟

وانظر إلى ذلك الكاتب الذى اشتهر بعداوته للمرأة ، وقد وضع فيها خير

قصصه ، لماذا يتهالك عليها ، ويتمناها ، ويود ، ولو بجدع الأنف ، أن تقبله أية امرأة زوجاً ؟!

انظر إلى ذلك الفنان الذى ملأ بيوت الناس من صور النساء ، وأضفى عليهن من روحه ومن نوره جمالا وألواناً ، لماذا يعيش وحده ، مع البوية والزيت ، دون الجسد والروح ؟!

اسألوا ، أيها القراء الأعزاء ، وتساءلوا : لماذا يعيش كاتب كبير وشاعر حساس مستقيم مثل رئيس تحرير « الأهرام » بغير زواج ؟ ولماذا يعيش صحفى موهوب ، وشيخ محترم ، مثل صاحب « المصرى » دون زواج ؟! ويعيش نائب وخطيب ومحام ورئيس تحرير « المصور » بغير زواج ؟! ويعيش شاب كله روح ملتهبة ونفس ظامئة مثل رئيس تحرير « الاثنين » دون زواج ؟ ويعيش عدو المرأة - توفيق الحكيم - محروماً من الزواج ؟! ويكون مؤلف « سارة » الرقيق الجبار متعصباً لعزوبته ؟! ونرى الشاعر الملهم « على محمود طه » ملاحاً تائهاً ، وروحاً شارداً فى قنوات البندقية ، بغير حليلة ؟! ونشهد سليمان نجيب مدير الأوبرا الملكية ، وممثل الحب الأول ، بلا حب ؟! ونبسم لرؤية صديقنا محمد التابعى صاحب « آخر ساعة » يكتب عن « . . . » وعن « . . . » وعن « . . . » ، ويعيش بين عشرين جداراً ، كقرد قطع ؟ . . ونلقى شاعر القطرين ، وإمام الصناعتين ، الذى دان له الشعر والنثر ، وأبدع فى آيات الحب ، قد شاخ وناخ ، يذوب فى حب المرأة ، ويهرب منها ؟! . .

أنا أعرف المرأة وأجهلها . . وسر حبى لها هو جهلى بها . .

إنها المخلوق الرقيق ، الأنقى من الحليب ، والأشجى من العندليب ، الذى إذا حمل إلينا تجارب الآخرين الذين مروا فى حياته ، ثارت كرامتنا ، وأبيناه . . وإذا حمل إلينا بساطته وطيبته وسذاجته ، فى انتظار تجاربنا ، والتماس مواهبنا ، نفرنا منه ، واستنكرناه . .

والكاتب ، أو الفنان ، أو الشاعر المسكين منا ، إذا كتب فى موضوع المرأة وأطال ، وردد قيل وقال ، قالوا : هذا الرجل زير نساء ! . . وإذا سكت ، وعالج شؤوناً أخرى ، قالوا : يا له من عتيق ، عفا عليه الدهر ، فهو لا يعرف معنى الحياة ، ولا يعرض لخفقان الفؤاد ؟ !

والكاتب المسكين منا ، إذا تهافت على المرأة ، زعمت أن هذا فرض واجب لها ، وحق عليه ، فيستوى عندها الذهب والحطب ، واللؤلؤ والخشب !. وإذا أغفلها ، وعفا عنها ، ووجدها مخلوقاً تافهاً على هامش العيش ، غضبت ، ونفرت ، وسخطت ! . .

وإذا قال لها : تعلمى . ضحك الناس ، وقالوا : ماذا لقينا من الخير من متعلمة أو عالمة . وإذا قال لها : الزمى البيت . سخر الناس ، وقالوا : يريدها سائمة جاهلة ! . . .

وإذا أهاب بها إلى العناية بلبسها ، وصقل ذوقها ، قالوا : يعلمها الترف ، والسرف ، ألا بئس هذا العلم من تلف !

أأحدثكم ، إذن ، بصراحتى ، عن سر ذلك المتيم بها ، المحروم منها . عن سر ذاك الذى فى يده الكأس يهواها ويخشاها ؟ !

إن الفن ركن من الأنانية ، يستأثر بقلب الرجل ، ويطارد فيه خصمه القوى العنيد : المرأة . . .

فالفن والمرأة ، كلاهما ، عدو للآخر ، فى ثياب صديق .

فالفنان لا يريد الوصول إلى المرأة ، وإن زعم ذلك ، ولكنه يريد البحث عنها . . سر سعادته ، وقوام فنه ، فى هذا البحث ، فى هذه المطاردة . .

اسأل صائد البر : أى اللحظات أهنأ لديه ؟ ! أهى اللحظة التى يسدد فيها بندقيته ، ويصوّبها ، نحو الهدف ، نحو الطائر الخائف المرتعش على فنن ، أو المضطرب فى طيات الجو ، ثم يطلق النار . . هل هذه هى ألذ لحظاته ،

أم تلك التى يعود فيها محملا مثقلا بصيده ، وقد التوت رقاب الطير ، وازرقّت مناقيرها ، واسودّت دماؤها ؟!

واسأل صائد البحر ، وقد خرج عند الفجر يلقى شباكه ، ويسأل أغوار الماء رزقاً : أى اللحظات أسمى عنده ، أهى تلك التى يشعر فيها بأن السمك يختلج ويرتجف فى عيون الشباك ، يحاول خلاصاً من حيث ثمة خلاص أو لا خلاص ، أو تلك التى يهمد فيها ذلك السمك ، ويخمد ، ويبرد ؟!

ونحن ، مثل هؤلاء ، ننشد صيداً ، غير أن الشباك مختلفات .

نحن ننشد للمخيلة طائراً . . نحن نجرى وراء الوهم ، لنضيع فى الأوهام عمرنا . . نحن نقتات بالأشجان ، ونعيش بالحب وبالروح ، نعيش بالقلب والوجدان . . ونترك لسوانا لحم الحيوان . .

وحش فى باريس

« الزمان : منذ عشر سنوات »

« المكان : الحى اللاتينى »

. . . وبعد ليلة أرق وسهاد فى مطالعات تتصل بعلم النفس ، وتحاول أن تمكن الخلائق البشرية من أن تفهم بعضها بعضاً ، وتحل ألغازها وأحاجيها ، وتفك طلاسم معمياتها التى تشتبك اشتباكا دقيقاً : بسبب المرأة .

. . دق جرس التليفون فى الصباح المبكر ، ولم يكن التليفون ليتنازل بدخول غرفة الطالب الحقيرة ، ولكنه قد تفضل بفرع منه فى كل طابق ، فدقت الخادم الباب تدعونى إلى الدهليز ، فلعنت ذاك الذى بكر بكور الغراب يوقظ النيام ، وقلت : يستحيل أن يكون بشير خير ! . فإن الخير لا يتهافت من الصباح الباكر ، بل يتثاقل ، فى شكل شيك على البنك ، يصل متأخراً ، عندما نكون غائبين عن بيوتنا ، أو يوم عطلة البنك ، وليس فى جيوبنا إلا أجرة الأوتوبيس ! . . فنشعر أن « قارون » قد أقبل علينا حاملا عشرة جنيهات ، فنرهن « قارون » يومى السبت والأحد عند من نعرف ومن لا نعرف ، فإذا كان صباح الاثنين ، صرفنا قارون وفككنا رهنه ! .

ولم يكن المتكلم إلا صديقاً سيسافر عصر ذلك اليوم إلى لندن لقضاء بضعة أيام ، وقد وصل لسوء حظه — أو حظى أنا — قريب له من صعيد مصر ، لا يعرف من الفرنسية حرفاً واحداً ، وجاء يدرس فى باريس ! . .

وكان ما يريده منى أن أعنى بقريبه هذا خلال تلك الأيام التى يغيبها عن باريس ، ويسألنى موعداً سريعاً ليعرفه بى . .

فأنت إذن ترى نوع الهدايا الواردة من مصر . . ولكن ما خفى كان أعظم ! .

* * *

وضربنا موعداً : بعد الغداء فى « كافيه دى پار » أمام حديقة اللكسمبورج - وكنت أمنى النفس بأن أجد شخصاً جذاب المحيا ، خفيف الروح ، مثل الأستاذ عبد الحميد عبد الحق . . أو أمنى النفس - على الأقل - بأن أسمع لهجة الصعيد الشائقة من حنك لحنك صديقنا حسن الأعور . . ولكن بالله لاتعدنى ، ياقارئى العزيز ، مبالغاً ، إذا قلت لك : إننى — أنا المشهور بأننى لست فى الجمال نجماً سينمياً ولا مسرحياً — قد اقشعر بدنى من رؤية القادم الجديد ! . .

لك الله ياباريس ! . . ما أكثر ما اتسع قلبك فى السلم والحرب لبلايا الأصدقاء ، وكوارث الأعداء ! . .

فارسم إذن فى صحيفة خيالك مخلوقاً أقرب إلى حيوان وحشى غريب منه إلى إنسان من بنى آدم . . واجمع بين صورة « فرانكشتين » المخيف ، وصورة شارلز لوتون فى دور « أحدب نوتردام » ! . . واعجن هاتين البشاعتين لتخرج منهما بشاعة منقطعة النظير !

كان جسمه مثل جسم صديقى مصطفى أمين + جسم صديقى على أمين + جسم صديقى كامل الشناوى ! . . وكانت كل شعرة فى يديه تعادل حاجباً من حاجبى صديقى أحمد الألفى عطية ! . . . وكانت له جبهة بارزة ، بحيث خيل إلى أنها ستصطدم بالسيارات والمركبات ! . . وكانت له أنياب ملتوية على بعضها ، منها مابرز وقاحة ، ومنها ما استحى حياء ! . . وكانت لرقبته الثورية جوزة أقرب إلى جوزة الهند الصغيرة منها إلى « عين الجمل » ! . . وكانت يده إذا بسطها غطت منضدة المقهى وسألت هل من مزيد ! . . فتخرج أظافره عن حافتها كالمخالب التى تتحفز لتنشب فى الكائنات . . . أما حذاؤه الذى اشتراه من « بين الصورين » فكان مشروع قارب يمخر عباب النيل ، ثم عدلوا عن المشروع ! . .

وكان هذا كله : من عينيه الجاحظتين ، إلى صوته الأجش ، إلى قهقهته الأقرب إلى هزيم الرعد ، مجموعة منفرة بشعة إلى أقصى حدود البشاعة . .

ولم يكن فيه مقبولا غير اسمه : « أبو خليل » .

ولم أكد أراه حتى خيل إلىّ أن أخطف سجادة من تلك السجاجيد التى يسرح بها على قهاوى باريس التونسيون والمراكشيون . . وأبسطها أرضاً وأصلى لله شكراً ، على قارعة الطريق ، حمداً لله الذى عافانا مما ابتلى به كثيراً من خلقه ! .

وسافر صاحبى إلى انجلترا ، وترك لى وديعته الغالية ! .

ثم تحول نفورى ، قليلا قليلا ، إلى شفقة ، فرأيت حيرته ، فهو لا يستطيع أن يشرب كوب ماء إلا ويسألنا إياها لنترجم له . . فدعوته فى المساء إلى العشاء .

وكانت صاحبتى ستتعشى معى يومها ، وموعدنا السابعة والنصف ، بعد أن تغلق حانوتها المخصص لصنع القبعات وبيعها . وكانت فتاة وهبها الله من جمال الجسم ما وهبها من خفة الروح ، وسلامة الذوق . فحملت هم « النكبة » التى سأقدمها إليها ، وأحملها على العشاء معها ! . . غير أننى كنت واثقاً من حبها وتسامحها . . .

وكانت لها أخت هى آية الفتنة والرقة . كانت تلك الأخت تملك أيضاً محلا لصنع الأزياء ، قريباً من محل أختها . كانت فتاة إذا سنح لخطرة النسيم العليل أن تتجسد فتاة لاتخذت « چانيت » ، تحل فى كيانها الشفاف ، الأنقى من النور ، ولا ترضى عن صفائها بديلا ! .

وما كان أشد حيرتى و « وحستى » ، إذ رأيت « چانيت » قد جاءت مع أختها لنتعشى معاً . . وقالت ضاحكة إنها دعت نفسها ، وستدفع ثمن عشائها ! . . ولكن قلبى كان مغلقاً لا يستطيع الضحك ، ولا حتى الابتسام ، لعلمى بأنه سيشاركنا العشاء . . . أحدب نوتردام ! . .

وكان فندق الوحش مجاوراً للمقهى ، فوجدناه رابضاً ببابه . . فقمت بعملية التعارف . . وإذا بى ألاحظ وجه « چانيت » قد شحب فجأة . وكأنه ذبل فى

لحظة . . فأدركت أنها جزعت من تلك البشاعة ، هى ، الرقيقة كالزهرة ، الشائقة كالحلم بالحب . . فهمست فى أذنها ، أعتذر لها ، عما أصابها بسببى ، وقلت لها إننى أفهم ما بها ، ولكن ما باليد حيلة . . فنظرت إلىّ ، ثم خفضت بصرها ، ولم ترد علىّ الجواب ، وكأن شيئاً فيها يغلى ، ويكاد ينفجر . .

وكنت أسأل الله أن ينتهى العشاء قبل أن يبدأ . . ولما جئنا إلى مدخل المطعم ، ضغطت چانيت على ذراعى ، وقالت بغتة : « على الضد مما تقول ! . . انى أراه جميلا ! . . هذا هو جمال الرجال ! . . هذا هو الجمال الذى أحبه ! . . اله هذا الرجل ، هو رجلى ! . . . »

فكدت أصعق ! . . وحسبت أن البنت قد أصابها مس من الشيطان ! . . وسألت عينيها الصافيتين صفاء يحير الألباب عن مدى ما وراءهما من خبل ! . . فإذا بها تسدل أهدابهما الطويلة ، كأنها تحتجز رؤيا جميلة لا تريد أن يشاركها فيها أحد ! . . وجلست تنظر إلى « أبو خليل » نظرة العابدة التى كانت ضالة ثم اهتدت . .

وسمعتنى أخاطب صاحبى ، وأقول له أن يخفف من صوت شربه الماء ، لأنهم يعتبرون ـ فى أوربا ـ أن مص الماء بصوت عال أشبه بشرب الحمير . . وأن يخفف من المضغ المرتفع ، وألا يضع قرصاً كاملا من الخبز فى فمه ، ويلوكه ، لأن الخبز كثير ، وهو فى المطاعم بلا مقابل . . .

ففطنت « چانيت » إلى أننى أؤنبه ، أو أعلمه . . فسألتنى فى هذا ، فترجمت لها ، فقالت : « دعه ! . . فليفعل ما بدا له ! . . فهكذا يأكل الرجال ويشرب الرجال » ! . .

فابتسمت ، وسرى عنى ، وقلت لأختها : « إننا لن نقوم عن المائدة حتى تسلك چانيت أبا خليل فى عداد الأبطال ! . . »

وبعد ذلك بأسبوع كنا فى ضاحية سان كلو ، نستريح من عناء المدينة ، ونرقد على العشب ، عند القيلولة ، وكانت « چانيت » تتأمل محاسن صاحبها الفاتنة ! . . وتقول لى : « سله بالله : هل يحبنى ؟ ! » . . فسألته ، وأمرى إلى الله . . فقال الوحش : « قليلا » ! . . فترجمت لها . . فتنهدت ! . .

* * *

وعاشا معاً ثلاث سنوات ، وهو يشاركها مسكنها الأنيق ، وطعامها الشهى ، وذوقها السليم المصفى . . . وتعلم منها : اللغة ، والأناقة ، والأكل ، والذوق . . . وتعلم منها : الحب . . .

وقلت له آخر مرة رأيته فيها : « اعترف بأننى كنت صاحب الفضل عليك » ! . .

فنظر إلى « چانيت » التى كان يستطيع أن يرفعها على كف واحدة ، وقال الوغد مبتسما : « كان عندى فى مصر أجمل منها » ! . .

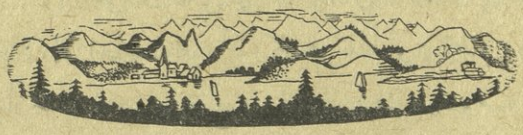

شرقيـــة وشرقيـــة

« إن الحرب المشتعلة حولنا ، والتى يصلى العالم سعيرها ، لادخل لها فى عالم المرأة ، الذى يشتعل دائما بنيران الحب والغيرة . فلنستمع إلى امرأة تتحدث عما أصاب عالمها الصغير .. لنرى كيف تفوق المرأة فى الوصف أبلغ الكتاب » . .

قالت سعاد :

« لعل زوجى عند ما رآنى كان لا يفكر فى الزواج ، فقد كان يبدو عليه الخوف منه . وقد جمعنا القدر فى عيادة طبيب . وكنت على وشك الموت . . فهل بدأ شعور زوجى نحوى إشفاقاً ، ثم تحول حباً ، أم تراه قد بدأ حباً ، ثم تحول إشفاقاً ؟ !

ماذا أقول ، ويكفى لوصف الزواج مثل واحد ، فقد كان زوجى ، فى العام الأول ، يقول لى ، إذا سألته مالا : « كيف تسألينى وأنت تعرفين مكان محفظتى ؟ خذى منها ما شئت ، بلا سؤال ولا جواب ! » . . وفى العام الثانى - وكنت سائرة على هذه القاعدة مع الدقة وحسن الذمة وعدم الإسراف ، ولكن قد مضى عام - قال لى : « أرجو أن تطلبى منى ما تريدين لأعطيك إياه . . » . . وفى العام الثالث كان ، إذا احتجت نقوداً ، وكان هو نائماً أو فى الحمام ، وأخذتها حتى لا أوقظه أو أزعجه ، يغضب ويصيح : « لقد قلت مئة مرة ومرة إننى لا أريد أحداً يضع يده فى جيبى ، ويفتش محفظتى بلا إذنى ! » . . فكنت أبتسم أسفاً على مرور الأيام وكر الأعوام التى يضعف معها الحب وينطفىء الهيام !

وأنت الآن تسألنى عن أشد ما بليت به منذ زواجى .. ألا فاعلم أننى عشت من دهرى ثمانية أشهر كانت جحيما مقيما .. عرفت فيها أن كلمة « عقارب الغيرة »

ليست مبالغة ، فقد ظلت فعلا تلسعنى ، ويسرى سمها فى بدنى . . وعند ما أقول فى بدنى ، أعنى : بدنى وروحى وفؤادى جميعاً .

بعد ما عقد قرانى ، استأجرنا شقة جميلة ، فى حى الدقى ، بعمارة جديدة ، لا يفصلها عن عمارة تقابلها إلا بضعة أمتار . فقد تكاثرت الخلائق وتزاحمت على لقمة العيش ، وعلى أرض الله ، مع أنها واسعة الفضاء . . وسبقنى زوجى إلى البيت بشهر ، أو نحو ذلك من الزمن ، كان فيه الأثاث يصل تباعاً ، وكنت أزوره مع أهلى لماما ، حتى زففت إليه ، بلا زفة . لأننا من الناس المحافظين ، وليس زوجى فتياً . .

ماذا جرى فى ذلك الشهر ؟ ! الله وحده يعلم ! غير أنى ، وقد جئت لأسكن وأعيش وأخدم وأتمتع وأحب ، وجدت زوجى ينظر إلى البيت المقابل لنا ، وهو عمارة أكبر من عمارتنا ، ذات حديقة كبيرة . . فلما فاجأت نظرته بعد ما تعقبتها ، وجدتها تلتهم جارتى . . فخطرت لى فى الحال تلك الأغنية الحزينة « جوزى اتجوز عليا ، وأنا لسه الحنه فى إيديا ! » ، فاستعذت بالله من الهواجس . . ونظرت من شباك آخر . وكل الشبابيك لدينا تطل وترى ، وتفتح علينا أبواباً من الشر لا عداد لها . . فرأيت . . وماذا رأيت ؟ ! امرأة ! . . يالله ! . . كيف أصفها ؟ وهل تستطيع امرأة أن تصف امرأة ؟ ! إنها لا بد لها من رجل يرى فيها ما لا تراه عين المرأة ، ولا سيما إذا كانت تلك المرأة غيوراً مثلى . .

سأحاول . . كانت امرأة تختلف عنى كل الاختلاف . كانت منى طرف النقيض . أنا سمراء وهى بيضاء . أنا متوسطة الطول وهى طويلة . مياسة الغصن . تتكسر فى مشيتها ، كأنما تسأل الرجال ، فى كل خطوة ، أن يجبروا كسرها ! . . ثم أى محياً هو محياها ؟ إنه من الحرير . . من المخمل . . إن بشرتها كأنها قدت من الخوخ . . لا تضع بودرة ولا أحمر . . تكاد لرؤية بشرتها الناعمة تمتد الأيدى لملامستها والتلذذ بخوخها . . وعينان ! رباه ! يالعينيها . . تنفثان سحراً

وناراً يدعوان الرجال إلى الحب والسلام ، ويدعوان النساء إلى الحرب والخصام ! .. أما شعرها .. فلم أره قط على رأس امرأة .. شعر غزير كأمواج البحر ، فاحم داكن ، لا هو أسود ، ولا هو أزرق ، بل هو بين بين .. شعر كالليل الذى ليس فيه قمر ، ولكن أشرقت فى زرقة السماء كواكبه ! رأس كل شعرة فيه هى سلك كهربائى ، يلتف حول عنق الرجل فيأسره ، أو هى سهم لا سلكى تريشه وترسله إلى قلب الرجل الموعود ، الذى يعرف ماهو جمال النساء !

وحسبى هذا . إن تكرار هذا الوصف يزيد شجنى ، ويذكى ألمى .. إن جارتى كانت من ذلك النوع الذى تدعو كل جارحة فيه إلى الهوى . وكانت صاحبته واثقة من نفسها ، ومن جمالها ، ومن سلطانها على الرجال .. وكانت تنتظرنى لتتحدانى أياً كنت أنا ..

وأنا ، كما ترانى ، لست امرأة قبيحة أو دميمة .. بل إنى أعد جميلة .. بل إن زوجى كان يقول لى دائماً إننى أجمل من رأى من نساء فى الشرق والغرب ، وهو بنساء الشرق والغرب خبير .. بيد أنى أحسست لأول وهلة أننى لست أهلا لهذا النزال .

يا ليت ! .. يا ليتنا ما كنا قد سكنا هنا ، وكفانا الله شر القتال !

نهايته ! وجدتها تنتظرنى . وجدتها واقفة فى كل نافذة ، فى كل شرفة ، فى كل مكان .. وجدتها فى كل ركن من البيت .. تحت الشجر ، وفوق الشجر .. وجدتها فى كل شكل ، وفى كل ثوب ، وفى نصف ثوب ، وفى ربع ثوب شفاف لا يكاد يكون ثوباً ! .. وجدتها فى الصباح بقميص النوم ، غلالة من حرير أبيض ، ثم أحمر ، ثم أصفر ، ثم أزرق ، ثم أسود .. ثم فى بيجاما ، ثم فى قميص .. وفى هذا كله كانت أجمل ما تكون المرأة . تقف ساعة أو ساعتين أمام مرآتها ، لا تشبع من زينتها ومن النظر إلى مرآتها ، ولا تشبع حتما مرآتها منها ! .. وكانت تلتفت من تحت ذراعها المرفوعة تداعب شعرها ، وتنظر

من طرف خفى ومن طرف صريح .. لا تبالى .. تنظر ، فإذا رأتنى ضحكت ضحكة عالية لها رنين موسيقى بهيج .. ومع ذلك أقسم أننى كنت أجزع له أشد من جزعى لسماع صفارات الإنذار .. كان هذا هو الإنذار لى بأننى إزاء عدو لدود ، شديد الشكيمة ، قوى المراس ، طويل المقام .. كيف نحول عن هذا البيت ؟ وليس فى البلد « خرم » إبرة خالياً ؟ وكيف لى بهذه المصارعة وأنا فى شهر العسل ؟ هل سأشغل بزوجى وبيتى وحياتى الجديدة ، أم سأشغل بصراع امرأة أبعد ما تكون عنى وأقرب ما تكون منى ، وهى مع ذلك الأقوى لأنها الأجمل . وهى الأقوى لأنها البعيدة عن زوجى والغريبة .. وأنا منه دانية قريبة ؟! وهى الأقوى لأنه لا يملكها وهو يملكنى .

ما باليد حيلة !

وكانت تقف فى الڤيراندا ، فى ضوء القمر . فكأنها تمثال عجيب من العاج ، لا يستطيع الرجال أن يروه إلا ويتعبدوا له ، ولا يستطيع النساء أن يرينه إلا ويرجمنه بالحجارة ! . .

لقد أحسست أنى أذبل من رؤيتها .

وشغلت بها أكثر ، ألف مرة ، مما شغل زوجى . كنت لا أكاد أزور أهلى ، خشية أن أترك زوجى وحده . فلا أخطو خطوة إلا وهو معى .. وكنت إذا غبت بعض الوقت عند جيران شقتنا ، عدت فنظرت فى الڤيراندا لأرى مواقع الكراسى ، ووجهتها ، وأين طقطوقة السجاير ، وما عدد أعقاب السجاير ، لأخلص من هذا كله بنتيجة أطمئن لها أو أضطرب .. لأعرف كيف كان زوجى جالساً ، وهل كان متجهاً إلى نافذتها ، يتظاهر بمطالعة الصحف .. وهل طال مقامه إزاءها ؟ !

وبلغ بى الأمر أن كنت أعنفه على ذلك بالحق أو الباطل . لعله كان مظلوماً . ولكنى كنت أحس بغريزة المرأة أن هناك فى الجو شيئاً ، شيئاً مريباً ، وأنه يخفى عنى أمراً . .

وفى ذات يوم بلغت روحى التراقى ، إذ رأيتها تفتن الألباب ، وتضحك فى وجهى . . فشتمتها . . قلت : « قلة أدب ! . . ناس مايخشوش ؟! » . . فلم تزد على أن ضحكت ضحكة طويلة ، رنانة ، موسيقية ، فيها كل الإغراء ، ولو سمعها عشرون رجلا ، « لكعبلتهم » هذه الضحكة فى الأغلال ، وساقتهم وراءها ، كأنهم مربوطون فى حبال ، ولو ساروا إلى سقر ! . .

لقد زادت جارتى فى تعذيبى بأدبها وترفعها عن الرد علىّ . فزدت فى شتائمى ، وزادت فى حلمها . . حتى تساءلت بينى وبين نفسى : هل تحط الغيرة من خلق صاحبها ، بحيث ينطق بألفاظ كان لا يتصور النطق بها ؟!

وبعد تلك الشتائم الحادة ، من طرف واحد ، رأيت ما صعقت له . . رأيت أنها أدخلت « التليفون » !.. فكدت أجن . لقد أصبح اتصالها ميسوراً دون أن أعلم ، لقد صار بوسعها أن تخاطبه أمام عينى . . فبذلت جهداً مضنياً ، حتى لا يرى زوجى التليفون . . فما كان من خادمتها إلا أن وضعته يوماً على الشباك !.. فرآه زوجى . . وقال : ماذا ؟ إن جيراننا أدخلوا التليفون . . فقلت بلهفة ورجفة : كلا ! . . كنت كمن ينكر الشمس الطالعة . . قلت : هذه علبة سوداء ! . . أو لعلى يومها قلت ما هو أسخف من ذلك ! . .

ثم دق التليفون يوماً عندنا . . وكنت لا أدع لأحد سواى أن يرد ، خوفاً منها . . ذلك الغول الجميل الفتاك ، الذى كان ينهش لحمى ويبرى قلبى . . فإذا بها هى ! واشقوتاه من جرأتها ! . . كانت تتكلم بصوت مهذب رقيق . . فنادتنى باسمى . . إذن فقد عرفت اسمى ، واسم زوجى ، ورقم تليفوننا ، وكل شىء . . كل شى ! . .

فسألتها : من التى تتكلم ؟! قالت : واحدة ، أنت تكرهينها ، وهى تحبك !

وظلت هكذا برقتها تقلم أظافرى ، وتكسر من حدتى وشرتى . . وسألتنى أن تزورنا هى وزوجها . . فلم يسعنى أن أرفض . . كان شوق خفى يدفعنى إلى

رؤية هذه المرأة عن قرب ، وإلى سماعها تتكلم . . وكنت أعلم أنى بذلك أدخل النار إلى بيتى . . ولكن هل كانت النار بعيدة عنه ؟!

وفى اليوم المحدد لزيارتها أصبت بالحمى ، حمى المرأة التى تواجه المرأة . هل أقسم لك أنى بقيت أمام المرآة ثلاث ساعات كاملة أو أكثر ؟! لقد وضعت وخلعت عشرة أثواب حتى تصورت أنى لبست أجمل ما عندى . وتزينت زينة لم أتزينها لزوجى يوم دخلتى ، لم أبذل فى ليلة زفافى بعض ما بذلته لأتجمل لعدوتى !

ودخلت قبيل حضورها عند جيرانى ، أسألهن ، هل أنا جميلة ؟ . . فدهشوا من كل ما صنعت فى وجهى . . لقد كنت فعلا جميلة . ولكن شيئاً خفياً أشرق ولمع فى عينى . . إن نار الغيرة لها لهيب مستعر ينعكس فى العيون .

وانفردت بزوجى ألقنه تعاليمى . فهو الذى سيفتح الباب لها . بينا أكون أنا فى غرفة النوم . فيجالسهما نحو خمس دقائق . حتى أدخل على مهل ، متظاهرة بعدم الاكتراث أو التلهف ، وما إلى ذلك . .

ودق الجرس فى الساعة الخامسة تماماً . فأسرع زوجى . وواربت الباب : فإذا بها تدخل وحدها ! من دون زوجها ! فلم أتمالك أن جريت إليها ، خشية أن تخطف زوجى وتطير ! لقد خيل إلىّ أنها قديرة على ذلك . . فاعتذرت لى بأن زوجها سيتأخر قليلا ، ثم يلحق بها . . ولم يلبث زوجها أن جاء .

كانت هذه هى الساعة الفاصلة بينى وبينها . فشعرت ، بعد تلك العاصفة الهوجاء من الاضطراب والقلق والخوف ، بشىء من الشجاعة ، الشجاعة المغتصبة من صميم الخطر ، كالجندى الذى ينزل الميدان لأول مرة ، ولا سبيل أمامه للهرب ، ولا مجال إلا للنضال كالأبطال .

فماذا وجدت ؟! لقد قبلت التحدى بعد ما أضنانى الجهاد ضد غريمتى ثمانية أشهر طوال . وها هى ذى ! بكل جمالها وإغرائها ! فماذا وجدت ؟ إنها لا تكاد تتكلم !.. لقد قلت لها : « آنستنا يا . . هانم ! » ، فكانت ترد فى حياء مدهش :

« الله يؤانسك ! » ، وبس ! . . لا شيء أكثر من ذلك ؟ ! أين إذن أسلحتها ؟ أين إذن نارها ؟ ! أين ما كانت ترسله إلى زوجى كالسهام من نظرات ، وترسله علىّ كالصواعق من ضحكات ؟ ! أين . . أين ذاك الدلال الذى كان يتفجر من وراء الجدران ؟ !

لقد طال صمتها وترددها . . وبدت إلى جنبي بكماء ! . صرت أنا التى تتكلم ، والتى تضحك ، وتتدلل . . وظلت هى تنقص ، وأنا أزيد ، هى تصغر ، وأنا أكبر ، هى تتناقص جمالا ، وأزداد جمالا ! . .

واتجهتُ إلى زوجها . . أريد أن أجذبه بدورى . . لقد آن أوانى : فاتجهت إليه بعقلى ، وقلبى ، وعينى ، ولسانى ! . . صرت امرأة أخرى ، جريئة ، مغامرة ، تريد أن تفتن الرجل الذى أمامها ، من دون أن تكون بحاجة إليه ، أو يهمها أمره ، وإنما هى تريد أن تنتقم من زوجته ، وتضايقها ، وتؤلمها ، و « تكيعها » ! . .

كنت أنا الجميلة . لأنى كنت الجسم والروح . ولم تعد هى إلا جسما ، إلا لحماً ! . .

وتلاشت فى غمضة عين غيرتى . وتبددت لوعتى . وحزنت على ثمانية أشهر قضيتها فى جهنم الغيرة ، أشوى منها على السفود . .

وأغمضت عينى من فرط الهناء ، إذ وجدت زوجى يكاد ينصرف عنها إلى زوجها . . هو الذى لا يهمه شيء مثل العقل الجميل . .

ومن يومها تركت النوافذ مفتوحة على مصاريعها . . وصرت أنا التى تضحك ، وتصيح ، وتصول ، وتجول . . »

* * *

هذا حديث سعاد . . وبقى حديث زوجها ، وحديث غريمتها . .

وهى قصة لم تتم بعد فصولا . .

فى مقهى جامع باريس !

أغسطس ١٩٣٩ . . .

إنه حديث عن الأمس وعن اليوم ، عن بعض ذكريات الماضى الذى يرجع إلى عشر سنوات ، وعن لمحة فى هذا الأسبوع ، فى المكان عينه . وما أشبه الحديث بدمعة وابتسامة ، مثل جو باريس ، الذى تدمع فيه عيون السماء من خلال شمس مشرقة . . .

جئت باريس فى الشتاء الماضى ، ومع ذلك لم أرد أن أعود إلى مقهى الجامع ومطعمه ، لأن الصورة الحية الجذابة التى كانت تملأه بهجة ومرحاً قد اختفت من الدنيا بموت « الحاج طاهر الصباغ » . . حتى دعانى هذا الصيف ذات يوم إلى الغداء صديقى (المرحوم) إبراهيم عامر باشا ، وإذا بالسيارة تتجه بنا ، من حيث لا أدرى ، إلى جامع باريس . . فدخلت المطعم لأول مرة بعد هذه السنوات الطويلة ، مع الباشا الثرى المحبوب ، وسكرتيره الخواجه ليفى شمنهطوب ! (اسمه كده ! . .) . . ثم عدت إليه مرة أخرى فى هذا الأسبوع ، مع صديقىّ العزيزين : النائب المحترم والكاتب المفتنّ أحمد الألفى عطية ، والأستاذ على أمين المهندس النابغ (بحق وحقيق) . . وبعض العقيلات المصريات الفاضلات . . .

لقد جعلنى « علىّ » أبتسم وأضحك مرة أخرى فى ذلك المكان الذى طالما بسمت فيه وضحكت مع الحاج طاهر . . فقلت لنفسى : علام الأسى ، وروح الحاج نفسها ما زالت تملأ المكان مرحاً وطرباً ؟ ! . . خير من الأسى أن نبعث إليها بهذه التحية الرحيمة . . لتعرف ، فى مستقرها ومستودعها ، أننا ما زلنا لها من الأوفياء الذاكرين ! . . .

كان الحاج طاهر الصباغ رجلا عملاقاً ، فى حدود الشيخوخة ، ولكنه يجمّل كهولته بعزم الشباب . . وهو ، بصدره العريض ، وقامته المذيدة ، وبرانسه الحريرية ، كأنه من غزاة الرومان الفاتحين . . يستقبلك ببشاشة : « أهلا وسهلا بونچور مدام مسيو . . . بلاس سلڤوبليه ياعبده . . . شوية عود وطبل يا سيدى ! . . . »

هكذا كان صوته يدوى رخيما ، مصطحباً أحياناً بفرقعة من أصابعه ، وهزة راقصة من كتفه ! . ولا بد له إذا رآك من أن يردد بيتاً من الشعر والقصيد !.. دخلت إليه يوماً ومعى فتاة فرنسية حسناء ، كنت أسكن عند ذويها . فلما رآنا أقبل سريعاً ، وتناول يدها فلثمها ، ثم نظر إلىّ حاسداً على هذه « الماسة الفريدة » ، وقال ناظراً إليها :

خطرات النسيم تجرح خـــديـ
ـه ولمس الحرير يدمى بنانه

فسألتنى أن أترجم لها ، فترجمت . . وابتهجت هى ، ورأت كل ما فى مقهى الجامع ظريفاً ، لا سيما الحاج طاهر الصباغ : الشاعر ! . وكنت مرة ، أول وصولى باريس ، أسكن نزلا (پنسيوناً) متواضعاً فى الحى اللاتينى ، مع قريب لى وصديق . . وكان الحاج طاهر قد دعانا إلى « الملوخية » و « الكسكسى » أكثر من مرة ، فرأينا أن نرد له يوماً بعض دعواته ، فدعوناه لعشاء على قدر الحال ، فى ذلك البنسيون الذى كانت قاعة الطعام فيه ، على صغرها وضيقها ، تضم نحو ٤٠ شخصاً من نحو ١٥ دولة ! . . بين شبان وفتيات ، جلهم ، إن لم يكن كلهم ، من طلبة العلم فى السوربون .

وفى موعد الأكل ، جاء الحاج طاهر . . فلفت جميع الأنظار ، بقامته المهيبة ، وعينيه اللامعتين ، وثيابه المراكشية من الخز والديباج العاجى ، و « بُلغته »

الفاسيّة البيضاء . . ولكن تصور دهشتنا وحيرتنا و« مصيبتنا » فى تلك الليلة ، عند ما دخل قاعة المائدة وراء الحاج « جرسونان » مراكشيان ، بسروالهما ، وصديريتيهما الموشاتين ، حاملين سبع حلل ملأى : بالدجاج ، والكفتة ، والكباب ، والكسكسى باليخنى ، والكسكسى بالسكر ، والملوخية ! !

لقد حمل إلينا طعاماً يساوى وقتئذ نحو ٥٠٠ فرنك ، أى أربعة جنيهات ، لنا نحن الأربعة ! . . وضع الرجلان الحلل على المائدة ، بين نظرات الدهشة والتطلع والإعجاب من البعض ، والاستنكار والغمز أو الابتسام من الآخرين ! .. فتصببنا عرقاً ، ولم نعرف ماذا نقول ، أو ماذا نفعل . . وهل يعد هذا نوعاً طريفاً من تلبية الدعوات ، وأنّى لنا أن نجد هنا « الأطباق » الفارغة التى يوضع فيها هذا الطعام ؟ !

والحاج يقول : « أعطوا الجميع ! . دعوهم يأكلوا معنا ! . . إنهم حتما يجوعون هنا ! . . » . وكنا فعلا فى ذلك البنسيون نجوع ، بل ونموت جوعاً ، بالنسبة للمآكل الشهية الفنية التى حملها إلينا الحاج طاهر ، ذلك الشهم المغربى الوفى الكريم .

* * *

قلما رأيت مثله راوية للأشعار ، تجلس إليه الساعات الطوال ، فيجعل مجلسك سوق عكاظ . . ولا سيما جانب الغزل والنسيب . . فقد كان ذلك الشيخ يذوب وجداً وصبابة . وكان يتكلم الفرنسية ، ولا يقرأها أو يكتبها ، فيحمل إلىّ أحياناً خطابات فياضة بالعواطف ، ويسألنى ترجمتها . وكثيراً ما اشتركت وصديق الأستاذ « عبد المنعم الشريعى » فى الترجمة ! . . ثم فى الرد عليها !

هذه هى الصورة الجميلة التى ملأت مقهى الجامع ومطعمه ومغناه دهرا ، ثم غابت الآن عن الوجود . . ومع ذلك يخيل إلى ، كلما قصدت الجامع ، أن ذلك الصوت العذب ما زال يملأ الجو . . ويملأ أذنى ! . . .

وجلسنا على الأرائك ، وطلبنا القهوة والشاى والحلوى .. فى ذات المكان الذى عرفنا وعرفناه منذ عشر سنوات . . وكانت الموسيقى الشرقية تصدح بنواحها الشجى ، فى الحديقة الجميلة ، ضمت من العشاق بين حناياها اثنين اثنين ، من كلٍّ زوجين ! . .

وتدفقت جموع السياح . . وكانت سيارات « الأوتوكار » لا تنقطع حاملة رواد باريس فى هذا الموسم وخلال إجازات ١٥ أغسطس المشهورة . فلم يكن من الصديق « على أمين » إلا أن أخذ عمامة أحد إخواننا المغاربة فلبسها ، ثم وضع طربوشه على رأس « الألفى عطية » ، وتربع ، وأخذ مخدة على حجره ، ووضع يد الألفى على المخدة ، وراح ينظر خطوط حظه ، بينما هو يدخن الشيشة .. والناس من حولنا يتجمعون ويتجمهرون . فطلب منى أن أصيح ، بالإنجليزية والفرنسية : « مغربى يفتح الكتاب » .. فوقفت فتاة أمريكية ، كأنها حورية من الجنة ، تنظر إلينا فى دهشة واستفهام ، ففسرت لها مطالعة البخت فى الكف ، فبسطت « للشيخ على » يدها البضة الناصعة ، فكأنها نثرت على الوسادة كفاً من اللآلىء ! . فأمسك « على » طاسة نحاسية صغيرة ، فيها نقود فضية ، وقال لها بالعربية ، كما لو كان لا يعرف غيرها لغة : « ارمى بياضك » . فنظرت إلىّ ، فترجمت لها ، وترفقت بها ، لجمالها ، فقلت : « بياضك ٢٠ فرنكا » ! .. فوضعت النقود فى الطاسة . . فقال « الشيخ على » :

— أنت فتاة لا يفهمها أحد . . إن روحك وثابة ، ولكنها لذلك أيضاً معذبة ، شديدة الذكاء . . وأنت مع ذلك طيبة القلب : تصدقين الوعود التى كثيراً ما تكون كاذبة ، فيخيب أملك ، لأنك تعتقدين أن الناس جميعاً صادقون ، على شاكلتك . . ولكنى أرى فى الأفق شبح رجل . . الشبح أبيض ، والبياض فى الأشباح رمز الوفاء . . هذا الرجل إذا وعد وفى ، أظنه سيعد قريباً — إن لم

يكن وعدك منذ قليل — وهو صادق، فيكافىء صبرك، ويضمد جرحك . . .

فنظرت إلىّ الفتاة متوسلة، سائلة :

— هل يقول « الشيخ » إنه يجب أن أصدق ؟!

فاحترت والله !.. نظرت إلى عينيها الزرقاوين، تكاد تترقرق فيهما دمعتان، وكدت أصيح فى « على » : « كفى تهريجاً يا شيخ ! » .. لكن عز على أن تحكم علينا هذه الفتاة بالعبث والسخرية من شعور الناس، ولا سيما أن معنا سيدات من المفروض أنهن صادقات !.. فقلت، كأنى أترجم، بعد ما لعنت سنسفيل « على » :

— أجل . . صدقيه . . ولكن بحذر . . فلا تندفعى فى تصديقه اندفاعاً أعمى، لأن فى الجو سحابة صغيرة، قد تكون من جانب أهلك أو أهله .. فاحفظى خط الرجعة . . واحذرى السلاح الذى تلعب به المرأة عادة، لأنه ذو حدين !

وجاءت عجوز أمريكية شمطاء .. خط شاربها .. فصاح بها « الشيخ على » !..

فنظرت إليها وقلت : « خمسون فرنكا ! . . ارمى سوادك ! » . . فوضعت الفرنكات فى الطاس، وسألت : ما هو السواد الذى ترميه ؟ فقلت لها : إن كل همومها ستنسحب منها بفضل تعاويذ « سيدنا الشيخ على » ، كما انسحبت منها الخمسون فرنكا ! . .

وراح « على » يقول إنها أصيبت فى حياتها بمأساة، ولكنه يرى تبديلا جلياً فى خط قلبها، وتحولا جدياً فى حظها . . ولم يكن ينقصه إلا أن يبشرها بغلام ! . . وكان الدليل قد نادى على قافلته، فهرولتْ إلى السيارة . . وتخلصنا منها ! . . وكشف « الشيخ على » عن رأس غارق فى عرقه ومرقه، من تحت العمامة المغربية . وترك « الشيشة » ، التى عدها السياح « بيبة » شرقية، وتهامسوا بضخامة « تعميرتها » ! . .

ونظر إلينا الشيخ المعمم نظرة كبرياء وزهو ، لأنه استطاع أن يكسب فى ربع ساعة ، وفى قلب باريس ، سبعين فرنكا ! . . ولو فعل ذلك عند « بديعة » لضربوه بالقباقيب ! . . .

* * *

وكذلك أراد القدر أن أعود فأكون ، فى هذا المكان من مقهى جامع باريس ، ترجماناً ! . . فمنذ عشر سنوات ترجمت فيه رسائل الغرام والحب . . واليوم ترجمت فيه قراءة الكف ، والنصب ! . .

فهل يجىء يوم أعود فيه محباً محبوباً ؟ ! . . يارب ! . .

مدينة النور : فى الظلام

كانت مدينة النور تستعد لزيادة نورها ، ومضاعفة حبورها . كان رجال الفن فيها قد راحوا يقدحون عبقريتهم لتخرج لهم أضواء جديدة تجمل المدينة التى ليلها أسطع من نهارها ، والتى تكسف مصابيحُها شمسَها وقمرها ونجومها جميعاً . . كانت باريس تهم بارتداء ثوب جديد من اللآلىء المشرقة ، عندما صاح النذير بها : إن الحرب على الأبواب . إن العدو يتربص بها . إنه غيور منها . إنه ناقم عليها ، يحسدها ، لأنها صاحبة الحظ من دون مدن الأرض كلها . . . لم تستطع برلين أن تنال منها ، إلا إذا نالت العجوز الشمطاء من الكاعب الحسناء ! . .

وظللت كل يوم أودع أصدقاء أعزاء ، آثروا الرحيل والعود إلى الأوطان . وما زلت أعلل النفس بانتصار العقل على الجنون . ولكنى كنت قد نسيت تاريخ هذه الإنسانية المعذبة ، أو تناسيته . وهو يدل على أن الجنون انتصر دائماً : الجنون بالمجد ، والجنون بالفتح ، والظمأ الحيوانى إلى الدماء ! . . كنت إذن واهماً ! . . إنى نسيت حتى حكاياتنا المحلية المعروفة . . نسيت حكاية ذلك المجنون الذى هرب من مستشفى المجاذيب ، وخطف ولداً صعد به إلى سطح عمارة ، وراح يهدد الناس بإلقائه إذا دنا منه أحد . . وأم الطفل تولول ، والناس يضربون كفاً على كف ، ويتوسلون إليه . . وهو يضحك منهم ، ويسخر من وجلهم ! . . واقترح رجل ذكى أن يكون الدواء من ذات الداء ، وقال إن للمجانين لغة لا يفهمها إلا المجانين . . فقصدوا مستشفى المجاذيب ، وعرضوا الأمر على نزلائه . . فتطوع أحدهم لإنقاذ الطفل ، وطلب منشاراً ، وقصد المجنون ، وبصق عليه بصقة ظن أنها تصل من الأرض إلى سطح عمارة من ستة

أدوار ! . . فرد المجنون الآخر ببصقة . . فقال له : « انزل يا وغد ! . يا مجنون » ! فأخرج له المجنون لسانه ! . . فقال له : « انزل وإلا نشرت العمارة بهذا المنشار » !

وراح فعلا يحز فى الجدار بمنشاره ! . . فصرخ المجنون الآخر فزعاً ، ونزل راضخاً مستسلماً ، وسلم الطفل لأهله ! . .

* * *

كان المستر تشمبرلين رجلا عاقلا يخاطب رجلا مجنوناً . . كان يلوّح بمظلته . . حملها إلى ميونخ بالطيارة ثلاث مرات فى أسبوع . . فلم يفهم هتلر . . إن هتلر كان يزعم أن اليد التى تحمل المظلة لاتعرف كيف تستخدم السيف ! . .

ذهل الناس من هول الموقف . تصوروا كل الخراب ، والدمار ، والفناء ، الذى تعرضت له البشرية فى طرفة عين . لم يكونوا خائفين ، ولكنهم كانوا مندهشين ، حائرين ، ذاهلين . . كانوا لا يتصورون أن فى الدنيا بشرياً قدّ من حجر ، لا يعرف الرحمة ، أو الحنان ، أو الحب . إن رجلا واحداً قد قضى على العالم بالحداد ، ولبس السواد : يتم الأطفال ، ورمّل النساء ، وترك الأمهات ثكالى . إن رجلا واحداً قد ارتكب أفظع جرم فى تاريخ بنى آدم .

فلما استيقظ الناس من دهشتهم ، رأوا أنفسهم مسوقين فى مواكب إلى الموت . . .

وكان لزاماً أن تخلو باريس من أكثر سكانها ، رحمة بهم ، وتخفيفاً لعناء حمايتهم . أى بلد فى الدنيا مسته الحرب والكرب مثل باريس ؟ ! . . إنها بلد الترف ، والوجاهة ، والزهو ، والأناقة ، والذوق ، والرشاقة . . إنها هى التى بدأت قبل الحرب بدفع الثمن .

هجر باريس مليونان من أهلها ، بناء على دعوة الحكومة ، ورجائها مغادرة العاصمة المعرضة للغارات الجوية . . ثم هجر باريس مليون ثالث (وسكانها أربعة ملايين) بعد الإنذارات بالغارات الجوية ، الليلية والنهارية .

تمر الآن فى الشانزليزيه ، وهو جنة الدنيا ، فلا تجد إلا خراباً يباباً . .

لقد مررت ، يوم السبت ٩ سبتمبر ، فى ساحة فندوم — أحفل ركن ، فى المعمورة ، بالوجاهة والعظمة ، الركن الذى يمر فيه الملوك والعاملات جنباً إلى جنب — فلم أجد فيه غير سيارتين اثنتين ، وثلاث قطط ! . .

أغلقت تسعة أعشار تلك المحال ، التى لا نظير لها فى الكون سلامة ذوق ، وروعة فن . إن باريس الرشيقة نزلت إلى الميدان ، انقلبت النعامة أسداً !

وأصبحت ترى على القاترينات فى كل مكان شرائط من الورق ، لتحول دون انكسار البلور ساعة الانفجار ، فكأنها نسيج العنكبوت ، أو أرجل الأخطبوط . . يا لها من دهشة كئيبة ! . لقد تحول النور الماسىّ إلى ظلام دامس ، أو زرقة جنائزية قاتمة . . وصرت ترى على كل واجهة : « سافر إلى ميدان القتال » . . أو : « الموظفون مجندون » . . أو : « موعدنا العام القادم ! » . . أو : « إلى اللقاء فى برلين ! » .

أما جميع الآثار ، والتماثيل الجميلة ، وزخارف الأوبرا ، وقوس النصر ، فقد وضعت عليها « سقالات » ، وعوارض خشبية ، وأكياس من الرمل ، حماية لها من شظايا القنابل ، حتى أصبحت أقرب شبهاً بالرأس المثخن بالجراح قد التفت حوله الضمادات !

أما مقاهى باريس ، وهى وحدها عالم بأسره ، يشرح الصدر بتنوعه وبهجته ، فقد عبس وجهها ، وتولّى بِشرها . . . سافر « الجرسونات » الشبان إلى ساحة القتال . . سافروا واحداً بعد واحد ، حتى لقد حدث أن جاء يوماً إلى مقهى « المارينيان » — مقهاى المحبب — جرسون نصّف ، ليحل محل شاب رحل ، فدخل ليتناول الطعام ، ثم يبدأ عمله . . ولكنه لم يكد يمد إليه يده ، حتى جاء النذير يدعوه أيضاً ، فهب واقفاً : يلبى نداء الوطن !

وحل الشيوخ الطاعنون فى الخدمة محل الشبان . . . وكلهم له أولاد فى

خط النار . . وكلهم فى عنقه أولاد أولاده وأولاد بناته . . وكلهم واجم مذهول . . كيف يمكن أن يرتاح لرؤية أجنبى فى ريعان الصبا — مثلى ! — لا يرتدى الثوب الخاكى ، بل هو فى نظرهم يرتع ، ويلعب . . بل ربما كانوا يزعمون — ظلماً وعدواناً — أنه يعيث فى الأرض فساداً ! . .

أصبح كل أجنبى فى باريس — أياً كان ، وأية كانت جنسيته — محل البغض والاحتقار ، إذا كان فى سن حمل السلاح ولا يحمله ، لا فرق عندهم بين : سائح ، أو طالب ، أو صحفى ، أو رجل أحلام ، يبحث عن ضروب من الأوهام . . .

لم نعد نستطيع أن نتناول فنجان قهوة ، أو صحناً من اللحم ، أو كأساً من الليمون ، إلا ونبلع مع هذا كله مقداراً كبيراً من « زغرات » الازدراء . . وكنا أحياناً « نزور » بهذه « الزغرات » ، ونتمرد عليها ، ونحاول أن نردها . . ثم نتمالك أنفسنا ، أو نتذكر أى جو حزين حولنا ، حرام على الناس فيه الابتسام . .

* * *

وهكذا عبست المدينة الضاحكة ، ووجمت : شوارعها ، ومتاجرها ، ومتاحفها ، وأهلها ، جميعاً . . . وتحول النور إلى ظلام ! . .

ولكنه ظلام موقوت ، لن يطول ، لأن الله سبحانه وتعالى يأبى أن يغرق هذه الحضارة طويلا فى طوفان من الدماء . . ويأبى إلا أن يتم نوره ، ولو كره الخفافيش ، أحباب عزرائيل ، وأنصار الفناء . . وتعود مدينة النور إلى الإشراق والحبور . . .

[باريس : سبتمبر ١٩٣٩]

غارات جوية : على باريس

كانت تجرى ، فى باريس ، قبل الحرب الحاضرة ، فى الساعة الثانية عشرة من ظهر كل يوم خميس ، تجربة صفارات الإنذار بالغارات الجوية .

كانت هذه التجربة ، التى سمعتها فى شتاء ١٩٣٧ ، ثم ربيع ١٩٣٨ ، بمثابة تنبيه الأمم إلى واجبها ، ودليل يقظة الحكومات لحماية رعاياها .

وقد عدت فسمعتها ، وا أسفاه ، فى سبتمبر ١٩٣٩ ، بعد إعلان الحرب ، تصفّر نهاراً ، فتكتسح الناس من أعمالهم ومكاتبهم ، وتقف السيارات ، والقطارات ، وتنهلع لها القلوب . . وتصفّر ليلا ، فتوقظ الناس من نومهم ، وتنتزعهم من فراشهم ، وتلقى بهم فى أغوار الأرض ، وبطونها ، ومخابئها ، وكهوفها ، وهم فى غلائل النوم ، لا تكاد تسترهم ، حيث يبقون الساعات الطوال .

انقلب الخيال حقيقة مروعة ، وتبدل الحلم يقظة موجعة . وبعد ما كان الناس يستمعون إلى صفارة الإنذار ويبسمون ، أصبحوا يسمعونها فى اكتئاب ويجرون ، وإلى مقابر الأحياء يهرولون !

* * *

الفرنسيون يعلمون ، والعالم كله يعلم ، أن هدف الألمان الأول سيكون باريس . فهى ليست عاصمة فرنسا وحدها ، وقلب دفاعها ، ورمز كبريائها وفخرها ، ومعقل حكومتها ، وكنز أسرارها وفنونها . . ليست باريس هى هذا فحسب ، بل هى أيضاً عروس البلدان : حجارتها تتكلم بأفصح لسان ، وشوارعها تنطق بما شهدته من ثورات فى سبيل حرية الشعوب ، وقصورها تتحدث عن أعجب جانب من التاريخ .

فمن يضرب باريس يهز قلب العالم . لأن باريس ليست وقفاً على وطنها .

لأنها البلد الذى اشتركت فى تكوينه الحضارات القديمة والحديثة ، والذى بعثت إليه كل الأمم ، حتى الأمة الألمانية ، بأذكى من فيها ، يحملون إليها ما فى جعبتهم من نور المعرفة ، ويأخذون منها ألواناً فاتنة من الذوق السليم ، والفن الجميل .

ولهذا كله ، لا تكاد طيارة واحدة ، من طيارات الاستكشاف أو التدمير والهلاك ، تجتاز الحدود الفرنسية ، عند ستراسبورج ، أو ملهوز ، ولو كانت تبعد ثلاثمئة أو أربعمئة كيلومتر عن مدينة النور ، إلا وتتجاوب أنحاء باريس بصفارات الإنذار ، الصارخة ، المرعبة . . .

فتصوروا حياة المدينة التى كانت من قبل لاتنام فرحاً وابتهاجاً ، أصبحت لا تنام جزعاً واكتئاباً .

شهدت من هذه الإنذارات الفاجعة ثلاثة ، فى خلال عشرة أيام . . وسأصف ، بقدر ما يسعنى الوصف ، لمحات من هذه الأزمات الجديدة على النفس البشرية ، النفس المعذبة بين مطامعها وأهوائها ، بين طغيانها ونزواتها ، بين استبدادها وذلها . . فإن ما قد يصيب اليوم باريس ، أو لندن ، لا بد من أن يصيب غداً : برلين ، وڤيينا . . وإذا كان جزاء وفاقاً أن يصيب برلين ، فما أصعب تصور أن يصيب « ڤيينا » ، وهى البلد الذى كان يتمنى العالم المتحضر لو انتقل روحه المصفى إلى برلين ، بدلا من أن تدمغه برلين بصليبها المعقوف ! .

* * *

كان الإنذار الأول بالغارات الجوية بعد منتصف ليلة من ليالى شهر سبتمبر الأولى . وأكثر سكان العمارة التى أسكنها نزحوا عن باريس ، لأنهم من ذوى اليسار الذين لهم بيوت فى الريف ، أو لديهم أسباب العيش فى كل مكان . . ومع ذلك كان لا يزال باقياً كثير من الخدم يُعدون معدات الرحيل الأخيرة ، ويعدون المساكن ، لتبقى بغير أهلها ، فيغطون فرشها ، ويسدلون سترها ، ولا

يتركون بها طعاماً . . فإذا الأبواب تفتح وتقفل ، بشدة ، وسرعة ، وعنف . . وإذا المصاعد ، ومنها ثلاثة للسادة وثلاثة للخدم (ومصاعد الخدم غليظة ثقيلة) إذا بها كلها تحمل السكان إلى المخابىء الأرضية . والبوليس يصفر بصفارته الخاصة الطويلة ، تنبيهاً لمن أناروا غرفهم ، عند يقظتهم ولهفتهم ، ليطفئوا النور ، ويلتمسوا كل شيء فى الظلام الدامس . . وصفارات الإنذار المحزنة ما زالت تولول ، كأنها ألوف الأمهات ثكلن أولادهن فى لحظة واحدة ، فأخذن يصرخن ويندبن جميعاً ، فى صوت واحد ، حزين ، أليم . . .

تقلبت فى فراشى ، وأضأت النور ، والستائر الكثيفة مسدلة ، ورحت أتفلسف ، تحت الغطاء الخفيف ، فلسفة الحياة والموت . لم أشعر بالخوف ، وإنما شعرت بالانزعاج والأسى . تصورت الذين هم حينئذ فى ميدان القتال ، فى ساحة الموت . تذكرت الذين يهاجمون ويدافعون الآن فى قلب السماء ، على طيارات ، تلقى من حولها النار والدمار ، وتبذر الويل والمصائب .

نفعتنى فلسفتى الشرقية ، التى ترى كل شيء قسمة ونصيباً ، وأن المكتوب على الجبين تراه العيون . . ومع ذلك كنت أناقش نفسى هكذا :

— انزل ! . هذا خير لك .

— « قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا » .

— « قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ولو كنتم فى بروج مشيدة » !

— اقعد وتوكل !

— « ومن توكل على الله فهو حسبه » !

— يا رجل ! . اتق الله فى نفسك !

— « فالله خير حافظاً وهو أرحم الراحمين » !

وهكذا أقول ، وأرد على نفسى ، وأتقلب فى فراشى تارة ، وأسير فى

غرفتى تارة أخرى ، وأشرب ماء مثلجاً ، وآكل « خوخاً » . . فى حين سكتت صفارة الإنذار ، لأنها أدت ما عليها من التنبيه والتحذير . . فزاد سكوتها الجو اضطراباً ! . . وشعرت بأن أشباح الرعب والهول تتضارب الآن فى سماء مدينة النور ، التى تحولت إلى مدينة الظلام ! . .

وحاولت القراءة ، أو الكتابة ، فلم أفهم ما أحاول قراءته ، ولم أعرف ما أحاول كتابته . . وأدركت ، فى تلك اللحظة الرهيبة ، أن صناعتنا أولى بها النساء ! . .

كتب الحرب والقتال علينا
وعلى الغانيات جرّ الذيول

أجل . . جر الذيول ، وكتابة المقالات ! . .

ولم أنزل فعلا . . وكنت فى كل لحظة أترقع قنبلة تشق العمارة نصفين ، وتلقى بى تحت الحجارة والتراب . . وكنت مع ذلك أتصور أننى سأنجو من الموت بأعجوبة ، لأن رجال المطافىء ، وجنود الدفاع السلبى ، قد أسرعوا فأزاحوا عن صدرى الطوب والحجارة ، ورفعوا عن وجهى أكوام التراب ! . .

* * *

ثم كان الإنذار الليلى الثانى ، وقد بدأت الحرب تصبح جِدّاً لا هزلا . ونزح أكثر سكان باريس عنها . فإذا فى الساعة الثالثة صباحاً أصوات الصفارات تمزق حجب السكون ، وتخلع الأفئدة رعباً . وما كدت أغمض عينى ، بعد مطالعة طويلة ، تغلبت بها على وجع ضرس لى ، يحيرنى ويحاورنى منذ عام ، يريد أن ينخلع ، وأنا مصر على بقائه عملا بمشورة الطبيب . فكأن هذا الضرس الملعون قد سمع أيضاً صفارة الإنذار ، فتحرك ، وطفق يدق وينبح .

وكان فى العمارة التى أسكنها ١٥٠ ساكناً - عادة - فلم يبق منهم إلا ساكنان ،

والبواب وزوجته ، وثلاث خادمات أو أربع . فلم أسمع إلا باباً أو بابين يغلقان بشدة . ولم يتحرك من المصاعد إلا مصعد واحد . وبقيت كأنى بواد مهجور ، انطلق علىّ فيه الذئاب والنمور ! . .

كان لا بد لى هذه المرة من النزول . ولم يكن نزولى خوفاً على حياتى ـ غير الغالية ـ فحسب ، بل حباً أيضاً فى صناعتي ، ورغبة فى الأستفادة من كل التجارب التى تجرى من حولى . نزلت إذن ، بعد ما وضعت معطفى على البيجاما ، ولم أنزل فى كهف عمارتنا ، لعلمى بأنه زنزانات خاصة ، بل قصدت الدار المجاورة ، وعليها إشارة بأنها مخبأ لأكثر من مئة شخص . وكانت تلك الدار فندقاً ، هو فندق « وندسور إليزيه » المشهور ، فحيانى البواب مبتسماً ، وقالت لى البوابة : « إنها نزهة الفجر للشعراء » .

— من هنا يا سيدى ! . من هنا يا سيدتى ! .

هكذا كنا نسمع صوت الدليل يهدينا إلى مداخل الكهف . وكان كل ضوء مطفأ ، تمد يدك فتقع على ذراع سيدة ، أو لحية شيخ ، لا يكاد يبرق إلا شعاع ضئيل ، الفينة بعد الفينة ، من بطاريات أحد رجال الدفاع السلبى ، من المتطوعين ، أو المجندين . فنزلنا طبقة طبقة ، ودرجة ودرجة ، فإذا الكهف فسيح مريح ، فيه مقاعد ، وفيه مناضد ، ومضاء بالكهرباء . وكنا نحو عشرة رجال بين ستين أو سبعين امرأة .

ولم يكن معى قناع الغازات . فإذا سقطت قنبلة غازية ، وكنت فى الكهف ، فإنى من الهالكين . .

وإذا سقطت قنبلة محرقة ، وكنت فى مسكنى العالى ، فإنى أيضاً من الهالكين . .

كان الموت يحلق فوق رؤوسنا ، وكنا فى مأتم الإنسانية ، جالسين صفوفاً . .

وراح البعض يلعب الورق ليتسلى . . . ورأيت ما أدهشنى وعزّانى معاً : سيدتين من سكان الفندق ، أجنبيتين ، نزلتا إلى الكهف فى ثياب السهرة : الظهور عارية ، والصدور عارية ، والأكتاف عارية ، والأذرع عارية ، والعيون تلقى أيضاً نظرات عارية ! . . .

كنا لفيفاً عجيبا من كل الأجناس . كنا البقية الباقية من عشاق باريس . . . فرأتْ باريس ، وقد كثر عشاقها ، وضايقتها مزاحمتهم عليها ، أن تتخلص منهم فريقاً بعد فريق . . . فنزح من نزح ، وهجر من هجر . . أما الذين ظلوا يلحون فى الحب ، ويسرفون فى العشق ، ويتفانون هوى وصبابة ، فقد أنزلتهم عن أسرّتهم ، فى صميم الليل ، إلى المغاور والكهوف ! . .

وتبادلنا النظرات . . وتبادلنا الشكوى والرجاء . . وظللنا على هذا أربع ساعات كاملة .

أى حب فى الدنيا بغير فداء ؟ !

* * *

أما الإنذار الثالث فكان نهارياً ، أشبه بالدعابة إذا قيس بالإنذار الليلى .

كان فى الساعة الحادية عشرة صباحاً . . وكنت أكتب رسالة أو مقالة ، فى مقهى المارينيان بالشانزليزيه . . وأنظر جريدة « پارى ميدى » (باريس الظهر) ، فلما راحت الصفافير الهائلة تلقى موجاتها المرعبة على الشوارع ، والبيوت ، والمتاجر ، هرع الناس إلى المخابىء . . وحملوا قناعاتهم ، وأغلقوا مكاتبهم وحوانيتهم . . ونظرت من حولى ، فلم أجد من الزبائن ولا الجرسونات أحداً ! . . فقمت . . واعجب إذا أردت العجب . . فإننى لم أرد أن ألحق بأى مخبأ ، أقرب مخبأ ، كما تقضى تعليمات البوليس . . بل أردت أن « أنقّى » وأختار ! . . قلت : من يدرى ؟ فقد أبقى أربع ساعات أيضاً تحت الأرض ، فلماذا أقضيها مع

أجلاف مناحيس ؟ . رحت أنظر وأتأنق فى الاختيار ، حتى وجدت عش بلبل . فقد رأيت حسناء فاتنة : عيون زرق ، وشعر ذهب ، تغلق نافذة الدور الأرضى استعداداً للنزول إلى كهف بيتها الصغير المتواضع ، الذى لا يسع إلا ستة عشر لاجئاً . . وكان بيتها بحيث إذا سقطت عليه قنبلة أحالت عظامنا فى الحال حتما رماداً تذروه الرياح . . قلت : الرب واحد والعمر واحد ! . . خير لى أن أموت فى عش بلبل ! . .

ونزلنا . . وكان كهفاً رطباً ، فيه مواسير ، وكله منعرجات . . تفطس فيه القطط ، فكيف ببنى آدم ؟ . .

ومع ذلك راح المكان ينضح عطراً . . وسمعنا زقزقة العصفور وتغريد العندليب . . وقضينا ساعة تمنى بعضنا لو طالت إلى ساعات . .

وانتهى الإنذار . . . فصعدنا إلى وجه الأرض . . وحملت للتى هدتنى إلى عش البلابل مقعدها الذى كانت أنزلته احتياطاً لطول المقام . . فشكرتنى بابتسامة ساحرة ، وقالت : « إلى المرة القادمة » ! . .

* * *

ستمر الغارات . . . وتحلق أجنحة الموت ، وأنا بعيد عن ذلك الركن المتواضع ، الذى تنبض حجارته بالحياة والحب . . سأخلف الوعد ، وأنكث العهد ، على رغمى ، لأنى رجعت إلى الأوطان .

فعفواً أيتها العيون الزرق ! . . وغفراناً أيها الشعر الذهب ! . . .

مجاور فى باريس

باريس ! . .

يقولون إنه لايكاد يتحدث إلا عنها ، رغم كل ما كان ، وكل ما يكون ، وكل ما سيكون . .

وقد يكون مخطئاً ، ولكنهم اعترفوا بأنه ليس إلا مخلصاً ! . . يقولون : ماذا يحب فيها ، هذه المدينة الضعيفة ، المنكسرة ، الحزينة ؟ !

فيقول لهم : إن حبي لها اليوم أشد منه فى أى وقت مضى . . إننى لا أحب المرأة فى عزها . لأنساها فى مرضها ، ولا أهواها فى دولتها ، لأنبذها فى ذبولها .

عند ما أحب « أرمان » : « مرجريت » (غادة الكاميليا) ، كانت محظية لغيره ، وكانت مصدورة ، وكانت تنفث دماً . . فلم يسأل عن مالها ، ولا عن شبابها ، ولم يسأل عن صحتها وقوتها ، أو مدى بقاء جمالها . . استسلم للقلب يقوده ، وللحب يسوده ، لا يطلب فائدة ، ولا يتوقع نفعاً ، لأن الحساسية النبيلة وحدها ، هى التى تطهر النفس من أدرانها ، وتطهر الأرض : من النفعيين ، والوصوليين ، والمرابين . .

رباه ! . إنى أحب هذا الركن من الأرض . فاغفر لى حبى ، واترك لى حبى .

إنى أحب الركن الذى حنا علىّ ، يوم كنت فى حاجة إلى الحنوّ . وأشعرنى أنى غنى ، عند ما كنت فقيراً . . ولوّح لى بالمجد ، عندما كنت خاملا . ومنحنى ما تمنيت عليه من ذوق ، وما سألته إياه من معرفة ، وما التمسته منه من ثقافة . لم يسألنى هذا الركن النبيل من الأرض : من أنت ؟ ! ولا : من أين جئت ؟ ! ولا : من هم أهلك ؟ ! ولا : كيف هو لونك ؟ ! ولا : ما هو دينك ؟ ! . . ولم يسألنى : أين مالك ؟ !

رباه ! . إننى رجل ضعيف ، وحيد ، مسكين . . لذلك أحب هذا الركن من الأرض ، الذى سما فوق التفريق : بين الشرق والغرب ، وبين الأسود والأبيض ، وبين العزيز والهين . . فكان ركن الضعفاء ، والشعراء ، والفنانين ، والمساكين . .

رباه ! . إنى أحب هذا البلد ، الذى يعلِّم الناس ، ولا يخشى من تعليمهم . ولا يسألهم : ماذا ستفعلون بالعلم غداً ؟! . . بلد يعلم ، ولا يتقاضى عن علمه أجراً ، ولا ينشد جزاء ، ولا يسأل شكوراً .

* * *

إننى أحبك ياباريس ، كما قلت ، لأننى عندما كنت طالباً (مجاوراً) فى الحى اللاتينى ، لا أكاد أملك جنيهاً كاملا ، يوماً كاملا ، منحتنى ثروة الأرض . . ولما كبرت ، وعدت إليك ، ألعب بالذهب فى مغانى الشانزليزيه لعباً ، نهرتنى ، وزجرتنى ، وذكرتنى دروس الشباب ، وأشعرتنى أننى فقير جهد الفقر .

إننى أحبك ياباريس الحزينة . . أحب تواضعك ، وتساهلك فى انتصارك . وأحب شجاعتك ، وبسالتك فى انكسارك . . أحب هذه العظمة الصابرة ، الأصيلة ، التى لاتعرف الادعاء . . الصامتة التى لا تحب الدعاية . . الكريمة التى تغتفر للمتقلبين ، والساقطين ، والحاقدين ، وغير العارفين . . وتشملهم بعطفها ورعايتها ، كما لو كانوا من المحسنين ، المخلصين ، الصادقين . . .

إننى أحبك ياباريس المنطفئة ، المظلمة ، الكئيبة . لأنك كنت ، وما زلت ، وستظلين أبد الدهر : مدينة العلم والنور ، ومدينة الحرية والحبور . . .

* * *

إن أربعين ألف نسمة فتية تطلب العلم ، وتنظر إلى العالم ، من قمة باريس . . بل من قمة جامعة باريس وحدها . . لأن المدارس الأخرى ، الخاصة والعامة ، العالية وما دونها ، تضم أيضاً نحو هذا العدد .

وسنرى ، بعد الحرب مباشرة ، أن هذا العدد قد يتضاعف ، لأن نجم باريس لم يأفل ، ولكنه بزغ فى سماء جديدة . . فالنار تطهر الآثام . . إن انكسار باريس فى ١٨٧٠ قد جعل منها سيدة أوربا فى الثقافة ، وقبلة العالم الفكرى . . وانتصارها فى ١٩١٨ قد حجب عنها فضائل كثيرة !

ولا يوجد فى أوربا بلد يصلح للطالب الفقير كباريس . إن صدرها يتسع للجميع . . لقد كان معى فتيات من رومانيا ، لا يتجاوز ما يرسله أهلهن لهن أربعة جنيهات فى الشهر . أما بقية شبان البلقان ، وبولونيا ، وتشيكوسلوفاكيا ، فكانوا يفخرون بجنيهاتهم الستة شهرياً . .

أما الروس ، فقد كانوا ، من الجنسين ، يعيشون لا شهراً فشهراً ، ولا يوما فيوماً ، بل ساعة فساعة . . تحسبهم جميعاً من أبناء القياصرة أو الأباطرة ! . . يأكل الواحد منهم طول يومه « سندويتشاً » ، ويشرب فنجان قهوة باللبن . . وفى الليل يجتمعون ، ويقضونه فى الرقص بمطعم « الديك الذهبى » بالحى اللاتينى ، نظير صحن من « الشوربة » ! . .

كان الحى كتباً ومكاتب ، ومحاضرات ومناظرات ، ونزهات وسهرات . . لم يكن فينا من يفكر فى الطعام ، ولا فى المال ، ولا فى الشهرة ، ولا فى المستقبل . . الطعام تكفى فيه بطاقة شعبية بثلاثة قروش . . والمال يجىء ويروح كالطفيلى ، لا يعنى به أحد ، ولا يحفل به إنسان . . والشهرة لا تغرينا وقد ضربنا بأقدامنا فى أشهر بقاع الأرض التى ضمت أشهر الرفات . . وشهدنا أكبر علماء الدنيا يسيرون بأحذية بالية ، وثياب كالحة ، وظهور محنية . . والمستقبل ، إذا فكرنا فى المستقبل ، متروك للقدر . . إذ ننظر إلى قصر « التويلرى » ، الذى أطل من شرفته « نابليون » ، يحمل ولده « ملك روما » فى القماط ، على شعب باريس المهلل ، وصاح فيه : « المستقبل لى » ! . . فرد عليه شاعر باريس « هيجو » : « كلا يا مولاى ! . . فليس المستقبل لإنسان . . المستقبل لله ! . . »

أجل ، لقد عشنا أياماً طويلة بلا نقود ، وساعات طويلة بلا غذاء . . فلم نخش الفقر ، ولم نرهب الجوع . . بل كان شبابنا يغدق علينا من قوته ، ويفيض علينا من ابتسامته . . وكان قلبنا ينعم علينا بحرارته . . وكان فؤاد باريس يخفق لنا ، ويضمنا بين حناياه ، وينفخ فينا روح الجهاد والجلاد ، الروح الذى ما زال يلازمنا ويباركنا ، الروح الذى نتمناه لشبيبتنا ، روح التواضع فى الظفر ، وروح التجلد للهزيمة ، وروح الرجولة فى الشباب . . .

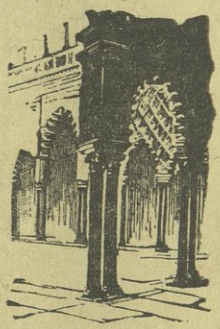

رسالة رجل إلى امرأة

فى مجتمع عائلى راق ، ليست عليه مسحة الأرستقراطية الزائفة ، التقى الكاتب بشابة حسناء فى ميعة الصبا ، تفيض رقة ، وتذوب حزناً . . فسأل عنها مضيفته ، فقالت له : « إنها فتاة من أسرة كريمة ، أحبت ، وتزوجت ، وطلقت فى عام واحد » . فتحدث إليها ، فاذا بها مهذبة فاضلة . . . لكن الأسى يطغى عليها ، يكاد يتلف حياتها . . وإذا بها منكمشة ، منطوية على نفسها ، خائفة من الرجال ، ساخطة عليهم . . وسافر الكاتب فى اليوم التالى إلى الاسكندرية ، فخطر له أن يروح عنها بهذه الرسالة :

. . . . . .

ستدهشك ، حتما ، هذه الرسالة ، لأول وهلة . وسيومض فى ذهنك ، ولو كالبرق ، أنها « غزل » ، من الذى يبدأ الرجل فيسميه « بريئاً » ، ليتدرج به إلى حديث اللحم والدم ! . . ألا فاعلمى أننى مندهش ، أكثر منك ، من نفسى ، إذ أكتب إليك ، أنا آخر رجل يكتب إلى امرأة . . أنا أكتب كتباً ولا أكتب خطابات . . ولكن اطمئنى ! . . فإننى أكتب إليك لأنك لست « نوعى » من النساء . . أنت حزينة ، ضعيفة ، مغلوبة على أمرها . . وأنا لا أحب الضعيفات ، الكسيرات . . أنا أحب المرأة الجبارة ، المتكبرة ، لأكسر أنفها ، وإلا كنت من أشباه الرجال ! . .

أنت ، على جمالك الرائع ، كالفريسة الخائفة المذعورة ، تجرى لا تلوى على شىء ، تزعم أن كل الرجال صيادون خونة ، يريدون قنصها . . وأنا يا سيدتى ليس عندى وقت ، ولا عندى قلب ، لهذا النوع من الصيد الهزيل .

إنما أنت فنانة ، لا يستطيع رسمك ولا لوحاتك وحدها أن تعزيك . أنت بحاجة إلى رجل ، وسيأتى ذلك الرجل حتما ، إن قريباً وإن بعيداً . . وفى انتظاره

أكتب إليك ، لأخمد بعض همك ، وأوقظ بعض رجائك ، وأطلعك على بعض الصور التى يرسمها الكاتب لأصدقائه من الرجال والنساء ، فإذا تصفحتها عرفت أن فى الحياة أشياء عظيمة ، أعظم من أن نحيط بها ، وأشياء حزينة ، ليس حزنك إلا نقطة فى بحرها . .

الإسكندرية تستقبل الربيع بابتهاج ، مادة ذراعيها إليه ، كالحسناء التى تستيقظ وتتمطى بعد ليل طويل فى الهناء ، وكأن مياه البحر أمامى أبواب الحرية تفتح لى على سعتها . . فقد كنت سجين غرفتى ، وسجين « مياة بلزاك » ، التى أخرجتها كتاباً ، أعيش لشهور بين أربعة جدران مع الكاتب القصصى الأول فى العالم ، الرجل الذى أضنته النساء وأضنى النساء . . عشت هذه الفترة معه ، فتعذبت عذابه الطويل ، وهنئت بهنائه القليل . . فإن الله وحده يعلم مدى شقائه ، كما يعلم عدد النساء اللواتى ، فى مشارق الأرض ومغاربها ، قد سعدن بمطالعته ، لأنه أحب المرأة أكثر من أى رجل فى العالم . . .

* * *

انطلقت إلى البحر ، وإلى نفسى أغسلها بمشهد البحر . . وأتأمل ما حولى : المدينة تموج بالثياب العسكرية ، من الخاكى القاتم والفاتح ، ومن الجوخ الأزرق ، ومن التيل الأبيض ، عليها علامات حمراء وخضراء . . وشارات من ذهب ، وخطوط سوداء ، بالطول وبالعرض ، تضم رجالا ، أو تضم نساء . . هذه من كندا ، وهذه من زيلانده ، وهذه من البنغال أو السنغال . . وهذه من صميم لندن ، أو أدغال الهند . .

هؤلاء جميعاً ، يمثلون عشرات ، بل مئات ، بل ألوف الألوف . . من كل الأجناس والأديان والألوان . . هجروا مدنهم الآمنة . . وبيوتهم السعيدة . . تركوا الأمهات والزوجات والأولاد ، وانطلقوا إلى بقاع غريبة ، بعيدة ، إلى أجواء محرقة كالنار ، أو مثلجة كالجليد . يبيتون فى الخيام ، أو فى العراء . يسيرون

فى النهار وفى الليل . . يشقون الأمواج الثائرة فى بحار من الظلمات ، يواجهون الموت فى كل خطوة ، فى كل لحظة ، بطمأنينة عجيبة ، كأن الذهاب إلى الموت شوط سعيد من أشواط الحياة .

ماذا نحن بجانب هؤلاء ؟! ماهى أفراحنا وأحزاننا إذا قيست بهذه الأهوال ؟! انظرى معى ، على الكورنيش ، إلى البحر ، فى منتصف الليل ، ليل غير ذى قمر ، والنجوم تلمع وتخبو ، والأمواج تزمجر وتهاجم وتتكسر ، والهواء يزأر . . ثم تصورى نفسك ، فى هذه الظلمات الحالكة ، محمولة فى جوف غواصة ، أو زورق من زوارق الطوربيد ، أو باخرة حربية لا تضىء فيها سيجارة ، والإعصار يهب ، والأنواء تدور بك . . والعدو من وراء ذلك كله محيط . .

تصورى هذا لحظة من دهرك ، لتغرق فى هذه اللحظة حزنك ! . .

* * *

إليك الآن حديث بعض الرجال : أنا هنا ألقى ، أول من ألقى ، صديقاً قديماً من رفقاء الصبا « ع ١٠ » ، هو من نوع آخر يختلف عنى كل الاختلاف ، ذلك الاختلاف الذى يزيد المحبة . . أتعرفين « شارع أديب » الضيق ، الشبيه بشوارع « السيتى » — حى المال والأعمال فى لندن — أنت يامن تعرفين لندن ؟ هو مثله تماماً : عمارات ليس فيها إلا مكاتب ومتاجر ومصارف . .

فى هذا الشارع يسكن « ع ١٠ » شقة عليا ، كأنه الحارس الأعلى على المال ، وهو المتبتل العابد الزاهد ، أزهد الناس فى المال ، هو نوع فذ فى الرجال ، عاش كل حياته لتربية إخوته ، وتنشئتهم ، واحداً بعد واحد . . يجوع ليأكلوا ، ويتجرد ليلبسوا ، لا يهمه اعترفوا بعد ذلك بالجميل أو أنكروه . . يعيش مستوحشاً ، نفوراً من المجتمع ، مثل « الميزانتروب » الذى وصفه موليير . . ما أقل أصدقاءه ! ومع ذلك فما أعظم وفاءه لهم !.. أتى بالمعجزات من التقشف ، وحرمان النفس ، لتهذيبها ، والسمو بها . . .

ترامت عليه فى باريس أمريكية حسناء ، تريد أن تطلق زوجها من أجله ، فأبى واستكبر ! . . كان طالباً فقيراً مثلى ، كل شىء يدعوه إلى الرضا والخضوع لهذا الإغراء . . قامت عند قدميه فجأة أكوام من الذهب ، فداسها بقدميه متسائلا : كيف يحطم حياة امرأة ، وهو غير واثق من إسعادها ؟ ! فنظر نا إليه كمجنون . . ربما لو كنت أنا مكانه لعجزت إزاء كل هذا الإغراء . . عجزت عن صد كل هذا الجمال ، وكل هذا المال ، يتدفق ، ويملأ بالحب وبالخير غرفة الطالب الحقيرة ، فى الحى اللاتينى ! . .

* * *

وهذا صديق آخر من نوع آخر ، الدكتور « م » . ذلك الرجل الحبيب إلى قلبى ، الذى كان طبيب الباخرة « النيل » ، وربطتنى به فى أسفارى العديدة روابط لا انفصام لها . . أبادر إليه فى الإسكندرية عادة ، لألقى بلقائه مرح الحياة ، ومزاجها ، ومتاعها . . هذه الشخصية اللذيذة التى تعيش ليومها ، بل لساعتها ، بل لدقيقتها ولحظتها ، هذا الرجل الشجاع ، الذى لا يهمه ماذا يكسب اليوم وماذا يكسب غداً . . جئت أعزيه فى أمه ، هذا الوفى الذى كان لا يزورها إلا ويزور أمى ، فى اليوم الواحد الذى يقضيه كل شهر فى البر . . فماذا وجدت ! . .

قال لى : إنه ، بعد أمه ، لم تعد تربطه بهذه الأرض رابطة ، فهو يعود إلى البحر ، سيواجه البحر ، صديقه القديم ، وإن كانت الحرب قد غيرت معالمه . . سيتحدى الحياة ، يركب البحر فى الحرب ، لأن الشخص الوحيد الذى كان يربطه بالأرض قد صار الآن دفينها . .

سمعته كالنشوان . . وكادت روحى تجرف معه فى التيار ، فأسأله أن أبحر معه . . لم أجد شجاعته ، لم أجد فى نفسى ما فيه من روح البحر الخضم ، الصاخب ، المندفع ، الخؤون ، ثم روح البحر المسالم الوديع يحمل السفن إلى شاطىء الأمان .

لم أجد من نفسى ما فى نفس صاحبى من احتقار الأرض ، وما على الأرض من نكد وهموم .. ولقاء البحر ، وصحبة البحر ، بما سوف يحمله البحر من مغامرات ومخاطرات ، ومن سواحل ، ومن وجوه ، ومن وجود ، أو .. عدم ! .

نظرت إليه نظرة أخيرة قبل أن أعانقه ، فرأيت فى عينيه الجسد يعذب الروح ، ووجدت الروح هائمة ، حائرة ، لا مستقر لها ولا مستودع ، ولا أمان لها ولا اطمئنان ..

سلام عليه الآن فى المحيط الأعظم .

* * *

ونترك حديث الرجال ، لنعود إلى حديث النساء :

لقد عز علىّ أن أراك ، أول ما أراك ، كاسفة البال ، شاحبة ، أقرب ما تكونين إلى الحزن والذبول .. ولعل هذا هو ما لفت نظرى إليك ، فقد كنت فى حالة انكسار أبدع بكثير من حالة الانتصار . إن المرأة الفائزة ليس لها ذلك الجلال الذى يهز النفوس عندما ترى جبيناً حزيناً ، أو امرأة تتهادى فى ثوب أسود ! ..

لقد تساءلت : هل كان حزنك على الماضى الجميل ، على حلم لم يتحقق ، أم كان على رجاء ما زال بعيد التحقق ؟! إن كل امرأة ، فى فترة من حياتها ، تكون فى حالة انتظار وتوقع .. تتوقع أمراً جديدا جميلا ..

أأنت حزينة من أجل بضعة عشر شهراً ، قضيتها فى هناء معه ، وفى عناء من أهله ؟! أم أنت حزينة بسبب حالة الفراغ الموحش ، التى أصابتك بعد الخروج من المعركة ، معركة الزوجة الشابة بين الزوج والأهل ؟! أأنت حزينة من أجل ما كان ، أم أنت مشفقة مما سوف يكون ؟!

انظرى حولك ، ترى ألواناً من المآسى ، ليست مأساتك بينها إلا ملهاة . فما هى هذه التجربة الخائبة ، إذا ما قورنت بما لك من شباب وفتنة وجمال وفن ؟

إن كل شيء يُجبر إلا الروح الكسير . إن كل يوم يقضى فى هم وشجن لن يعوض عليك ، أو يرد إليك .. ثم إنه لا فائدة منه ، ولا رجاء من ورائه .. ثم ما هى ماديات الدنيا كلها ، إذا تجمعت لدينا ، ولم تكن بنا شهية لطعام أو شراب ، أو رغبة فى فرح أو مرح ؟ .. فعلينا ، أيضاً ، عند ما نحارب فى سبيل الماديات ، ألا نغفل حماية روحنا من التردّى فى هوة الهموم .

إن حياتك تبدأ الآن . ليست الفتاة حتى الخامسة والعشرين — ولو تزوجت — إلا طفلة . لم يكن ما مضى إلا مقدمة صغيرة ، كنت بحاجة إليها ، لتسقط أجنحة الشباب الذهبية ، ويحل محلها العقل الرشيد ، والأمل الوطيد . فدعى عنك هذا اللون القاتم ، الذى لم يكن يتفق مع لون ثوبك الأحمر الزاهى ..

خسارة أنك قليلة المطالعة .. إن الكتب كانت تفتح لك عالماً ليس أرقى منه للروح ، ولا أسعد منه للنفس .. لعلك تزعمين أنها بعيدة كل البعد عن الرسم ؟! إن الكتب هى نوع من الرسم : رسم أفكار ، وخيالات ، وأوهام ، نحن فى أشد الحاجة إليها ، لتنسينا متاعب الأيام ..

إنك كنت ، فى هذه الزوجية الغابرة ، كصبية جلست على حافة غدير ، وعبثت بقدميها فى الماء النمير .. أين أنت من الحزن ، والألم ، وانكسار القلب ؟!

تصورى حكاية سيدة أعرفها ، آتاها الله كل ما يخطر وما لا يخطر بالبال من جمال ونبل . كانت تعيش مع زوجها الحبيب أسعد ما تكون عليه الحياة .. كانت تتجول معه فى كل أوربا .. وكنا لا نفترق فى باريس ..

وعدنا مع الحرب .. فكان لها عش جميل على شاطىء النيل ، وكانت لها طفلة ظريفة .. وكان بيتها بيتنا ، بيت القليل من الناس الذين جمعهم الوفاء ، وربطت بينهم المحبة الصادقة ..

فماذا حدث ؟! ..

أصاب زوجها برد خفيف ، وهو شاب « سپور » بكل المعانى ، ممتلىء

قوة وحيوية . ثم انقلب البرد الخفيف برداً ثقيلا ، ملحاً ، ممضاً . . وحرارة خفيفة ، لا تكاد تذكر . . ومع ذلك كله لا تتركه بالليل ولا بالنهار . . وكان يشكو لى منها ، ويقول إنها حرارة تأكله رويداً رويداً . .

ثم ماذا ؟ . . ثم ماذا ؟ !

ثم كان ذلك العراك الأبدى ، لابن آدم الضعيف ، مع الموت . . كان هذا الصراع الهائل المخيف المؤلم ، الذى نحاول فيه عبثاً الخلاص من براثن المنون . . ووقفت تلك السيدة الشابة الجميلة السعيدة ، تلك الحبيبة ، تلك العاشقة ، الهائمة بزوجها هياماً لا يقاس به أى هيام . . تلك الأم التى ولدت وأخرجت من أحشائها ثمرة نبيلة من ثمرات الحب . . وقفت تلك المرأة ، فى جزع ولهفة ورجاء ، على حافة الهاوية مع زوجها ، وإن كانت الفكرة البشعة الشنيعة لم تخطر لها على بال . . كيف يخطر للموسر الشبعان شبح الجوع ؟ ! . .

أجل . . إنها ، بعد شهرين أو ثلاثة ، أصبحت أفقر من أفقر امرأة . . أصبحت امرأة بلا رجل ، ولا أمل فى رجل . . كان وراءها ماض طويل عريض فى الحب والحرمان ، كانت نموذجاً فذاً للتجربة والمحنة . كانت لا تدرى ماذا صنعت فى حياتها ، وماذا ارتكبت ، حتى تصاب بكل هذه الويلات ، مرة ومرة . . حقاً إن المؤمن مصاب .

من يدرى ؟ ! لعلها كانت تدفع ثمن جمالها الرائع ، الذى أغدقته عليها الطبيعة ، وحرمته ألوف النساء من حولها ! . . لعلها كانت تدفع بعضاً من الغرور ، والتيه ، والكبرياء ، التى كانت تتفجر منها على رغمها ، لأنها جميلة ، وأنيقة ، ووجيهة ، وعريقة . . ولأن الدهر ابتسم لها ابتسامة عريضة ، وفتحت لها الدنيا أبوابها جميعاً . . وأكسبتها ألواناً من العزة ، وأضفت عليها أثواباً من الطمأنينة والهناءة ، لم يكن يلوح أبداً أن لها حداً .

لقد رأيت ذلك الزوج الصديق الحبيب فى أواخر أيامه . . ثم جزعت

وأشفقت من رؤيته بعد . . إذ سار فى سبيل تتنكر فيها المعالم والتقاطيع ، ويتشوه الوجه ، وينقلب كئيباً ، وهو على هذه الحال المؤلمة . . وأختاها النبيلتان تقومان على خدمته ليل نهار . . .

دعاه الحنان إلى نداء ابنته الطفلة . . فجاءوه بها . . ففتح لها ذراعيه ، فلم تكد الطفلة تنظر إليه حتى أنكرته ، وخافت ، وجزعت ، وصرخت ، وولت هاربة . . هربت من « بابا » . . وكان « بابا » بالأمس كل شىء لها ! . .

* * *

أرأيت إذن كم فى الحياة من عناء وشقاء ؟! أنت يا من سعدت بضعة عشر شهراً ، وشقيت بضعة عشر يوماً ! . . ماذا عرفت فى دنياك من الهناء ، وماذا عرفت من الشقاء ؟ ! . .

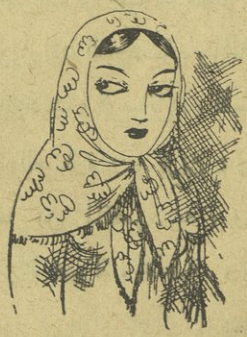

رسالة امرأة إلى رجل . . .

هذا حديث « زفيج » عن حب صغيرة غريرة لكاتب كبير ، نما معها حبها ، واشتد هواها ، حتى أودى بها . . وهذا النوع من الأدب الواقعى هو نموذج للنصح والتوجيه ، عن غير طريق الوعد بالجنة أو الوعيد بالنار ، ولكل شيخ طريقه ! . . ونحن نرجو أن يكون هذا الحديث عظة ودرساً للصبايا فى ريق العمر ، اللواتى يستسلمن بسذاجة لخيالات الحب ، فيدفعن ثمناً فادحاً لأوهام الغرام . . .

« ص »

عاد الكاتب الكبير « ز » من رحلة قصيرة خارج العاصمة ، فاشترى من المحطة جريدة الصباح ، وألقى نظرة على تاريخها ، فمرت بخاطره كالسهم المارق : « إحدى وأربعون سنة ! » . . فقد كان ذلك عيد ميلاده . . فلم يسرّ ، ولم يحزن . بل نادى سيارة حملته إلى بيته ، بعد أن دس الجريدة فى جيبه . فقدم له خادمه الخاص ووصيفه الأمين بياناً بالزيارات الشخصية ، والمخاطبات التليفونية ، وأكواماً من الكتب والمجلات والرسائل . . فاسترعى نظره خطاب ضخم ، على غلافه هذه العبارة : « **اليك يا من لم تعرفنى أبداً** » ! . . . فتساءل مندهشاً عن المقصود به ، ومضى فى قراءته . . . فإذا الخطاب من امرأة مجهولة ، تخاطبه ، وتقول :

« . . . عند ما جئتَ إلى حياتى ، كنتُ فى الثالثة عشرة ، أسكن البيت الذى تسكنه أنت الآن ، والذى تقرأ فيه هذه الرسالة . . وكان باب شقتنا يواجه باب مسكنك . . ولا ريب فى أنك نسيت تماماً أرملة المحاسب التى كانت فى ثوب الحداد ، وبنتها الصبية النحيفة . . ربما لم ترنا إلا لمحاً ، ولم تسمع بنا

من قبل أو من بعد . . ثم إن ذلك كان منذ زمن طويل ، منذ خمس عشرة سنة ، أو ست عشرة . . ويستحيل عليك أنت أن تتذكر . . أما أنا فأذكر كل الدقائق والتفاصيل ، كما لو كانت وقعت الساعة : أول ما سمعت بك ، وأول ما رأيتك . . كيف لا ، والدنيا قد بدأت عندى من يومها ؟! بالله لاتسأم من الإصغاء إلىّ بعض الساعة ، أنا التى لم أسأم حبى إياك طول حياتى .

كان القوم الذين يسكنون شقتك من قبلك أشراراً ، فتنفس سكان العمارة الصعداء عندما رأوا ذات يوم يافطة : « للإيجار » . . ثم رفعت . . وعلمنا من البواب أن الذى استأجرها مؤلف أعزب . . وكانت تلك أول مرة سمعت فيها باسمك . . ولم تلبث الشقة أن نظفت وزخرفت تحت إشراف خادم وجيه عريق ، لا عهد لنا به فى شقق تلك الضاحية ، والناس الذين ضاقت بهم حياتهم يشتاقون إلى الجديد ، لذلك كنا جميعاً ننتظر بفارغ الصبر وصولك !

وعند عودتى من المدرسة ، ذات يوم ، تطلعت فى شبه حمى ، إلى أثاثك الأنيق ، وهو يحمل ، إلى مسكنك . . كان كل شىء لك طريفاً بهيجاً ، يختلف كل الاختلاف عما تعودت : فالآلهة الهندية ، والتماثيل الإيطالية ، والتحف ، والصور الزيتية . . ثم الكتب : أكوام الكتب التى لا تنتهى ، وأكثرها بالفرنسية والإنجليزية ، وبلغات لا أعرف منها كلمة ، ذات حدود ناعمة ، وجلود مصقولة ، وجلود ذهبية . . بهرت عقلى عند مقارنتها بكتبى المدرسية الحقيرة ، ذات الكرتون الأغبر . وبعثت فكرة كل هذه الكتب فى نفسى ضرباً من التوقير لك ، أو التكبير . . فزعمتك مثل أستاذ الجغرافيا ، شيخاً هرماً ذا لحية طويلة . . فماذا وجدت ، وماذا رأيت ؟ . .

رأيت شاباً يتدفق حيوية ونشاطاً ، يصعد السلم قفزاً ، فى بذلة بنية إنجليزية ، فخطر لى إذ ذاك أنك شخصان فى شخص واحد . . هذا الشاب الرشيق الأنيق ، وذلك الشخص الذى يقرأ ، ويتثقف ، ويثقف ، ويكتب ،

ويُعجب ! . . رأيتُ — أنا الفتاة اليانعة فى الثالثة عشرة — لأول وهلة ، أن لكَ دنيا قائمة بنفسها ، لا يدخلها إلا الموعودون ، وأن لك دنيا أخرى هائلة ، تبيحها لمن يقتنى كتبك ، ويقرأ فكرك ! . .

ومن حينها ، صرت أنت ، فى عالمى المحدود ، شغلى الشاغل . . راقبتك ، وعرفت الذين يترددون عليك : من رفاقك ، ومن مريديك . . ومن سيدات يأتين فى سيارات جميلة ، ومن فتيات ما زلن فى المدرسة ، يختلسن ، فى حياء ، الدخول إلى بيتك اختلاساً . .

كانت الأغلبية الساحقة من زوارك من الجنس اللطيف . . فلم يخطر لى خاطر السوء . . حتى ولا حين رأيت ذات صباح سيدة متنقبة تخرج من شقتك . . ولكنى أعرف اليوم الذى أعطيتك فيه قلبى ، كل مجامع قلبى . . . :

كنت واقفة بالباب أتحدث إلى رفيقة بالمدرسة معى . . ووصلت سيارة ، قفزت أنت منها ، بطريقتك النافذة الصبر ، المندفعة ، التى طالما — على الأيام — بهرتنى . . فاندفعت بقوة لا أدريها ، ففتحت لك الباب ، مما جعلنى فى طريقك ، فتلاصقنا ، فنظرت إلىّ تلك النظرة العاطفية الرقيقة الخاطفة ، التى كأنها قبلة ، وكأنها عناق ، وابتسمت لى فى حنان ، وقلت بلطف : « شكراً جزيلا ! » . . .

كان ذلك كل شىء ، ولكننى أحسست من تلك النظرة ، المطبوعة فيك ، تلقيها على أية امرأة ، أننى قد استحممت فى النار ، وزعمت أن هذا الحنان وقف على ! . . ومن تلك اللحظة استيقظت المرأة فى الصبية التى ستكون لك ، ماطرفت لها عين ، أو خفق لها قلب . .

ولما سألتنى صاحبتى : « من هذا ؟ » ، استحال علىّ أن أنطق باسمك ! . . كان ذلك قد صار فى لحظة واحدة سراً وذخراً . . فقلت بخوف : « أحد السكان » . . فقالت بخبائة الصبايا : « ولماذا اشتد احمرار وجهك عندما نظر إليك ؟! » . . فنهرتها ، غضبى ، وتركتها ، وهى تضحك ساخرة منى ! حتى لقد

انهمرت الدموع من عينى ، حارة ، تجرى ، فتسبقنى ، وأنا أجرى صاعدة درجات السلم .

لقد أحببتك منذئذ . . .

* * *

وأعرف الآن أنك تعودت سماع النساء يقلن لك إنهن يحببنك . . بيد أن واحدة منهن لم تحبك أبداً حبى إياك ! حب الجارية المخلصة لمولاها ، حب الكلبة الوفية لسيدها . . لا شىء يعدل حب الصبا الذى لا يلحظه أحد ، الحب المكتوم المكظوم ، حب تابع خاضع ، بلا كفاء ولا رجاء . .

لمن كنت أبوح به . . ياترى ؟ .

إن أمى كانت منكفئة على همومها ، بعد موت أبى ، تحاول التغلب على الضيق المادى بسبب معاشها الضئيل . . ورفيقات المدرسة إما غبيات ، وإما طائشات مستهترات ، لا يفهمن قدسية شعورى نحوك . .

لم يعد يربطنى بالحياة إلا ما يجىء منك ، أو يصدر عنك ، أو تكون له صلة بك . . وكنت حتى ذلك الحين فى المدرسة فتاة عادية غير ممتازة ، فأصبحت فجأة الأولى . لقد رحت أقرأ كتاباً بعد كتاب ، سواد الليل ، لأنى أعلم أنك تحب الكتب . . وعالجت الموسيقى ، وعنيت بثيابى ، لتكون مقبولة فى نظرك . . يا لى من مجنونة ! . . فإنك قلما رفعت إلى بصرك . .

ثم كيف أصف لك شعورى ، يوم أتيح لى أن ألقى نظرة فى غيابك على مسكنك ؟ ! على كتبك ، وصورك ، وتحفك ، ومكتبك ؟ ! كان ذلك محرابى ومعبدى . . تمنيت لو ركعت فيه ، وصليت . .

ثم حدث ما هدّ بنيانى ، وزعزع كيانى :

دعتنى أمى ، فى شىء من الخجل ، وقالت لى ، فى كثير من التردد ، إن قريباً لها ، أرملا مثلها ، عرض عليها الزواج ، وإنها — حباً فىّ — قررت

القبول . . فتمتمت فى قلق ولهفة ، وليس فى رأسى غير فكر واحد ، هو أنت : « وهل سنبقى هنا يا أماه . . أليس كذلك ؟ » ، فجاء الجواب القاطع : « كلا ، فإننا ذاهبون إلى الريف ، حيث نجد فيلا جميلة » . .

لم أعد أسمع شيئاً ، واسودت الدنيا فى عينى ، وعرفت بعد ذلك أنه قد أغمى على . .

أما ما حدث فى الأيام القليلة التالية فلا يكاد يصدق . . إننى ، أنا الصغيرة الضعيفة التى لاحول لها ولا طول ، تمردت وثرت على الكبار الأقوياء . . فعزوا ذلك إلى شدة تأثرى ، ثم إلى سوء خلقى . . وظلوا ينقلون على رغمى ، يوماً بعد يوم ، بعض الأثاث . . فبدت لى حياتى تتساقط وتنهار قطعة قطعة . . ولم تعد أمامنا إلا ليلة . . الليلة الأخيرة . .

وفى تلك الليلة اندفعت نحو بابك ، كأنى ممغنطة ، ودققت الجرس . فلم يرد أحد ، لا سيد ولا خادم . . كنت أريد أن أترامى على قدميك ، متوسلة إليك أن تتخذنى خادماً لك ، أو أمة .

وظللت طول الليل مترقبة عودتك . وكانت ليلة من ليالى يناير القارس البرد ، نامت أمى ، وقد أُغمضت عيناى من التعب والألم ، ولم ينم قلبى . خشيت أن تأخذنى سنة من النوم ، فيحال بينى وبينك . . فتسللت ، ورقدت على الطرقة ، فى تيار الهواء المثلج الجارف ، بثوبى الرقيق . . بلا غطاء . . وانتظرت : انتظرتك ، وانتظرت مصيرى ! . . .

وطال انتظارى ، فقد بلغت الساعة الثانية أو الثالثة صباحاً عند ما سمعت الباب الكبير يفتح ، وصوت خطوات على السلم . . فاختفى شعورى بالبرد ، وطغت علىّ موجة من الحرارة ، واختفيت وراء بابنا ، ويدى على أكرة الباب لأفتحه قبلما تضع مفتاحك فى بابك . . ولكنك ، يا حبيبى ، لم تكن

وحدك . . لقد سمعت حفيف ثوب حريرى ، وضحكة مكتمة ، وصوتك خافتا . . كانت معك امرأة . .

أما بقية ليلى ، فأقيلك من وصفها . .

وفى الساعة الثامنة من الصباح التالى ، أخذونى إلى بعيد ، إلى الريف . . ولم تكن قد بقيت لى قوة للمقاومة . .

* * *

وبقيت عامين ، من السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة ، سجينة الأهل ، وسجينة الريف ، وسجينة الحرمان منك . . وعبثاً كانوا يغدقون على المنح والآلاء ، وضروب العطف والحنان . . كنت أنكر هذا كله ، وأدفعه . . ودفعت نفسى فى عالم موحش ، لا عزاء فيه إلا عذاب نفسى ، لا ألبس فيه جديداً ، ولا أستمع فيه إلى موسيقى ، ولا أذهب فيه إلى مسرح ، ولا أقوم فيه بنزهة . . قضيت العامين فى البيت ، لا أعرف من البلد الذى أنا فيه شوارعه ، ولا أحداً من أهله ، ولا لون بيوته وحقوله . . لا شىء إلا أن أفكر فيك ، أقلب صفحات ذكرياتى عنك ، وصور حركاتك وسكناتك . .

واشتريت كل كتبك ، وتتبعت الصحف ، لأرى فيها اسمك أو رسمك . . ولم أقرأ كتبك مجرد قراءة ، وإنما حفظتها عن ظهر قلب ، بحيث لو أيقظنى إنسان فى كبد الليل ، وقال لى منها جملة واحدة ، لردّدت بعدها صفحات كاملة . . حتى الآن ، وقد مضى على هذا كله ثلاثة عشر عاماً ، أستطيع أن أفعل ذلك . . كانت كتبك هى كتابى المقدّس . . وكنت إذا رأيت لك أو عنك كلمة فى الصحف فصلتها وحفظتها . . وكنت إذا رأيت لك صورة وضعتها على قلبى . .

كيف لى أن أروى هذه الأشياء ، هذه المأساة اليائسة لفتاة منسية مجهولة ؟! . . لماذا أخبرك بها أنت ، يا من لم تتصور قط إعجابى ولا حزنى ؟! . ولكن هل عدتُ

طفلة ؟!.. لقد صرت فى السابعة عشرة . . ثم صرت فى الثامنة عشرة ، والشبان يلتفتون إلىّ ، ويتبعوننى فى الطريق ! . . ولكن أين الخلى من الشجى ؟ . . لقد استحال علىّ أن أحب سواك . . وأصبح مجرد ميل رجل إلىّ جريمة ، ولقد نما عقلى ، ونما جسدى ، وتيقظت حواسى ، وازدادت حرارة . . وبرزت المرأة ، من وراء الفتاة ، أشد ماتكون هياماً . . إن ماكان قد اختفى وراء ذهن الصبية نصف المتعلمة ، التى هرعت إلى بابك ، ودقت الجرس ، هو ما لايزال مبعث حنينى : أنه أكونه لك . .

ثرت ، وصرخت ، وغضبت ، وقلبت البيت رأساً على عقب ، ونغصت حياة كل من حولى ، حتى رضخوا آخر الأمر لعودتى إلى العاصمة ، لأعمل فى مشغل خياطة كبرى من قريبات زوج أمى . . فهل أنا بحاجة إلى أن أقول لك أين قادتنى خطاى فى ليلة حالكة الظلام ، ملبدة السحب ، أول وصولى إلى العاصمة ؟! لقد تركت حقيبتى فى « الأمانات » بالمحطة ، وهرولت إلى الترام . . حتى وصلت إلى بيتك : بيتنا . . فطفر قلبى ، يكاد يثب من بين ضلوعى ، إذ رأيت النور فى نافذتك ، فلم أعد غريبة فى هذه المدينة الكبيرة . . استيقظت أحلامى من حولى ، وحفت بى كالعرائس ، وآنستنى . . كان يفصلنى عنك زجاج شفاف ، ونسيت أنه كان يفصلنى عن عقلك وقلبك جبال وأنهار ووديان . .

كان يكفينى أن أنظر إلى نافذتك ، وأقول : « هذا هو نوره . هذا مسكنه !.. إنه هناك . . إن هذه هى دنياى . . »

وظللت مساء بعد مساء أعود إلى نفس المكان ، فلا أكاد أنهى عملى فى السادسة ، حتى أطير إلى حيث أرجو أن أراك ، أن ألمحك من بعيد . . وأخيراً ، بعد سبعة أيام ، لقيتك . . وكنت أرقب نافذتك عندما رأيتك قادماً . . فدهشت . . لقد سخطت ، وانقلبت مرة أخرى طفلة . . عدت الصبية ذات الثلاثة عشر ربيعاً . . فأسرعت واختفيت ، كما لو كنت طريدة . ثم عدت على نفسى بعد ذلك

باللائمة : كيف أهرب هكذا كما لو كنت تلميذة ، ما دمت أعرف الآن ما أريد ؟ إننى أريد أن ألقاك . . إننى أريد أن تعرفنى بعد كل هذه السنين المرة ، وأن تحبنى . . ومع هذا فقد مضى دهر طويل ، دون أن تلحظنى ، على الرغم من وقوفى كل ليلة ، فى عصف الريح ، فى هطول المطر ، أمام بيتك . . وكنت أحياناً أبقى الساعات بلا جدوى . . ورأيتك مرتين مع امرأة ، وذراعك فى ذراعها . . أنت الذى كنت كل حياتى !

لم يكن ذلك جديداً على ، لقد تعودت فى صباى أن أراك غالباً فى صحبة نساء . . أما الآن فقد سبب لى ذلك ألماً جسمانياً ، فامتنعت ليلة عن الحج ، ويالها من ليلة ! . . ليلة التحدى والإنكار . . قضيتها فى فراغ موحش ، وهرعت فى الليلة التالية إلى موقفى كالعادة ، أنتظر ، بكل مذلة ، أمام نافذتك ، كما كنت أنتظر . . أمام حياتك المغلقة !

* * *

ثم آن الأوان ، فوقعت عيناك على وجهى . . فبدا على محياك ذلك التعبير الذى يتجلى عند رؤيتك امرأة ، التعبير الذى أيقظت به الصبية فيما مضى لتصبح المرأة ، والعاشقة . . وكاد قلبى ينخلع من صدرى لنظرتك ، فلما التفت خلفى إليك ، رأيتك واقفاً تنظر إلىّ ! . . فتخيلت أنك قد عرفتنى . . غير أنك لم تعرفنى ، لا عندئذ ، ولا بعدئذ .

وبعد يومين التقينا ، فنظرت إلىّ متقرباً منى ، كما لو كنت تعرفنى ، وابتسمت لى . . فانتفضت ، ابتهاجاً ، وشوقاً إلى سماعك تخاطبنى . . وأحسست أننى لأول مرة قد وُجدت بالنسبة لك ، وتمهلت مثلك ، ولم أحاول الفرار منك . . وفجأة سمعت خطواتك من خلفى . . وسمعت دقات قلبى . . فقد كنت تسير إلى جنبى ! .

وحييتنى تحية من يعرفنى من قديم ، وإن كنت لم تعرفنى قط . . كانت تحيتك من البساطة والظرف بحيث لم أتردد فى الرد عليها . . وسرنا على طول

الشارع ، ودعوتنى للعشاء . . هل كان يسعنى أن أرفض لك مأربا ؟ . .

وتعشينا فى مطعم صغير ، لعلك لاتذكر أين كان . . فمن كنت أنا ؟ واحدة من مئة واحدة ! . . مغامرة ، حلقة فى سلسلة لا آخر لها . . على أنى أصغيت إليك متحدثاً ، فعوضنى حديثك فى ساعة ما أضنانى ، خلال خمس سنوات ، الانتظار المحروم .

وشربت الخمر لأول مرة فى حياتى . . وسكرت . . وصرنا فى ساعة متأخرة ، وخرجنا من المطعم ، وسألتنى عند الباب هل أنا فى عجلة ، أم لدى فسحة من الوقت ؟.. كيف كان لى أن أخفى عنك أننى لك ؟ . . فقلت لك إن لدى الوقت . . فترددت لحظة ، ثم سألتنى إلا ما ذهبت معك إلى شقتك لاستئناف الحديث . . فعبرت عن شعورى الصراح بالقبول الصريح ! . ولم يخف عنى أن قبولى السريع أدهشك . . كنت سكرى : سكر هوى وسكر مدامة ! .

واليوم ، بالطبع ، أدرك سبب دهشتك ، فإن المرأة السوء هى وحدها التى تقبل مثل هذه الدعوة بلا تردد . أما من كانت مثلى ، فلا بد من التوسل إليها ، وبذل التمنى والابتهال وتقبيل يديها ! . .

ولم أكن امرأة سوء . . ولم أكن فتاة ساذجة غريرة ، ومن أين لك أن تعرف أن سر قبولى هو نداء خفى قوى ، يجذبنى إليك ، ويجعلنى طوع يديك ، منذ ألف يوم ويوم ؟! .. ودعاك هذا القبول إلى التطلع لى باهتمام ، فصرت تفحصنى وتدرسنى ، تحاول بأسئلتك أن تستلّ سرى من صدرى . . فجاءت أجوبتى مبهمة ، غامضة . . وآثرت أن ألوح لك مجنونة ، على أن أبوح لك . .

وصعدنا إلى شقتك ! . . فيا لله ! . هذا هو صباى يعود إلىّ . . وهذا هو الحنين ! . . هذا هو الباب الذى وقفت ألف مرة وراءه ، أنتظرك ، وأرقبه ، وألمسه . . هذا هو العش الذى انضم على حبى ، وعلى سرى . . كان مسرحى وملعبى ، وقصرى المسحور ! . لقد هب هذا كله من حولى ، كالعاصفة الهوجاء ،

لأننى كنت معك ، لأننى صرت معك . . دخلت بيتك ، ودخلت بدنك ! .

وقضيت تلك الليلة معك ! . . لم تكن تحلم بأنه ما من رجل قبلك رأى جسدى ، أو مد إليه أصبعاً ! . . كيف يخطر لك ذلك وأنا التى لم تتدلل أو تتمنع ؟ لقد محوتُ كل أثر لشعورى بالعار والشنار ، خشية أن أخون سر حبى ، لئلا يشق عليك ذلك . . أنت الذى تحب الشىء السهل ، والحمل الخفيف ، الذى لا يثقل عليك ، ولا ينقض ظهرك . . فأنت تمنح الحب ، لكل من هب ودب ، ولكنك تأبى التضحية . .

وعند ما أقول لك إننى وهبتك نفسى ، عذراء ، كما ولدتنى أمى ، فلا تسىء الظن ، أو تتصور أننى أتهم ، فإنك لم تغرنى ، ولم تخدعنى ، أو تغوننى . . لقد ألقيت بنفسى بين ذراعيك ، وذهبت لألقى قضائى وقدرى . . ولما فتحت عينىّ فى الظلام ، وكنت إلى جنبى ، تخيلت نفسى أسبح فى سماوات بعضها فوق بعض ، وتساءلت دهشة : كيف أن الكواكب لا تضىء على جسدى ، وكيف أن النجوم لا ترصع شعرى ؟ !

وخرجت مبكرة فى الصباح ، لأذهب إلى عملى ، وانصرفت قبلما يجىء خادمك فيرانى . . ولما استعددت للرحيل طوقتنى بذراعيك ، ونظرت إلى طويلا . . فهل كان تذكار خفى يجرى فى ذهنك ، أم أن الهناء زادنى جمالا فى عينك ؟ . . وقبّلتنى على الشفتين . . وأعطيتنى أربع وردات بيضاء ، كانت فى زهرية على مكتبك . . وتواعدنا على ليلة أخرى .

ثم أعطيتنى ليلة ثالثة . . .

ثم قلت إنك مضطر إلى مغادرة العاصمة لوقت ما ! . .

أواه ! لشد ما كرهت دائماً رحلاتك هذه ! . ووعدتنى بالكتابة إلىّ بمجرد عودتك ، فلم أعطك إلا عنوان شباك البريد . . ولم أذكر لك اسمى

الحقيق . . احتفظت بسرى . . وأعطيتنى آخر مرة وروداً أخرى . . لأقبّلها أياماً ، وأتعلل بها عن غيابك ، وأتصبر .

ومرت الأيام . وانقضى شهران . . لا . . لن أصف ما أصابنى خلالهما من عذاب الانتظار ، وكرب القنوط . . فإننى هنا لا أشكو . . إنى أحبك كما أنت تماماً : سريع الحب ، سريع النسيان ، كريم القلب ، خائن الجسم . . إنى أحبك كما كنت كذلك دائماً . . رجعتَ إلى العاصمة قبل مضى الشهرين بوقت طويل ، دلنى على ذلك النور فى نوافذك ، ولكنك لم تكتب إلىّ . . وهأنذا ، بعد هذا الحب كله ، على وشك الموت ، ليس بين يدى سطر من خط يدك . . أنت الذى أعطيته حياتى .

فانتظرت . . انتظرت يائسة . . ولكنك لم تدعنى إليك ، ولم تكتب إلىّ سطراً ، ولا كلمة ، ولا حرفاً . .

* * *

لقد مات ولدى ليلة أمس . . وهذا الولد كان ولدك ، كان ثمرة إحدى تلك الليالى الثلاث . . . لقد كنت لك ، ولم أكن إلا لك ، من أول عهدى بالحب ، حتى ليلة مولده . . لقد أحسست بأن لمسك يطهرنى ، فما كنت لأتدنس بعواطف رجل سواك . . إنه كان ولدنا ، كان ثمرة حبى المسكين الأمين ، وثمرة عبثك ولهوك ، وعواطفك المسرفة ، غير المقصودة ! . .

لعلك ستفزع من ذلك . . أو لعلك ستدهش . . وستعجب كيف لم أخبرك قط بهذا الولد . . ولماذا لزمت الصمت خلال هذه السنين الطويلة . . والآن أنفض عليك خبره وهو مسجى فى ضجعته الأخيرة ، يفارقنى فراقاً لا عودة منه أبداً ؟ . .

كيف كنت أستطيع أن أخبرك ؟ لقد كنت فتاة غريبة ، ظهرت لأول وهلة بمظهر المتلهفة على قضاء تلك الليالى معك . . إنك ما كنت لتصدق أبداً

أننى ــ أنا الشريكة التى لا اسم لها فى لقاء عارض ــ كنت مخلصة وفية ، لغير مخلص ولا وفى ! . وما كنت لتقبل أبداً ، من غير هواجس الشك ووساوس الريبة ، التسليم بأنه ولدك . . حتى لو خالفت كل الظواهر ، ووثقت بكلمتى ، فإنك ستظل حتما تتهمنى ، بينك وبين نفسك ، بأننى انتهزت الفرصة لأدس عليك ، أنت الرجل المشهور الميسور ، طفلا من عشيق آخر ! . وما كنت لأتحمل أن يقوم بينى وبينك جو من الشك وسوء الظن . .

زد على هذا أننى أعرفك ، ولعلى أعرفك أكثر مما تعرف نفسك ! . . إنك أحرص ما تكون على التحرر ، والانطلاق من كل قيد ، وعلى راحة القلب ، وعلى راحة البال . . وهذا هو ما تفهمه من معنى الحب ، فلشد ما كنت تنفر وتشمئز إذا ما ألفيت نفسك فجأة فى مركز الأب . . ووجدت نفسك مسئولا عن مستقبل طفل . . إن نسمة الحرية هى لك بمثابة نسمة الحياة . . فإذا ما أحسست لحظة من دهرك أننى ربطتك ، وقيدتك بولد ، كرهتنى واجتويتنى . وهذا ما لا أحتمله ، ولا أطيقه ، ولا أتصوره ، فإنى أريد أن أكون من دون كل النساء اللواتى عرفتهن : تلك التى لا تذكرها إلا بالحمد وبالحب . . ولست أنكر عليك مروءتك ونخوتك وشهامتك . فأنت رجل كريم ، دمث الطبع ، رقيق الخلق ، تعطى باليدين ، ولكنك لا تطيق رؤية الضيق والذل . . ولقد رأيتك وأنا صبية صغيرة تعطى سائلا واقفاً ببابك ، قبل أن يفتح فمه ، وتعطيه سريعاً لتتخلص منه سريعاً ، خشية أن تلتقى نظرته بنظرتك ! . . لذلك ما كان لى أن أتجه إليك فى ضيقى وحرجى ومذلتى . . فقد تصورت استنكارك أو اشمئزازك . . ثم نفاد صبرك . . وارتيابك . . ثم عطاءك : الأشد إيلاماً من حرمانك . . وكنت لاريب ستنصحنى بالتخلص من الطفل وهو جنين . . وكنت لاريب سألبى نصحك ، لأننى لا أستطيع أن أعصى لك أمراً . . فزهدت فى هذا كله ، لأن الولد كان كل شىء لى . . كان ولدك ، كان منك ، كان روحك

ودمك . . وكان لحم لحمى ، وروح روحى . . كان لى . . وأنت لست لى ، ولن تكون لى وحدى .

بالله لاتزعم أن شهور الانتظار مرت ميسورة الرخاء ، موفورة الهناء ، كما تخيلت فى الأيام الأولى . . فقد اصطدمت بسفالة البشر ، وواجهت خساسة بنى الإنسان ، فتركت عملى ، خشية أن يفضحنى الحمل ، ويبلغ أمره أهلى . . ولم أسأل أمى مالا . . بل عشت من بيع أشياء تافهة . . حتى حدث قبل الوضع بأسبوع أن سرقت الغسّالة ما ادخرته من مال قليل . . فاضطررت إلى أن أقصد مستشفى الولادة . . وهناك ، فى ذلك الجو الكئيب ، المعتم ، الحزين ، وُلد ولدك ، فى ذلك الوسط من البطون الملعونة ، بين أفقر الناس ، وأحقر الناس ، وأبعد الناس عن رحمة الله والناس !.. يا لها من دار يخيم عليها الموت ، وهى مع ذلك فى كل لحظة تولد فيها حياة ! . كان كل شىء فيها غريباً موحشاً . . كنا نساء يجهل بعضنا البعض ، لايجمعنا إلا شقاء واحد ، ومقت واحد ، وضروب من البؤس والذل والويل ، حشدتنا أمامها فى صعيد واحد . . إن المريضة فى هذه الدار تفقد شخصيتها ، ولا يبقى منها إلا اسم مكتوب فى سجل المستشفى . .

عفواً إذا قلت لك ، أيها الكاتب الكبير ، إن ولدك قد ولد هنا ، فى هذا المحيط الشقى الموبوء . فالله يعلم أننى رغم هذا كله أحبك . وفى صيحة الألم ، والولد ينتزع منى ، كما تنتزع الحياة من الموت ، قد هتفت باسمك . .

قلت إنك ما كنت لتتقبل مولد ولدى ، وولدك ، بالحماسة والترحيب . . لذلك كان لزاماً علىّ أن أقوم وحدى على تربيته . . ولذلك أيضاً بعت نفسى ، وأغمضت عينى عن معانى الشرف والكرامة . إن جسدى لم يكن يمكن أن يكون إلا لك . فالذى بعته هو جثة هامدة لاشعور فيها . . وصاحبت رجلا غنياً غنى طائلا ، أغدق علىّ المال إغداقاً ، دون أن أحس ذرة من السعادة لهذا الترف . وكنت أعيش بالتمنى ، لعلى أراك يوماً . . وأخيراً جاءت الساعة المرتقبة !

ومع ذلك لم تسمع أنت دقتها ، ولم تفهم . . فرأيتنى ، دون أن تعرفنى ، فى « كاباريه » ، مع صاحبى ، ولفيف من الأصدقاء ، رجالا ونساء . . فتهافتّ على النظر إلىّ . . فكادت الكأس تقع من يدى لشدة اضطرابى ، وأنا أرى هيامك العارض المؤقت ، الذى شعاره : « ولك الساعة التى أنت فيها » . . فأشرت إلىّ : « إن لى كلاماً معك » . . وكنت أعرف ما هو كلامك . . وكنت أموت شوقاً إلى سماع هذا الكلام . وخرجت أنت . . فأسرعت أنا واعتذرت لصاحبى بالغياب دقيقتين . . وتبعتك . . ألست كلبتك ؟ . . فسألتنى موعداً . فوجدت منى الطاعة العمياء . . ألست جاريتك ؟ . . فجازفت وقلت : « أنخرج الآن ؟ » ، فأجبتك : « هيا بنا ! » . . وخرجت معك ، بغير معطف ، عالمة أن هذا الخروج معناه انقطاع كل صلة بينى وبين صاحبى : معناه الفقر والحرمان ، والتسكع والجوع . . ولكن معناه أيضاً : *أنه أكون لك* . . ساعة أخرى ! . .

وعدت إلى البيت ، بيتك ، بيتنا ، الذى أعرفه . . وكان لا يزال فى إناء الزهور ذلك الورد الأبيض الذى بعثت به إليك فى الصباح ، يوم عيد ميلادك : « *من امرأة مجهولة* ! » . فأخذتنى بين ذراعيك . وفى حميا الهوى لم تعرفنى ، ولم تذكرنى ، أنا التى أحببتك طفلة ، وأحببتك شابة ، ووهبتك ما وهبتك . . وكان كل ما مر بى فى تلك الليلة ، مألوفاً لدى ، وكان مع ذلك جديداً علىّ . . حتى إذا كان الصباح ، وتناولنا الفطور ، وقمت إلى المرآة أصلح من نفسى ، رأيتك فيها تفتح حقيبة يدى ، وتضع فيها ورقتين من البنكنوت ! . . أواه من شقوتى وذلتى ! . . لقد حكمت علىّ بأنى امرأة بغى ، تصطاد من الملاهى ، ويدفع لها عند الصباح أجرها ! . . كدت أموت ، وكدت أجن . . وكدت أصرخ فيك ، وأطرح عليك كل الذل والعذاب والحزن الذى نسجته لى السنين الطوال . . ولكنى تمالكت حسرتى ودمعتى . . وسألتك أن أحمل واحدة من تلك الوردات البيضاء ، معتذرة لك بقولى : « لعلك حريص عليها ، لأنها من

امرأة تحبك ! » . . فقلت لى : « إنها هدية من امرأة لا أعرفها ! » . . فنظرت إليك فى صميمك قائلة : « قد تكون من امرأة أنت نسيتها ! »

ومع ذلك لم تعرف ، ولم تذكر ، ولم تشعر . . وأسرعت فى الخروج من جنتى ، من جحيمى . . ولما فتح لى الخادم العجوز وضعت فى يده ورقتى البنكنوت اللتين تفضلت بهما علىّ . . فنظر إلىّ . . وقد أضاء وجهه نور خاطف . . نور الذكرى . . فقد تذكرنى . . هو ! وعرفنى ، وهمهم يكاد ينطق باسمى ! . فأسرعت إلى السلم . . السلم الذى نمت عليه فى ليلة قارسة البرد . . فى انتظارك !

* * *

والآن : وداعاً . . إننى سألحق بولدنا ، إننى على فراش الحمى التى أودت به . . ولذلك كتبت إليك ، واثقة من أنها سوف تحملنى إليها ، قبلما يخطر لك أن تجىء فتحملنى إليك . . لو أنك فعلت ! .

إن كل ما وقع قد وقع بإرادة الله ، التى لا مرَدّ لها ، ولا حيلة لنا فيها ، ولا تفسير لدينا لمراميها . أما أنت ، أيها الحبيب ، فثق أننى حزينة من أن خطابى سيلقاك فى عيد ميلادك ، بدل تلك الوردات البيضاء ، التى كانت عبق روحى وأنفاسى ، تتضوع فى مسكنك مرة فى السنة . . فرجائى إليك — الرجاء الأول والأخير — أن تضع دائما ، فى هذا اليوم ، الذى يتذكر فيه الإنسان نفسه ، لأنه عيد ميلاده ، وردا أبيض : رمز حبى وصفاء نفسى . . لأن نفسى غير ناقمة عليك ، فأنت فى هذا كله ، أيها الحبيب الذى لا يعرف الحب ، لا لوم عليك ولا تثريب » . . .

فهرس

صفحة

أنا الشرق ٧
فلسفة القوة ٩
عش فى زمنك ! ١١
بين الحرية والفوضى ١٤
مأساة فرنسا ١٦
الحياة العملية ١٩
طابور الصمت ٢١
الشرقى والغربى ٢٣
الصبر الجميل ٢٥
الانجليزية والفرنسية ٢٧
النسيان ٣٠
المهنة قبل الزواج ٣٣
المدينة المحاربة ٣٤
الترفع بالاسلام ٣٦
ذكريات ٣٨
دروس للشرق ٤١
من أثر الحرب ٤٣
الحرب والأمومة ٤٥
سيف نابليون ٤٧
هؤلاء الانجليز ٤٩
سقوط باريس ٥١
إلى فتاة فى الريف ٥٣
وهؤلاء الانجليز ٥٥
شرقية غربية تتكلم ٥٨
عاد إلى الشرق ٦٠
ثم هؤلاء الانجليز ٦٢
شيخ يتكلم ٦٤

٢ – تابع الفهرس

صفحة

يعيش فى الماضى ٦٦
الرجل الجديد ٦٨
عروس النيل ٧٠
الشرق فى الغرب ٧٢
فى وطنه الروحى ٧٥
التاريخ ٧٧
الشرق أولى ٧٩
عند ما احتضر السلام ٨٠
تضامن الديمقراطيات ٨٢
الوزير الجندى ٨٤
سماحة الشرق ٨٥
العشاء الأخير ٨٧
ثم هؤلاء الانجليز !.. ... ... ٨٩
الشاعر ٩١
نور الشرق ٩٣
ويلات ٩٥
وحدة العالم ٩٧
عادت من الغرب ٩٩
كتائب شرقية ١٠١
موكب الذكرى ١٠٢
لوحات ١٠٣
الجو الداكن ١٠٥
شاب شرقى ١٠٦
من هم الأحرار ؟ ١٠٨
الحب الطاهر ١١٠
كانت لهم بيوت ١١٢
السعادة الغاربة ١١٤
عود إلى التاريخ ١١٦
القس الطيار ١١٨

٣ – تابع الفهرس

صفحة

رسالة المرأة ١٢٠
روح الشرق ١٢٢
أسبوع الآلام ١٢٤
نبوءات ١٢٦
شريد ١٢٨
التاريخ يعيد نفسه ١٢٩
المرأة فى الشرق ١٣١
لاتذكروا الربيع ١٣٤
وداع باريس ١٣٥
عرائس البادية ١٣٧
شرقى وشرقى ١٣٨
وجه الدنيا ١٤٠
عند ما يلتقى الشرق بالغرب ١٤٢
روح حائر ١٤٤
سيعود الربيع ١٤٦

الحياة قصة ...

دروس الأدب الحساس ١٤٨
عند ما أقبلت المرأة ١٥٢
ليلى ١٥٥
رجال يقتاتون بالأشجان ١٦١
وحش فى باريس ١٦٥
شرقية وشرقية ١٧٠
فى مقهى جامع باريس ١٧٧
مدينة النور : فى الظلام ١٨٣
غارات جوية : على باريس ١٨٧
مجاور فى باريس ١٩٤
رسالة رجل إلى امرأة ١٩٨
رسالة امرأة إلى رجل ٢٠٦

احمد الصاوى محمد

عرس وقلب

ثلاث مدارس عليا

للحب . .

والسياسة . .

والحكم . . .

مطبوع طبعاً مدهشاً على ورق بوڤان

الناشر

مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر

شركة فن الطباعة

صندوق بوستة ٤ شبرا مصر - تليفون ٥٨١٤٩

892.74:M95A:c.1
محمد ،احمد الصاوى
انا الشرق
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01039115